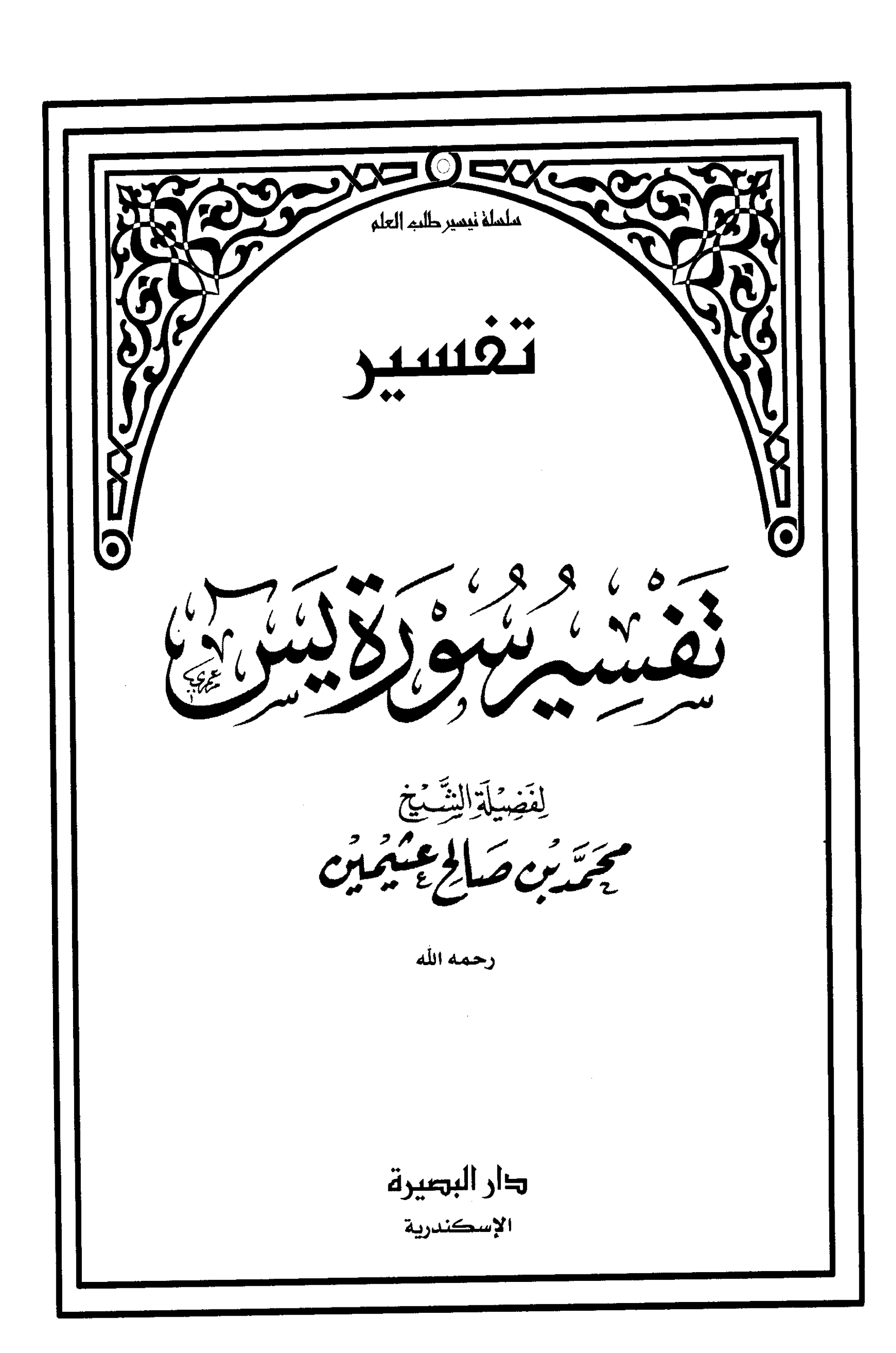


سلسلة تيسير طلب العلم

تفسير

تفسير سورة يس

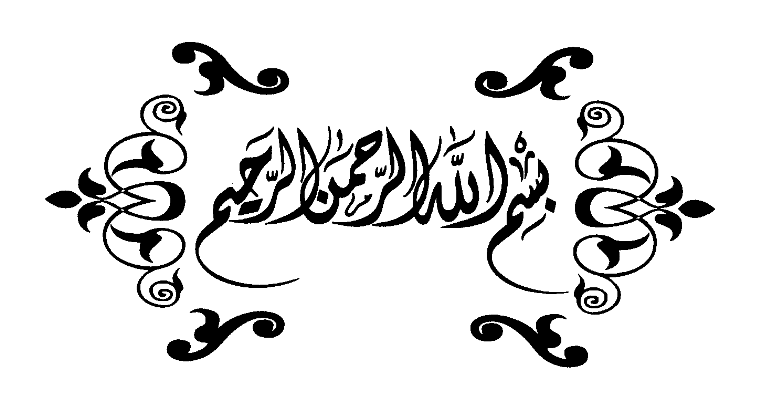
لفضيلة الشيخ

محمد بن صالح عثيمين

رحمه الله

دار البصيرة

الإسكندرية





هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠ ١٩٠٠٠٣٨

تفسير
سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم



رقم الإيداع
٢٠٠٢/٨٩٦٢

دار البصيرة

جمهورية مصر العربية

الإسكندرية - ٢٤ ش كانوب - كامب شيزار - ت: ٥٩٠١٥٨٠

مقدمة المؤلف

«سورة يس مكيَّة»: والمكِّي ما نزل قبل الهجرة، ليْس ما نزل بمكة: إذ قد ينزل بمكة بعد الهجرة ويكون مدنيًا، فما نزل قبل الهجرة فهو مكي وما نزل بعدها فهو مدني . . هذا القول هو الراجح من أقوال أهل العلم.

«أو إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾ (سورة يس:٤٧). الآية أو مدنية».

فالأقوال فيها إذًا ثلاثة: إما مكية أو مدنية أو مكية إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا﴾. والذي يظهر أنها مكية لأن أسلوبها أسلوب المكي والسور المكية تمتاز عن السور المدنية بقوة الأسلوب وجزالة اللفظ بخلاف السور المدنية فإن أسلوبها لين ألين لأنه يُخاطب قومًا آمنوا ويُخاطب أيضًا قومًا فيهم أهل الكتاب ليس عندهم من البلاغة في اللغة العربية ما عند العرب. فالظاهر والله أعلم أنها مكية . . وإذا جعلناها مكية فإننا لا نقول باستثناء شيء منها؛ لأن الأصل أن السورة المكية كلها مكية وأنَّ السور المدنية كلها مدنية . . فمن ادعى استثناء آية أو آيتين أو أكثر فعليه الدليل أما مجرد أن المعنى يليق بأهل المدينة مثلاً فهذا لا يكفي في الاستثناء؛ لأن الله تعالى قد يذكر معنى يليق بأهل المدينة توطئة وتمهيدًا حتى يكون الناس على بصيرة ولهذا يذكر الله تعالى في الآيات المكية قصص موسى، مع أن العناية بقصص موسى في المدينة أولى لأن فيها اليهود أما مكة فليس فيها يهود.

المهم: أن بعض العلماء إذا نظر إلى أن المعنى يليق بالسورة المدنية أو بالأحكام المدنية ذهب يستثني ويقول: إلا آية كذا . . إلا آية كذا . . وهذا غير مُسلَّم.

المؤلف



﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

البسملة آية من كتاب الله مستقلة يُؤتى بها في ابتداء كل سورة ماعدا سورة براءة، وليست من الفاتحة ولا من غيرها .. هذا هو القول الراجح .. وأما من قال إنها من الفاتحة وليست من غيرها فقوله ضعيف:

أولاً - للتفريق بدون دليل.

ثانيًا - أن حديث أبي هريرة ثابت في الصحيح وهو قول الله تعالى: **«قَسَمْتُ الصلاة بيْني وبين عبْدي نصفيْن»** يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة؛ لأنها لم تُذكر في هذا الحديث ..

وأيضًا: فقد كان النبي ﷺ لا يجهر بها في صلاته - لا يجهر بالبسملة - وهذا يدل على أنها ليست من الفاتحة وإلا لجهر بها كما يجهر في بقية الآيات.

أما إعرابها فقد سبق لنا مراراً وتكراراً وأنها جارٌّ ومَجْرُور وصفةٌ وموصوف، وأنَّ هذا الجار والمجرور مُتعلق بمحذوف .. وأن هذا المحذوف ينبغي أن يكون فعلاً خاصًا مُتأخراً.

فكونه فعلاً؛ لأن الأصل في العوامل الأفعال .. ولذلك تعمل الأفعال عملها بدون شرط .. الأسماء التي تعمل عمل الفعل لابد فيها من شروط.

خاصًا: لأنه أدل على المخصوص.

متأخراً: لفائدتين: التبرك بتقديم اسم الله عزَّ وجلَّ، وإفادة الحصر.

فعندما تُسمي على الوضوء ماذا تُقدر؟ **«بِسْم الله أتوضَّأ»** .. وإذا قُلت: **«بِسْم الله ابْتدائي»** يصح .. لكن البداية عام وأتوضأ أخص، والإتيان بالأخص أدل على المقصود .. وإذا قلت: **«ابتدائي بِسْم الله»** .. صح .. لكن فاتك .. التأخير

والتخصيص والفعلية؛ لأنك قلت: «ابتدائي»، إذا قُلْت: «أبتدئ بِسْم الله» فاتك التأخير والتخصيص، إذا قلت: «أتوضَّأُ بِسْم الله» فاتك التأخير فقط.

إذن: يقدر متعلق البسملة فعلاً خاصًا متأخرًا . . فعلاً لماذا؟

لأن الأفعال هي الأصل في العمل:

خاصًا لأنه أدل على المقصود.

متأخرًا لأمرين: تبركًا بالبداءة باسم الله، والثاني ـ إفادة الحصر يعني: لا أبتدئ بشيء إلا باسم الله.

ربما يقول قائل: هل يمكن أن نستدل لهذا القول بشيء من النص. نقول: نعم . . قال النبي ﷺ وهو يخطب الناس في عيد الأضحى : **«من لم يذبح فليذبح باسم الله»** أو **«فليذبح على اسم الله»** لفظان . . فإن هذا يدل على أن تقدير الأخص أولى من تقدير الأعم.

ذكرنا أن البسملة جار ومجرور متعلق بمحذوف . . هو أعلم الأعلام . . أعلم حتى من الضمير؛ لأنه اسم يختص بالله لا يمكن أن يشركه فيه أحد ولهذا قالوا: أعرف المعارف على الإطلاق اسم «الله» لأنه لا يشاركه فيه أحد . . الضمير إذا قلت: «قمت» صحيح لا يُشاركني أحد فيه لكن صالح أن يستعمله غيري . . أما «الله» فلا تصلح الشركة فيه.

أمَّا ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. فهما صفتان لله . .و﴿الرَّحْمَنِ﴾. و﴿الرَّحِيمِ﴾. معناهما: ذو الرَّحمة . . لكن ﴿الرَّحْمَنِ﴾. باعتبارها وصفًا لله . . و﴿الرَّحِيمِ﴾. باعتبارها فعلاً له . . ولهذا كان ﴿الرَّحْمَنِ﴾. عامًا . . و﴿الرَّحِيمِ﴾. خاصًا . . قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (سورة الأحزاب:٤٣). فـ ﴿الرَّحْمَنِ﴾. لوحظ فيه الوصف و﴿الرَّحِيمِ﴾. لُوحظ فيه الفعل . . ولهذا لَّما لوحظ في ﴿الرَّحْمَنِ﴾. الوصف جاء على الأوزان التي تدل على الامتلاء والسعة فصارت على وزن «فعلان».

و«الرحمة» صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الحقيقية الثابتة له على وجه الحقيقة لا المجاز. وقد أنكرها أهل التعطيل ومنهم الأشاعرة وقالوا: إنه ليس لله صفة هي الرحمة؛ لأن الرحمة رقة ولين وهذا لا يليق بالله عزَّ وجلَّ. وفسروها إما بالإرادة؛ لأنهم يؤمنون بالإرادة، وإمَّا بالفعل لأنَّ الفعل مُنفصل عن الفاعل، يعني المفعول مُنفصل عن الفاعل.

فهم يفسرونها إمَّا بالإحسان وهو مخلوق منفصل، وإما بإرادة الإحسان؛ لأنهم يقرون بالإرادة .. ولاشك أن قولهم هذا باطل وأنَّه إنكار صفة من أعظم صفات الله عزَّ وجلَّ وهي من أبرز صفاته فقد قال الله تعالى: **«إنَّ رحْمتي سبقت غضبي»**.

والعجب كل العجب أنهم يقولون: إنَّ الإرادة دلَّ عليها العقل، والرحمة دل العقل على انتفائها!! كيف؟!

قالوا: لأن التخصيص دالٌّ على الإرادة .. التخصيص: يعني مثلاً: كون هذا سمَّاه هذه أرض، وهذه شمس، وهذا قمر .. إلى آخره .. يدل على الإرادة لأنه لا مُخصص إلا بإرادة .. أما الرَّحمة: فيقولون: إن العقل لا يدل عليها بل يدل على انتفائها!!

فنقول عجبًا لكم! دلالة العقل على الرحمة أبلغ وأظهر وأوضح من دلالته على الإرادة .. ولهذا جعلتم دلالة العقل على الإرادة بالتخصيص، وهذا لا يفهمه إلا خواص الناس. يمكن طالب العلم لو تسأله بدون أن يعرف البحث ما استدل بالتخصيص على الإرادة وهو طالب علم .. لكن الرحمة: كل يعرف أن لله تعالى رحمة ويستدل عليها بالعقل .. تأتي العامي في السوق تقول: «نزل المطر واخضرت الأرض ورويت الزرع» وما أشبه ذلك .. من أين هذا؟ ماذا يقول لك «من رحمة الله» مباشرة .. فيستدل بالنعم التي هي من آثار الرحمة على الرحمة .. ولكن نسأل الله لنا ولهم الهداية .. **﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾** (سورة النور: ٤٠).

تأويل قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ ﴾

﴿يس﴾ الله أعلم بمراده. ولاشك أنَّ الله أعلم بمراده ومُراد غيره وأعلم بكل شيء . . ولكن ما المراد بهذين الحرفين الهجائيين؟

الله أعلم لا ندري ماذا أراد الله عزَّ وجلَّ.

ومنهم من قال: إن معنى ﴿يس﴾. «يا إنسان» فـ «يـ» حرف نداء على زعمهم، و﴿يس﴾. كلمة يعبر بها عن الإنسان . . وبعضهم أتى بغير ذلك أيضًا مما لا طائل تحته ولا دليل عليه.

لكن يبقى النظر: هل نقول كما قال المؤلف: «الله أعلم بما أراد» في جميع الحروف الهجائية التي ابتدئت بها السور؟ أو نقول: إنه لا معنى لها. بمقتضى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (سورة الشعراء:١٩٣-١٩٥). فإن مقتضى اللسان العربي المبين أن هذه الحروف ليس لها معنى فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾. على كل كلمة أو حرف في القرآن الكريم فإننا نعلم أن ﴿يس﴾. ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المبين: «يـ» ما لها معنى: حرف هجاء «س» مالها معنى أيضًا: حرف هجاء . . وهذا القول ذكره ابن كثير عن مجاهد رحمه الله وهو قول قوي . . ويشهد له الآية التي استشهدت بها.

إذًا . . نقول: لا معنى لهذه الحروف . . فيرد علينا إشكال إذا قلنا لا معنى لها: كيف يأتي الله عزَّ وجلَّ في كتابه العظيم بكلام لغوٍ لا معنى له؟!

والجواب على هذا أن يقال: إن له مغزى عظيمًا، هذا المغزى هو: أنكم أيها العرب الذين عجزتُم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك لا لأن هذا القرآن أتى بحروف جديدة أو كلمات جديدة بل هو من الكلمات التي تُكَوِّنون منها

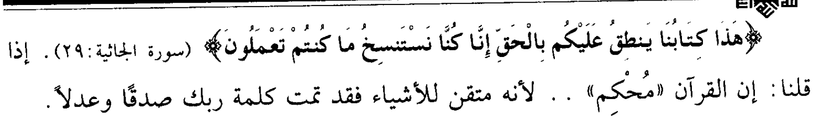
كلامكم . . حروف هجائية . . ولهذا قل أن تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن مما يدل على أن هذا هو المراد بها.

وهذا ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وقبله الزمخشري أيضًا في تفسيره . . وغيره من العلماء . . على أن هذه الحروف هجائية جيء بها؛ لأجل إظهار عجز العرب عن معارضة هذا القرآن مع أنه ليس بجديد في كلامهم.

قَالَ تَعَالَىَ: ﴿يسٓ (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ . . الواو هذه للقسم . . فلها معنى ولها عمل. عملها: الجر. ومعناها: التأكيد . . فالقسم تأكيد الشيء بذكر معظم على صورة مخصوصة . . هذا القسم . . ولابد أن يكون المحلوف به مُعظمًا ولو تقديرًا في ذهن المقسم . . كأنه يقول ـ أي المقسم بالمعظم ـ: بقدر تأكدي تعظيمي لهذا الشيء أؤكد ما حلفت عليه . . بقدر تعظيمي لهذا الشيء وتأكدي منه وإتياني له أؤكد المحلوف عليه، ولهذا لابد أن يكون المحلوف به معظمًا وإلا لكان الحلف لا فائدة منه.

﴿وَالْقُرْآنِ﴾ المُراد به هذا الذي نقرؤه . . كلام الله عزَّ وجلَّ . . وهو مشتق من «قَرَأَ» بمعنى تلا . . لأنه متلو، أو من «قَرَى» بمعنى جَمَعَ . . لأنه مجموع وجامع . . فهو مشتق من المعنيين . . من القراءة بمعنى التلاوة ومن قرى بمعنى جَمَعَ . . ومنه «القرية» لأنها مجمع الناس . . فالقرآن جامع بين المعنيين . . فهو متلو وجامع ومجموع . . كلمات مجموع بعضها لبعض . . كلام جامع لكل ما فيه الخير والصلاح.

قَوْلُهُ تَعَالَىَ: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾. الحكيم صفة للقرآن، وهي بمعنى: مُحْكِم، أو بمعنى: مُحْكَم، أو بمعنى: حاكم . . كلها تحتمل . . فالقرآن «حاكم» لأنه يجب الرجوع إليه . . ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (سورة النساء: ٥٩).



﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الجاثية:٢٩). إذا قلنا: إن القرآن «مُحْكِم» . . لأنه متقن للأشياء فقد تمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً.

وكذلك أيضًا «مُحْكَم» لأن الله تعالى أحكمه وأتقنه فليس فيه تناقض ولا تعارض: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء:٨٢). إذًا . . هو مشتمل على الحكمة أيضًا . . ففيه معنى الحكمة والحكم.

وإذا كان حكيمًا فإننا نعلم أنه حكيم في ترتيبه كل آية إلى جنب الأخرى حتى وإن ظننا أنه لا ارتباط بينهما فإنما ذلك إما لقصورنا أو تقصيرنا . . فمثلاً: لو قال قائل: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (سورة البقرة:٢٣٨). جاءت في سياق آيات العِدَد فما هو الارتباط؟

نقول: لابد أنَّ هناك حكمة لكن قصرت أفهامنا عنها . . أو قصرنا في التدبر لطلبها والمراجعة لكتب أهل العلم.

إذًا: هو حكيم في ترتيبه . . حكيم في أحكامه . . فأحكامه كلها عدل موافقة للفطرة وللعقل الصريح، ولهذا لا تجد شيئًا في أحكام القرآن مناقضًا للفطرة أبدًا بل هو موافق للفطرة، ولا تجد شيئًا في القرآن يكذبه العقل أو يحيله أبدًا بل إن العقل يقرر في الجملة ما جاء به القرآن.

كذلك: حكيم في أسلوبه . . يشتد في موضع الشدة ويلين في موضع اللين، ويأتي بأساليب غريبة ما كانت معروفة في أساليب العرب . . فبينما الآية سياقها خبري إذا بها تنتقل إلى سياق إنشائي من استفهام، أو نهي أو أمر، أو ما أشبه ذلك، وكل هذا من الحكمة، بينما القرآن يتحدث بصيغة الغائب إذا به ينتقل إلى صيغة الحاضر فينتقل من أسلوب إلى آخر وهو ما يُسمى بالالتفات وأنواع هذا في القرآن كثيرة.

فالقرآن إذًا حكيم بكل معنى الحكمة وبكل معنى الإحكام وبكل معنى الحكم.

قال المؤلف مقتصرًا على واحد منها: «المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني» فأتى بمعنى واحد من معاني الحكيم . . ونحن ذكرنا ثلاثة أشياء: ذو حكمة، ومُحْكِم، ومُحْكَم، وحاكم أيضًا فذكرنا أنه حاكم وذو حكمة وحُكْمٍ وإحْكام . . فيشمل أعم ممَّا قال المؤلِّف.

هذا المُقسَم به . . وإقسام الله تعالى بكتابه الحكيم يدل على عظم هذا القرآن وعلى عظم ما جاء به من الإحكام والحكمة والحكم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) ﴾

﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فأقسم الله تعالى بكتابه على أن محمدًا ﷺ من المرسلين وقوله: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنه سبقه الرسل وهو خاتم الرسل وأكملهم شريعة جاء ليتمم مكارم الأخلاق، وقد شبَّه النبي ﷺ رسالته برجل بنى قصرًا وأشاده وبقي موضع لبنة فصار الناس يطوفون به ويتعجبون منه إلا موضع هذه اللبنة، قال: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». هذه الجملة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. مؤكدة بثلاثة مؤكدات:

القسم، وإنَّ، واللام. ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. قال: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. متعلق بما قبله .. الذي قبله ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، ومُرْسَل: اسم مفعول صالحٌ للعمل لأنه تعلق به المعمول ..

فالمعنى: إنك لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم .. لأن جميع الرسل على صراط مستقيم بلاشك .. ولكن يحتمل وجهًا آخر أحسن مما قال المؤلف وهو أن تكون: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. خبر ثانٍ لـ «إنَّ»: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.. إنك ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وهذا أنسب ويشهد له قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (سورة الشورى: ٥٢-٥٣).

إذًا .. فنقول: الوجه الثاني في إعراب ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. أنها خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» وقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال: «أي طريق الأنبياء قبله: التوحيد والهدى». ﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: صراط: فِعَال بمعنى مفعول، لأن فِعالاً تأتي بمعنى المفعول كثيرًا. كقولهم: بناء، وغِراس، وفِراش، بمعنى: مبني، ومغروس، ومفروش.

صراط: فعال بمعنى مفعول: أي: مصروط، والصَّرْطُ: المرور بسرعة . . هذا الصرط، ومنه قولهم: «صَرَطَ اللقمة» أي: ابتلعها بسرعة، وفي اللغة العامية عندنا نقول: «زَرَطَ» وهي لغة عربية في «صراط» فيها «سراط» بالسين و«زراط» بالزَّاي . . كلها لغة عربية. الصراط لا يكون صراطًا إلا إذا كان طريقًا واسعًا يتحمل طوائف يعبرون عليه، قالوا: وأيضًا من صفاته أن يكون مستويًا ليس فيه طلوع ولا نزول.

و ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ صفة له مؤكدة . . يعني: أنه لا اعوجاج فيه . . ولاشك أن ما جاء به الرسول ﷺ صراط مستقيم . . لأنه طريق واسع يسع كل الأمة منذ بُعث إلى أن تقوم الساعة . . لا يُمكن أن يضيق صراط واسع، أيضًا لا يُمكن أبدًا أن يضيق عن الأحكام الشرعية . . كل حادثة تنزل منذ بعث الرسول ﷺ إلى يوم القيامة لابُدَّ أن يوجد فيه حل لمشكلتها إن كانت مشكلة فيما جاء به الرسول ﷺ .

ولذلك: نقول: إنَّ هذا الشَّرع ـ القرآن والسُّنة ـ كامل لا يحتاج إلى تكميل . . وأيضًا واسع لا يُمكن أن يضيق بأي جُزئية تقع إلى يوم القيامة.

إذًا . . ما فيه شيء مُشكل في الشريعة لكن الإشكال إنما يأتي من قبل الناس إمَّا لقصور في الفهم أو لتقصير في طلب العلم والهدى أو لأشياء رانت على قلوبهم وأظلمتها حتى لا تُبصر الحق . . يعني: قد يكون الإنسان غير مُقصر ولا قاصر عنده فهم قوي وعنده آلة قوية وعلم، لكن يكون على قلبه ذُنوب تحول بينه وبين رؤية الصَّواب . . ولهذا ينبغي للإنسان إذا أُشكل عليه مسألة من المسائل بعد المراجعة والتتبع لكلام أهل العلم أن يُكثر من الاستغفار؛ لأن الاستغفار يمحو الله به الخطايا فيكون القلب مُستنيرًا، وربما يستنبط هذا من قوله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء:١٠٥-١٠٦). ويُستدل له أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا

يَكْسِبُونَ﴾ (سورة المطففين:١٣-١٤). فالذنوب منعت القلوب أن ترى أحقية هذا الكتاب حتَّى قال القائل: إنها أساطير الأولين.

فالمهم أنَّا نقول: إنَّ هذا الدِّين صراط مُستقيم واسع يسع جميع الناس إذا دخلوه، واسع يشمل جميع أحكام الحوادث والنوازل منذ بعث الرسول ﷺ إلى أن تقوم الساعة ولكن الإشكال الذي يكون: إما من قصورنا أو تقصيرنا أو من أمور رانت على القلوب فلا ترى الحق.

التأكيد بالقسم وغيره:

التأكيد بالقسم في قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾. وغيره يعني بذلك: «إنَّ»، واللاَّم ردٌّ لقول الكُفار له: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ (سورة الرعد:٤٣). كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾.

إذًا . . فالكلام مُطابق لمقتضى الحال لأنه يُخاطب المنكر، وقد سبق لنا في البلاغة أنَّه إذا خُوطب المنكر فإنه يجب أن يؤكَّدَ له الخبر، يعني: يقول علماء البلاغة: للمخاطَب ثلاثة مراتب: أن يكون مُنكرًا، وأن يكون مُترددًا، وأن لا يكون في ذهنه شيء . . لا إنكار ولا تردد . . قالوا: فإن كان منكرًا وجب تأكيد الخبر له، وإن كان مُترددًا حسن أن يؤكد له الخبر، وإن لم يكن في ذهنه شيء فإنه يُلقى إليه الخبر غير مؤكَّد . . هذا هو الأصل.

إذا كُنت تُخاطب إنسانًا ليس في ذهنه شيء عن مدلول الخبر فألق الخبر إليه غير مؤكد تقول: «زيدٌ قائم»، إذا كنت تُخاطب مترددًا في صحة الخبر فأكده له استحسانًا . . إذا كنت تُخاطب منكرًا فإنه يجب أن تؤكد له الخبر . . هذا هو الأصل . . وقد يحذف التوكيد في موضع التوكيد، وقد يأتي في غير موضع التوكيد لأسباب تعرف من السياق.

هنا الكفار يقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾. فكان تأكيد خبر الرسالة لهم واجبًا . . يعني: ممَّا توجبه البلاغة . . والوجوب هنا ليس وجوب التكليف الذي يأثم بتركه . . بل الوجوب من حيث البلاغة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)﴾

﴿تنزيلَ﴾: خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، أي: القرآن ﴿تنزيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿تنزيلَ﴾ مصدر نَزَّل يُنَزِّل. والقرآن مُنْزَل ومُنزَّل .. مُنزل .. يعني: يَنزل شيئًا فشيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ١٠٦). فإنه ينزل شيئًا فشيئًا.

ويعبر أحيانًا عن القرآن بأنه «أُنْزِل» باعتبار نهايته، فإنه باعتبار النهاية يكون نزل كله، وباعتبار التدريج في تنزيله يكون مُنَزَّلاً.

وهكذا في القرآن نُزول المطر: أحيانًا يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ (سورة ق: ٩). وأحيانًا يقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (سورة الرعد: ١٧). فباعتبار أنَّ المطر ينزل شيئًا فشيئًا يُقال: «نَزَّلْنَا» وباعتبار النهاية واجتماعه كله يُقال: «أَنْزَلْنَا».

وقوله: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ﴾. قال المؤلف: «في مُلْكه» يعني: الغالب في مُلكه الذي لا يُغلبُ فيه. وقد مَرَّ علينا في باب العقيدة أنَّ العزيز من أسماء الله، وأنَّ العِزَّةَ لها ثلاثة معان: عِزَّةُ القدر، وعِزَّة القهر، وعِزَّةُ الامْتناع.

عِزَّةُ القَدْر: بمعنى أنه ذو قدر عظيم رفيع.

عِزَّةُ القَهْر: بمعنى أنه قاهر غالب.

عِزَّةُ الامْتَناع: بأنه قوى لا يناله شيء. قال ابن القيِّم:

وهو العزيزُ فلَنْ يُرامَ جَنابُهُ *** أنَّى يُرامُ جنابُ ذو السُلْطانِ

فهو عزَّ وجل عزيز مُمتنع أن يناله السوء ومنه: «الأرض العزاز» لقوتها وشدتها، إذًا .. فقول المؤلف: «العزيز في ملكه» فيه قصور.

قال: «الرَّحيم بِخلقه» وهنا نقول: إن الرحيم عامة لأنها لم تُقيد .. فالمراد به الرَّحمة العامَّة، فهو سبحانه وتعالى رحيم بخلقه كلهم، ما من دابة في الأرض إلا

على الله رزقها. حتى الكافر يرزقه الله تعالى العقل والصحة والأولاد والمال والأزواج . . لكن هذه رحمة عامة . . أمَّا الرَّحمة الخاصَّة بالمؤمنين ففي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ (سورة الأحزاب:٤٣). قال: «الرَّحيم بخلقه» وهنا: أضاف تنزيل القرآن إلى هذين الاسمين إشارة إلى وجوب العمل بما جاء في القرآن وأنَّ من لم يعمل به فإن أمامهُ العزيز الذي يأخذه أخذ عزيز مقتدر، الرَّحيم: إشارة إلى أن هذا القُرآن إنزاله من مُقتضى رحمته بخلقه؛ لأن الله تعالى ما رَحِمَ خلقه رحمة أعظم من إنزال القرآن الكريم؛ لأنَّ به الحياة . . الحياة القلبية والبدنية والفردية والاجتماعية، ففيه تهديد للذين يُخالفون هذا القرآن بأنَّه نَزَلَ من عنْد عَزِيز ينتقم ممَّن خالفه. رَحيم: إشارة إلى أنَّ هذا القرآن من مقتضى رحمته سبحانه وتعالى.

قال: «خبر مُبْتدأ مُقدَّر» وماذا يعني بخبر مبتدأ مقدر؟ «تَنْزيلُ» بالرَّفْع أيْ القُرآن . . يعني التقدير: القرآن تنزيل العزيز الرَّحيم. في قراءة سبعية: ﴿تنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. وعلى هذه القراءة يكون منصوبًا على أنَّهُ مصدر عامله محذوف . . يعني: نُزِّل تنزيل العزيز الرَّحيم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦)﴾

قال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هذه تُسمَّى: لام التعليل، والفعل بعدها منصوب بها: على مذهب الكوفيين منصوب باللاَّم، وعلى مذهب البصريِّين منصوب بأن مضمرة بعد اللام.

وعلى كل حال: فهي تحتاج إلى متعلق . . اللام ﴿لِتُنذِرَ﴾. تحتاج إلى متعلق . . فأين متعلقها؟ قوله: ﴿تَنزِيلَ﴾ . . يعني: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. لِتُنذِرَ﴾. يعني: إنما نُزل ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾. «تُنْذِر» قال العلماء: إنَّ الإنذار: هو الإخبار المقرون بالتخويف أو المُتضمن للتخويف. الإنسان مثلاً يأتي إلى قومه يصيح بهم: العدو العدو، يُقال هذا مُنذر ونذير، فالنذير عن شيء يُخوف فهو إعلام مُتضمن للتخويف.

هذا القرآن أنزله الله عزَّ وجلَّ ليُنذر النبي ﷺ به: ﴿قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾. أي: لم يُنذروا في زمن الفترة، وعلى هذا فـ «ما» نافية: يعني: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾. أي لم يُنذروا: لم يخوفوا لكن في زمن الفترة، وأما قبل: فقد أنذروا بواسطة إسماعيل بن إبراهيم فإنه مُرسل إلى العرب إلى قومه وبعد ذلك لمْ يُنذر هؤلاء . . قال بعض المُعربين الذين يجمعون الأقوال صحت أو ما صحت، أي أنهم يقولون أي احتمال. قال: ويجوز أن تكون «ما» موصولة: أي لتنذر قومًا الذي أُنذرهُ آباؤهم، فيجعلون «ما» موصولة ويجعلون العائد محذوفًا، التقدير: الذي أُنذره آباؤهم، أي: لتنذرهم الذي أنذره آباؤهم.

ولكنَّ هذا وإن كان مُحتملاً من قبل اللفظ لكنه بعيد من جهة المعنى؛ لأن الآيات الكثيرة المتعددة تدل على أن قريشًا الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ لم يُنذَر آباؤهم: ومنه قوله تعالى في سورة «آلم تنزيل» السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (سورة السجدة: ٣). وهذا صريح في أن «ما» هنا للنفي لا غير.

﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾. في زمن الفترة ﴿فَهُمْ﴾. أي القوم ﴿غَافِلُونَ﴾. عن الإيمان والرشد. غافلون: لأنهم ما أتاهم نذير، ومعلوم أن النذر توجب حياة القلوب والانتباه، ولهذا تجد الإنسان نفسه إذا لم يأته واعظ يغفل وتكثر فيه الغفلة، فإذا أتاه واعظ فكأنما أيقظه من نوم، هؤلاء لَّما تطاول عليهم الأمد ولمْ يأتهم نذير غفلوا وكأنهم ما خُلقوا لعبادة الله وجعلوا لهم أصنامًا يعبدونها من دون الله ويركعون لها ويسجدون وينذرون ويوفون . . فهم غافلون لعدم من يُوقظهم . . ولكن من هؤلاء من عنده علمٌ من الرسالة، من هؤلاء الذين في زمن الفترة من عنده علمٌ من الرسالة لكنه عاند وبقي على ما كان عليه آباؤه، كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فإنَّ الذين شَهِدَ لهم الرسول ﷺ بالنار نعلم عِلم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة لولا ذلك ما كانوا من أهل النار. فأهل الفترة نوعان:

نوعٌ علمنا بشهادة النبي ﷺ أنه قد بلغتهم الرسالة لِحُكم الرسول ﷺ عليهم بأنهم من أهل النار.

وآخرون لا ندري عنهم شيئًا فالواجب علينا أن نتوقف في أمرهم وأن نقول: الله أعلم بما كانوا عاملين وأصح الأقوال فيهم أنهم يمتحنون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار.

❖ **في الآيات الكريمة فوائد:**

أولا ـ بيان أنَّ هذا القرآن الذي أعجز البشر لم يكن بدعًا من لسانهم وأنه من الحروف التي يركبون منها كلامهم . . يُشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿يس﴾ ولهذا لا تأتي هذه الحروف الهجائية في أوَّل السُّورة إلا وجدت بعدها ذكر القرآن في الغالب.

ومن فوائد الآيات الكريمة: عظمة القرآن العظيم، لأن الله تعالى أقسم به، ولا يُقسم إلا بالشيء المُعظم، ثم قد يكون عظيمًا في ذاته حقيقة وقد يكون مُعظمًا باعتبار المقسم به، فالذين يحلفون باللات والعُزَّى يحلفون بمعظم لا بعظيم؛ لأنه معظم

عندهم، لكنه ليس بعظيم في نفسه، والذين يُقسمون بالله وآياته يحلفون بعظيم: بمعظم في قلوبهم وهو عظيم في نفسه، فالقرآن الكريم عظيم في نفسه.

ومن فوائد الآيات الكريمة: الثناء على القرآن بأنه حكيم على الوجوه الثلاثة التي ذكرناها لقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾.

ومن فوائدها: العناية بإثبات رسالة النبي ﷺ لأن الله تعالى أقسم عليها وأكدها زيادة على القسم بإنَّ واللاَّم.

ومنها: ثبوت رسالة النبي ﷺ فمن أنكرها فهو كافر، لأنه مكذب لله ورسوله وإجماع المسلمين.

ومن فوائد الآيات الكريمة: إثبات الرسل وأن ثمة رسلاً غير محمَّد ﷺ لقوله: ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولهذا قال الله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف:٩). يعني: لست أول رسول، فإنه ﷺ قد سبقه رسل من قبله.

ومن فوائد الآيات الكريمة: أن ما جاء به النبي ﷺ من الشرع فهو الصراط المُستقيم.. لقوله: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. وفيه من العوج والشر بمقدار ما خالف شريعة النبي ﷺ.

ومن فوائد الآيات الكريمة: أن القرآن مُنزل من عند الله.. لقوله: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

ومن فوائد الآيات الكريمة: أن القرآن كلام الله.. لقوله ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. ووجهه: إذا كان منزلاً فهو قائم بذاته أو قائم بغيره والكلام قائم بغيره فيكون كلام الله غير مخلوق.

ومن فوائد الآيات: إثبات عُلُوِّ الله.. لقوله ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ﴾. والنزول لا يكون إلا من أعلى، وعلو الله عزَّ وجلَّ دل عليه الكتاب والسُّنة والإجماع والعقل والفطرة.. كل هذه الأنواع الخمسة من الأدلة دلت على عُلُوّ الله عزَّ وجلَّ.

ومن فوائد الآيات الكريمة: إثبات العزيز والرحيم اسمين من أسماء الله، وإثبات ما تضمَّناه من الوصف وما تضمنه الرحيم من الأثر وهو الحكم.

ومن فوائد الآيات: إنذار المخالفين لهـذا القرآن وذلك بإضافـة تنزيل إلى العزيز، لأنه إذا قيل مثلاً: «جاء هذا من عـزيز» دلَّ على إنذار من خالفه وتحذيره، فيكون في هذا الإنذار والتحذير من مخالفة هذا المُنَزَّل؛ لأنه نزل من عزيز.

ومن فـوائد الآيات: أنَّ الشرع كـله من آثار رحمة الله . . لـقوله: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ . فإن قلت: أين الرَّحـمة في قطع يد السَّـارق، وفي رَجْم الزاني المُحصَن، وفي قتل القاتل . . وما أشبه ذلك؟

فالجواب: أن الرحمة في ذلك واضحة جدًا: قطع يد السارق فيها رحمة بالسارق وبغيـره، رحمة بالسارق؛ لتـردعه عن السرقـة مرة أخرى ولتكون كفـارة لذنبه؛ لأن الحدود كفَّارة يُكفر بها عن فاعلها، وفيها أيضًا إصلاح المُجتمع وحمايته من الفوضى، وهذه رحمة لاشك.

وكذلك نقول في بقية الحدود والقصاص: إنه من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

ومن فوائد الآيات الكريمة: أنَّ الرسول ﷺ مُنذر: أي: مـعلم إعلامًا يتـضمن التخويف. فإن قلت: وهل هو مُبشر؟

الجواب: نعم مُبشر، لكن هنا ذكر الإنذار دون البشارة.

والجواب على ذلـك أن يقال: إما لأن المقـام يقتـضي ذلك؛ لأنه يخاطب قـومًا طاغين فـالأليق في حقـهم الإنذار والتخـويف؛ لأنهم مخـالفون وطاغـون، وإمَّا أن يُقال: إنَّ هذا من باب ذكر أحد المُتقابلين استـغناء بذكره عن ذكر الآخر كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (سورة النحل: ٨١). يعني: والبرد.

ومن فوائد الآيات الكريمة: أن النبي ﷺ مرسل إلى العرب خاصة . . كيف؟

من الذين ما أنذر آباؤهم؟ العرب . . إذن . . اليهود والنصارى ما أُرْسل إليهم؛ لأنه أنذر آباؤهم ﴿قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ نكرة موصوفة.

إذن . . نقول: إنَّ الآيات الأخرى تـدل على عموم رسالته: مـثل قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (سورة الأعراف:١٥٨). ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان:١).

وكقوله ﷺ: «**بُعِثْتُ إلى الناس كافَّة**». والنصوص في هذا كـثيرة متـوافرة ومن كذبها فقد كذب رسالته إلى العرب أيضًا؛ لأن الجنس واحد . . ولكن قد يُقال: لماذا خصَّ العرب؟ فيُقال: خصَّهم لأمرين:

الأول ـ أنَّهُ منهم: كمـا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (سورة الجمعة:٢).

والثاني ـ أنه باشر دعوتهم بنفسه . . وهدى الله العرب على يديه قبل موته، ثمَّ انتشرت رسالته في الآفاق، وقد ذكر ابن كثير رحمه الله هنا قاعدة أشرنا إليها من قبل وهي: أنَّ ذِكْر بعض أفراد الـعام بحكم يُوافقه لا يقتـضي التخصيص كـما ذكر ذلك أهل الأصول كالشنقيطي في تفسيـره وغيرهم وأنَّ هذا هو رأي الجمهور وهو الحق أنَّ ذكر بعض أفراد العام بـحكم لا يقتضي تخصيصه إذا كـان يُطابق حكم العام . . فإذا قلت مثلاً: «أكْرِم الطَّلبة» ثمَّ قلت: «أكْرِم زيْدًا» وهـو منهم فإنه لا يقتضي تخصيص الإكرام به؛ لأن الحكم هنا موافق للحكم العـام، وذِكْرُ بعض أفراد العام بحكم يُوافق العام لَيْس تخصيصًا له.

ومن فـوائـد الآيات: سب هؤلاء الذين غـفلوا عن الرسـالات . . بقـوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾. وأن الغفلة عن البحث عن الرسالة يعتبر ذمًا. وكذلك نقول: فيمن غفل عن البحث في جـزئيات الشريعة . . فمـثلاً: من غفل عن البحث في أحكـام الصلاة فإنه يُذم، ومن غفل عن البحث في أحكام الزكاة وهو مُحتاج إلى ذلك نقول: إنه يُذم.

ولهذا نقول: إن تعلم العلم الشرعي فرض كفاية، ومن أراد أن يقوم بعبادة من العبادات كان تعلم أحكامها عليه فرض عين.

وبناء على هذا نقول: كل طلبة العلم في كل مكان قائمون بفرض كفاية، ولهذا يحسن أن نستحضر هذا الأمر أننا في مجالسنا هذه نقوم بفرض كفاية نثاب عليه ثواب الفرض، وقد قال الله تعالى: «**ما تقرَّبَ إليَّ عبْدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افْترضْتُ عليْه**».

وهذه مسألة يغفل عنها كثيرٌ من الطلبة في مجالس الذكر والعلم، في المجالس الأخرى مجالس المراجعة .. تجد الإنسان مثلاً يُراجع الكتاب ولكنه ما يستحضر أنَّه الآن قائم بفرض كفاية، وهذا يُفوت علينا خيراً كثيراً .. ولهذا نسأل الله أن يُعيننا على تذكر هذا المعنى حتى نكسب خيرًا بما نقرؤه وبما نراجعه.

ومن الفوائد في الآيات: إثبات الحكمة لله تعالى المُستفادة من قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ⑦﴾

اللاَّم هذه موطئة للقسم .. أي أنها تدل على أنَّ هناك قسمًا محذوفًا تقديره: «والله لقد حقَّ». و«قد» للتحقيق .. وعليه فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المحذوف، واللام، وقد .. وهذا التركيب يأتي في القرآن كثيرًا .. وطريق إعرابه ما أشرنا إليه ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب .. حق هنا بمعنى وجب .. والقول: هو القول بالعذاب .. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يونس:٩٦). وفي الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (سورة غافر:٦).

فمن حقت عليه كلمة العذاب فإنه لا يمكن أن يهتدي مهما أُوتي من آية، ولكن لا تحق كلمة العذاب إلا على من استحقها حتَّى لا يُقال: إن الله تعالى قد أجبره على العمل. لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة الصف:٥). والله عزَّ وجلَّ ينظر في قلوب العباد، فمن كان أهلاً للهداية هداه، ومن لم يكن أهلاً لها لم يهده .. فمن حقت عليه الكلمة لما في قلبه من الزيغ والعياذ بالله فإنه لا يؤمن وقوله: ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾. ما هو القول؟ كلمة العذاب .. وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾. والآية الأخرى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾. يعني: على أكثر الذين بعث إليهم الرسول ﷺ من العرب وليس على كلهم، ولهذا كذب النبي ﷺ من قريش أممٌ كثيرة وماتوا على الكفر ولاسيما الصناديد منهم والأشراف.

﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ هم: الضمير يعود على «أكثر» لا على «الهاء» في ﴿أَكْثَرِهِمْ﴾. ﴿فَهُمْ﴾ أي الأكثر ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾. حتى وإن جئت بالآيات العظيمة البينة فهم لا يؤمنون؛ لأنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب. ففي الآية الكريمة هذه:

أولاً ـ تأكيد الخبر الهام وإن لم يكن المُخطاب منكرًا . . لأن هنا يُخبر الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ والمؤمنين وهم لا يُنكرون ذلك، لكن لأهميته أكد.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن من حقت عليه كلمة العـذاب فإنه لا يؤمن كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ (سورة الزمر:١٩). يعني: فقد ثبت أنَّه في النار فلا تُنقذه.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ من قريش الذين كذبوا الرسول ﷺ من لم تحق عليه الكلمة لا فيؤمن لقوله: ﴿عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أنه ينـبغي بل يجب على الإنسـان اللجوء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنه هو الذي بيده ملكوت السموات والأرض . . فلا تعتمد على ما في قلبك من رسوخ الإيمان مثلاً وتعتـقد أنه لن يتسلط عليك الشيطان ولن يتسرب إليك هوى النفس الأمَّارة بالـسُّوء، بل كن دائمًا لاجئًـا إلى الله تعالى سائلاً الثَّبات فقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾. فالأمر كله بيد الله.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨)﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: صيرنا .. ولهذا نصبت مفعولين: المفعول الأول - ﴿أَغْلالاً﴾، والمفعول الثاني - مُقدم ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، وقوله: ﴿أَغْلالاً﴾ الغل يكون باليد كما قال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة المائدة: ٦٤). إذا كان الغل في اليد وهنا قال: ﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ فمعناه أن اليد سوف تُشد إلى العنق، ولهذا قال: «بأن تضم إليها الأيدي لأن الغَلَّ يجمع اليد إلى العنق».

يقول: ﴿فَهِيَ﴾ أي: الأيدي مجموعة ﴿إِلَى الأَذْقَانِ﴾ قوله: «مجموعة» أخذها من قوله: ﴿إِلَى الأَذْقَانِ﴾. ويجوز أن نُقدر بدل: «مجموعة»: «منتهية أو بالغة» ﴿إِلَى الأَذْقَانِ﴾. جمع ذقن وهو مجمع اللحيين، اللحيان: هما العظمان اللذان عليهما الأسنان، ومجمعهما يُسمى ذقنًا.

يقول: «وهي مُجتمع اللحيين ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾: رافعون رؤوسهم»، والأحسن أن يقال: مرفوعي الرؤوس، يعني: لأن اليد المغلولة إلى العنق تضيق على الذَّقن ثمَّ يرتفع الرَّأس.

قال: «رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها» لو تصورت هذه الصورة لوجدتها صورة بشعة وأن الإنسان لا يتمكن معها من التصرف الحُرِّ .. رجل مثلاً مشدودة يداه بعضهما إلى بعض ثمَّ مجموعة إلى العنق من عند الذَّقْن .. إذن .. لابُدَّ أن يرتفع رأسه اضطرارًا ..

وزاد بعض العلماء في القمح: أنَّها مُغمضة أجفانهم: يعني لأنه إذا ارتفع رأسه باضطرار فإنَّ من تمام الذُّل أن يُغمِّضَ عينيه .. ولكن صنيع المؤلف يدلُّ على أنَّه ليس بشرط. المهم: أنك إذا تصورت هذه الحال عرفت أن هؤلاء لا تصرف لهم في أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتصرفوا بأخذ ولا رد بالنسبة لأيديهم .. وبالنسبة لرؤوسهم أيضًا ما يستطيعون تنزيلها دائمًا مرفوعة، وهذا تمثيل لحال هؤلاء المُكذبين .. كما قال المؤلف: «وهذا تمثيل والمراد أنهم يُذْعنون للإيمان ولا يخفضون رؤوسهم له».

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)﴾

بفتح السين وضمها في الموضعين: قراءتان سبعيتان، أي: سدًا ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾. ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾. يعني: أغشينا أبصارهم: جعلنا عليها غشاوة بحيث لا تبصر . . ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾. تمثيل أيضًا لسد طرق الإيمان عليهم.

ليس هناك سد حقيقي، أي: جدار مثلاً أو ثوب ساتر . . بل هذا من باب التمثيل كأنهم لبعدهم عن الإيمان والعياذ بالله وانحجاب رؤيتهم إيَّاه كأنهم جعل بينهم وبينه سد من بين أيديهم فلا يتقدمون ومن خلفهم فلا يتأخرون . . فهم ثابتون على الكفر لا يتقدمون ولا يتأخرون، ومع ذلك فإن أبصارهم عليها غشاوة لا تُبصر الحق ولا تنظر إليه ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ فتأمل أيضًا حالهم الآن: أيديهم مغلولة إلى أعناقهم من تحت الأذقان وهم رافعوا رؤوسهم ومع ذلك بينهم وبين الإيمان سد من الأمام ومن الخلف، فهم إذن . . لا يستطيعون أن يصلوا إلى الإيمان ولا أن يصل إليهم الإيمان.

❖ **ونستفيد من الآيتين الكريمتين فوائد:**

أولاً ـ أنَّ الله سُبحانه وتعالى إذا أراد أن يحجب الإيمان عن الشخص جعله كالمغلولة يده إلى عُنقه لقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً﴾.

ثانيًا ـ أن هذا الذي غُلَّتْ يده إلى عنقه على سبيل الغل كأنَّه مكره على أن يكون على هذه الحال . . وهكذا الشيطان يوسوس للإنسان حتى يوقعه في الهلاك كأنه مكره على ذلك: ألم تروا إلى ما جرى للأبوين حين جاء إليهم الشيطان ووسوس إليهما ولمْ يكتف بمجرد الوسْواس بل قاسمهما وصار يحلف لهما أشد الأيمان أنَّه ناصح . . فهكذا الشيطان يأتي الإنسان حتى يغويه كالمكره له.

ومن فوائد الآيتين الكريمتين: أن هؤلاء قد حجب عنهم الهُدى لا يتقدمون إليه ولا يتأخرون عنه.

ومن فوائدهما: أن أبصارهم أيضًا قد أغشيت وجعل عليها الغشاوة فلا تنظر.

ومن فوائد الآيتين: تحذير الإنسان إذا لم ينفتح له باب الهدى أن يكون من جنس أولئك، فإذا رأيت نفسك لا تعلم الهدى ولا تعرفه وحيل بينك وبينه فاعلم أنك على خطر، وإذا رأيت من نفسك أنَّ الهدى ينفتح لك ويتبين وينشرح به صدرك فاعلم أنَّك على خيْر.

نحن نقيس هذا بحال هؤلاء، جُعل السَّد مِنْ بيْن أيديهم ومن خلفهم وصاروا لا يُبْصرُون الحق فإذا رأيت من نفسك هذه الحال فاعلم أنك على خطر فتداركه.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠)﴾

﴿وَسَوَاءٌ﴾ خبرٌ مُقدم بمعنى: «مستو» و﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ مبتدأ مؤخر مسبوق بمصدر وإن لم تكن الهمزة من الحروف المصدرية . . لكن في مثل هذا التركيب قال العلماء: إنَّها تُسبق وما بعدها بمصدر، تقدير الكلام: «وإنذارك وعدمهُ سواء عليهم».

﴿وَسَوَاءٌ﴾ هنا لم يقل فيها: سواءان لأنها مصدر، والمصدر لا يُثنى ولا يُجمع.

وقوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ قال المؤلف في بيان القراءة فيها: «بتحقيق الهمزتين ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وإبدال الثانية ألفًا ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وتسهيلها ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وإدخال ألف بين المُسهلة والأخرى وتركه ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ تمد الأولى وتسهل الثانية . . يكون عندنا كم حرف؟ ثلاثة حروف: الهمزة الأولى مُحققة، والألف والهمزة الثانية مُسهلة . . «وتركه» كما قلناه في الأول بدون ألف تحقق الأولى وتُسهل الثانية بدون ألف.

وهذه القراءات سبعية أم لا؟

سبعية، لأنَّ المؤلف من عادته إذا جاءت قراءة شاذة غير سبعية يقول: «وقرئ». على كل حال: هذا لا يختلف به المعنى إنَّما هو في كيفية الأداء . . أمَّا المعنى فلا يختلف . . المعنى: أنَّ إنذارك وعدمه لهؤلاء سواء.

ثم بيَّن وجه التَّسوية فقال: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معنى التسوية يعني معناه: أنذرت أم لم تُنذر فإنهم لا يؤمنون . . ولهذا الجُملة هُنا استئنافية بيانٌ للجُملة الأولى - يعني: أنهم لا يؤمنون سواء أنذرت أم لم تنذر . . وهذا أمر مشاهد أن الإنسان الذي قد قُضي عليه بالضلالة والعياذ بالله تجيء تنصحه مرَّة بعد أُخرى وتُبين له وتُحذره، ولكن لا يزداد إلا نُفُوراً والعياذ بالله . . حتَّى إنَّ بعض الناس يسخر ويستهزئ بالجزاء . . فعلى كل حال: هذا الذي يُنذر ولا يتأثر بالإنذار يُخشى عليه كما أسلفنا من أن يكون قد طُبع على قلبه وأنه لا يؤمن أبدًا.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء المكذبين للرسول ﷺ لا يُبالون ولا تتغيَّر حالهم سواءٌ أنذرهم أم لم يُنذرهم.

ومن فوائدها: تسلية النبي ﷺ حيث إنه يتأثر بعدم الإيمان فسلاه الله عزَّ وجلَّ بأن هؤلاء قد حقت عليهم كلمة العذاب وأنَّهم لا يُؤمنون سواءٌ أنذرت أم لم تُنذر.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الرسول ﷺ كان يُنذرهم مع أنهم قد أُيس منهم فيستفاد منه: الإنذار حتى وإن يئست .. وهذا أحد القولين في المسألة فإن من أهل العلم من يقول: إذا أيست فلا تنذر ﴿**فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى**﴾ (سورة الأعلى:٩). وإن لم تنفع فلا تذكر.

وقال بعض العلماء: بل تُذكر وتُنذر سواء نفع أم لم ينفع .. بل يقولون: إنَّه لا يخلو من نفع مهما كان، لأن أقل ما فيه من النَّفع أن يُبين للناس أنَّ هذا العمل الذي عليه هذا الرجل عمل مُنكر ولأنَّه ربُما يهديه الله عزَّ وجلَّ فكم من أناس كانوا أئمَّة في الكفر ثمَّ هداهم الله عزَّ وجلَّ فكانوا أئمَّة في الدِّين.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)﴾

انظر: قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ثم قال: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ هذه الجُملة فيها حصر، طريقه: «إنما» ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ﴾ حولها إلى نفي وإثبات يكون التقدير: لا تُنذر إلا من اتبع الذكر.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ يعني أنَّ المراد بذلك: إنما تُنذر الإنذار النافع كأنه قال: لا ينتفع بإنذارك إلا من اتبع الذكر، ولهذا قال المؤلف: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ينفع إنذارك ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ خافه ولم يره ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ هو الجنة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ ما معناها؟ ينفع إنذارك.. هذا الذي ينتفع بإنذارك.

قوله: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ المراد بالإتباع شيئان:

الشيء الأول ـ تصديق الخبر واعتقاد مُقتضاه.. فإنَّ هذا اتِّباع.

والثاني ـ امتثال الأمر واجتناب النَّهي.

هذا اتباع الذكر.. فمن استكبر عمَّا فيه من الأمر أو النهي فإنه لم يتبعه.. ومن لم يصدق بأخباره فإنه لم يتبعه.. لا يتحقق اتباع الذكر إلا بهذين الأمرين: تصديق الأخبار واتباع الأحكام فعلاً للمأمور وتركًا للمحظور.

وقوله: ﴿الذِّكْرَ﴾ المراد به القرآن لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر: ٩). وسُمي القُرآن ذكرًا.

أولاً ـ لما فيه من التذكير والموعظة.

وثانيًا ـ لما فيه من ذكر الأخبار الماضية وقصص الأنبياء الغابرة المُفيدة للقلب.

وثالثًا - ما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء، وأنهم ينقسمون إلى فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير . . هذه ثلاثة أوجه.

الرابع - لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ**﴾ (سورة الزخرف:٤٤). فإنَّ القرآن لاشك رفع من شأن العرب وجعلهم هم الأمة الذين ترجع إليهم الأمم فإن الأمم كلها لم تهتد إلا عن طريق العرب . . ففي هذا لاشك رفعٌ لشأنهم وعزٌّ لمكانتهم، فلهذا سُميَ القرآن ذِكرًا.

الخامس - هو ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي؛ لأن هذا هو عديل الأخبار التي ذكرناها، أخبار الأمم الماضية وأخبار الناس في المستقبل، فيكون ذكرًا إذن لخمسة أوجه.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**﴾ . . ﴿**وَخَشِيَ**﴾ يقول المؤلف: بمعنى خاف . . وعليه فهذا من باب الحد اللَّفظي لأنه فُسر بمراده، فتفسير الشيء بمراده يُسمى حدًا لفظيًا . . إذا قلت: «القمْح هو البُرّ» هذا حد لفظي . . «الخشية هي الخوف» هذا حد لفظي.

ولكن في هذا نظر . . لأن هذا الحد غير مانع . . لماذا؟ لأنَّ الخشية ليست مُجرد الخوف بل الخوف عن علم للمخوف وعظمته هي الخشية بدليل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (سورة فاطر:٢٨). الخوف قد لا يكون لعظمة المخوف، ولكن لضعف الخائف . . لكن الخشية ما تكون إلا لعظمة المُخوف . . إذا عرفها الخاشي عظم هذا المخشي فخشيهُ.

إذًا . . بينهما فرق . . فتفسير الخشية بمطلق الخوف فيه نظر . . والصواب أن يُقال: الخوف عن عِلم بعظمة المخوف . . . والدليل: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾.

إذًا . . فالخشية ناشئة عن تعظيم المخشي، أمَّا الخوف فقد يكون ناشئًا عن ذلك، وقد يكون ناشئًا عن ضعف الخائف . . فالصغيرُ الذي له أربع سنين يخافُ الذي له ست سنين، والذي له ست سنين يخاف الذي له ثماني سنين . . وهكذا . . إذًا صاحب الست سنين ليْس عظيمًا بالنسبة لذاته، لكنَّهُ عظيم بالنِّسبة لمن دونه.

وقوله: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ اختيار هذا الاسم هُنا دون ذكر الله عزَّ وجلَّ؛ لأن الإنسان الذي يخشى الله عزَّ وجلَّ يخافه عن علم . . هذا الخوف طمأن الله الخائف أو الخاشي بأنه إنما يخشى رحمانًا يرحمه . . فكلما عظمت خشيتك لله عظمت رحمة الله بك؛ لأن الله عزَّ وجلَّ إذا خافه الإنسان وخشيه فإنَّه يرحمه؛ لأنَّه ما من إنسان يخشى الله حقيقة إلا سيقوم بأوامره ويجتنب نواهيه وحينئذ يكون مُتعرضًا للرحمة . . هذه هي المناسبة لذكر الرحمن دون ذكر الله.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ . . قال المؤلف: «ولمْ يَرَهُ» كأنه يُفسر أنَّ المراد بالغيب أنه يخشى الله مع غيبة الله عنه . . فيكون بالغيب حالاً من المخشي . . يعني: يخشى الله، والله غائب عنه. هذا أحد الوجهين في الآية.

الوجه الثاني - يخشى الله بالغيب، أي: يخشى الله في حال الغيب عن الناس . . يخشى الله في قلبه . . في عمل غائب لا يظهر . . فيكون بالغيب حالاً من الخاشي . . يعني: أن هذا الإنسان الذي أنذرته وانتفع بإنذارك هو الذي اتبع الذكر وخشي الله بالغيب حال كونه غائبًا عن الناس.

خشي الله بالغيب: أي بالعمل الغائب، بالغيب هي الخشية الحقيقية؛ لأن خشية الله في العلانية قد يكون سببُها مراءاة الناس ويكون في هذه الخشية شيءٌ من الشرك؛ لأنَّه يُرائي بها، لكن إذا كان يخشى الله في مكان لا يطلعُ عليه إلا الله فهذا هو الخاشي حقيقة . . وكم من إنسان عند الناس لا يفعل المعاصي، ولكن فيما بينه وبين نفسه يتهاون بها . . هناك شخص حدثني يقول: إنسان ظاهره الصَّلاح حتى إنَّه

يُنكر إذا سمع الأغاني في الراديو أو في التليفزيون، لكنه هو في بيته يقتني الراديو والتليفزيون ويُكب على سماع الأغاني . . هذا خشي الله بالغيب؟ لا . . ما خشي الله بالغيب . . هذا خشي الناس في الحقيقة ولمْ يخش الله عزَّ وجلَّ . . لأن الذي يخشى الله لابُد أن يقوم بقلبه تعظيم الله سبحانه وتعالى سواءٌ بحضرة الناس أوْ بغيبة الناس.

أيضًا: يخشى الله بالغيب: أي بما غاب عن الأبصار نظرًا وعن الآذان سمعًا . . وهو خشية القلب، وخشية القلب أعظم مُلاحظة من خشية الجوارح . . لأن الذي يخشى الله بقلبه يكون مراقبًا لله عزَّ وجلَّ ولحقِّه أكثر، ولأنه يجب أن تُراقب خشية القلب أكثر ممَّا تُراقب خشية الجوارح . . خشية الجوارح بإمكان كل إنسان أن يقوم بها حتى في بيته . . كل إنسان يستطيع أن يقوم يُصلي ولا يتحرك ينظُر إلى موضع سجوده يرفع يديه في مواضع الرَّفع . . يعني يستقيم استقامة تامَّة في ظاهر الصلاة . . ولكن القلب غافل . . أما خشية القلب فهي الأصل وهي التي يجب أن يُراقبها الإنسان ويحرص عليها حرصًا تامًا، وهذا معنى قوله: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾.

إذًا . . الصَّواب بل الرَّاجح من القولين: أنَّ قوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يعود على الخاشي، أي: يخشى الله تعالى غائبًا عن الخلق ويخشى الله تعالى بخشية غائبة لا تظهر للعيون ولا تسمعها الآذان وهي خشية القلب.

أما قول المؤلف: واعتبر أن الغيب هُنا حال من المخشي فهذا فيه نظر؛ لأن الله عزَّ وجلَّ صحيح لا يُرى، ولكن آياته البيِّنة الظاهرة كأنَّ الإنْسان يَرَى ربَّهُ، ولهذا قال النبي ﷺ: «الإحسان أنْ تَعْبُدَ الله كَأنَّكَ تراه فإنْ لمْ تكُن تراه فإنَّهُ يراك»، فآيات الله كلما تأمل الإنسان فيها سواء الآيات الكونية أو الآيات الشرعية كلما تأمل فيها ظهر له بها وجود الخالق وظهر له كل ما تتضمنه هذه الآيات من صفاته ظُهورًا بينًا كأنَّما يُشاهد الله عزَّ وجلَّ.

فالصواب إذًا: المعنى الأول؛ لأنَّنا نقول: وإن لم نر الله لكن نرى من آياته ما يدلنا دلالة قطعية يقينية على وجوده وعظمته.

يقول: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾. انظر: قال: ﴿تُنذِرُ﴾ ثم قال: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ .. مُتقابلات .. ﴿تُنذِرُ﴾ فينتفع بالإنذار، إذا انتفع بالإنذار حصل له الثواب فاستحق البشارة .. ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ هو الجنَّة. ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ للذنوب، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ على فعل الحسنات .. والكريم يتضمَّن كرم الذَّات العينة، وكرم الصِّفات. كقول النبي ﷺ: «**إيَّاك وكرائم أموالهم**» يعني الكريمة بذاتها وبصفاتها. الأجر الكريم بذاته إذا نظرنا إلى نعيم الجنَّة بذاته وجدنا أنه كريم: أكرم وأجمل وأحسن وأنفع من نعيم الدنيا، ففي الجنة فاكهة ونخل ورمان وعسل وخمر .. إذا نسبت هذا إلى نعيم الدنيا وجدت أنَّه أكرم من نعيم الدنيا بذاته.

بصفاته أيضًا: طعمه ورائحته وغير ذلك هو أيضًا أكرم .. كريم أيضًا من حيث المُقابلة .. فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. الأجر في الدنيا يكون بقدر العوض تبيع لي سيَّارة بعشرة آلاف قيمتها كم؟ عشرة آلاف .. ما أُعطيك إلا عشرة لا أزيد .. لكن في الآخرة .. أجر الآخرة أكرم وأعظم لأنك تبذل واحدًا وتعطى عشرًا إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فصار كرم الأجر في الآخرة من عدة وجوه: في عينه، وصفته، ومقابلته أو معاوضته .. فإنه أعظم بكثير من عوض الدُّنيا وأجر الدنيا.

قال المؤلف: «هو الجنة» هذا تفسير للمراد لا للمعنى ولاشك أن الجنة تشتمل على ما ذكرنا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ للبعث ﴿وَنَكْتُبُ﴾ في اللوح المحفوظ ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ في حياتهم من خير وشر ليُجازوا عليه ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ما استُنَّ به بعدهم ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نصبه بفعل يُفسره ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ كتاب بين هو اللوح المحفوظ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢)﴾

أولا ـ مُناسبة هذه الآية بما قبلها: لها مناسبتان:

المناسبة الأولى ـ أنه لما ذكر حال من ينتفع بذكرى الرسول ﷺ ومن لا ينتفع بيَّن أن كُلاً منهم سوف يُحيى بعد موته وسوف يُجازى على عمله .. فالمُناسبة ظاهرة .. ففيها بشارة للمؤمن المُنتذر وفيها إنذار وتخويف لمن خالف.

ثانيًا ـ أن الله تعالى لما ذكر حال هؤلاء المُكذبين فإن تكذيبهم بمنزلة الموت، وإذا كان الله قادرًا على إحياء الموتى إحياء حسيًا فهو قادر على إحياء هؤلاء الموتى بالكفر إحياء معنويًا فيكون المناسبة من وجهين.

قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ .. ﴿إِنَّا﴾ هذه ضمير جمع، والله عزَّ وجلَّ واحد فتُحمل هذه على التعظيم قطعًا .. ﴿نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ﴿نُحْيِي﴾ هذه ضمير فصل؛ لأنها لو سقطت وقيل: «إنا نُحيي الموتى» استقام الكلام .. فهي ضمير فصْل للتَّخْصيص: يعني: نحن لا غيرنا. ﴿نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ جمع ميت ويشمل الموتى من بني آدم وغيرهم .. لكن قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ يدلُّ على التخصيص وهذا له نظائر في القرآن والسُّنَّة: إذا جاء لفظٌ عام ثمَّ ذُكر بعده حكمٌ يختص ببعض أفراده فهل هذا يُخصص العموم أم لا يخصصه؟

إذا نظرنا إلى تصرُّف العلماء ـ رحمهم الله ـ وجدنا أنهم أحيانًا يجعلونه مُخصصًا للعموم وأحيانًا لا يجعلونه مُخصصًا للعموم.

فمثلاً: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾ (سورة البقرة: ٢٢٨).

هذه الآية فيها عموم وفيها حُكم يختص ببعض أفراد هذا العموم . . العموم هو: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾. فإن هذا يشمل من لها رجعة ومن ليس لها رجعة . . هذا العموم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي بعولة المطلقات ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾. هذا الحكم يختص بالرجعيات . . فهل نقول: إنَّ المراد بالمُطلقات في قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ المراد بها الرَّجْعيات أم هو عام؟ أكثر العلماء قالوا إنَّهُ عام.

نأتي إلى السُّنَّة: قال جابر: «**قضى النبي ﷺ بالشُّفْعَة في كُلِّ ما لمْ يُقْسم فإذا وقعت الحدود وصُرِّفت الطُّرُق فلا شُفْعة**».

في هذا عموم وفي هذا حُكم تعقبه يختص ببعض أفراد هذا العموم . . فهل نأخذ بالعموم أو نأخذ بما يقتضيه هذا الحكم المعقب؟ «قضى النبي ﷺ بالشُّفعة في كل ما لم يُقسم» ماذا يشمل؟ كل ما لم يُقسم حتَّى لو كان بيني وبينك سيارة وتبغي نصيبك منها فلي الشفعة . . «فإذا وقعت الحدود وصُرفت الطرق فلا شُفعة» هذا يختص بالأراضي . . فهل نقول: إنَّ قوله: «في كل ما لم يُقسم» يختص بالأراضي بدليل الحكم المفرَّع ونقول إذا كان شريكان في سيارة وباع أحدهما نصيبه فلا شُفْعة للثاني؟ أم نقول: نأخذ بالعموم ونجعل هذا الحكم الخاص لبعض أفراده يختص به؟

فيه خلاف . . هذه المسألة التي نحن فيها الآن: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ماذا يشمل؟ كل ميت حتَّى البهائم. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ هذا خاص بالمُكلَّفين . . فهل نقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ من المُكلفين بدليل قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾، أم نقول: هو عام وتعقيبه بحكم يختص ببعض أفراده لا يقتضي التخصيص . . العلماء كما تُشاهدون يختلفون في مثل هذا فنحن نقول: مُمْكن أن نقول: الموتى الذين يُكتبُ لهم ما قدموا وآثارهم بدليل قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وقد يقول قائل: أنا آخُذ بالعموم ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ كل ميت ﴿وَنَكْتُبُ﴾ ما قدم بعضهم وهم المُكلفون.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نصبه بفعل يُفسره ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ .. ﴿وَكُلَّ﴾ هذه مفعول لفعل محذوف يُفسره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وعلى هذا فيكون التقدير: أحصينا كل شيء.

ولا تجمع بين المُفسِّر والمُفَسَّر .. يعني لا تقل التقدير «أحصيناه كل شيء أحصيناه» .. لأنه لا يُجمع بين المُفَسَّر والمُفَسِّر .. فإذا أردت أن تقدر، تقول التقدير: «وأحصينا كل شيء في إمام مُبين»، لكن جُعلت الصيغة على هذا الوجه لذكر المُسند إليه مرَّتين لأن «كل شيء» والضمير في «أحصيناه» يعود على شيء واحد فيكون هنا ذُكر المعمول مرتين .. مرة على أنه بفعل مُقدر ومرة على أنه ضمير لذلك المذكور وهو قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾.

هذا التركيب يُسمى عند النحويين: الاشتغال .. والاشتغال تجري فيه الأحكام الخمسة: الوجوب والاستحباب والإباحة والكراهة والتحريم .. لكن هذا وجوب نحوي ما هو وُجُوب شرعي .. يعني: تارة يجب نصبه وتارةً يمتنع، وتارةً يترجَّح نصبه، وتارةً يترجَّح رفعه، وتارة يستوي الأمران في مثل هذا التركيب ما الذي يترجح؟ قطعًا ستقولون: يترجح النَّصب بدون تردُّد؛ لأنَّهُ منصوب الآن .. يترجح النصب لماذا؟ لأنَّ الجُملة هُنا معطوفة على جملة فعلية، فإذا جعلناه مفعولاً لفعل محذوف صارت الجُملة المعطوفة فعلية، وتناسُب الجُملتين أولى من تضادِّهما.

قلنا: إنَّ هذا من باب الاشتغال وترجَّح النَّصب هنا، لأن قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ فإذا جعلنا الواو حرف عطف والجملة ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ صار المعطوف جملة فعلية على جملة فعلية .. ولو رفعنا - والرفع هنا جائز لكن النَّصب أرجح - لو رفعنا وقلنا: «وكل شيء أحصيناه» صار العطف هنا عطف جملة اسميَّة على جملة فعلية .. أيهما أنسب؟ الأوَّل أنسب أن نعطف جملة فعلية على جملة فعلية .. ولهذا نقول: إنَّ النَّصب هُنا أرجح مع جواز الرَّفع لولا أنه في كلام الله ولا يُغير لكان يجُوز أن أقول: «وكُلُّ شيءٍ أحصيناهُ».

ولهذا لو قلنا: «زيد ضربْـتُهُ» يجوز أن أقول: «زيْدًا ضربتـهُ» لكن أيُّهما أرْجح؟ الرَّفع، لأنَّه الأصل وليس هناك جملة نعطف عليها شـيْئًا . . لكن لو قلت: «ضربتُ زيدًا وعمرو أكْرمـتُهُ» يجوز في «عمرو أكرمته» النَّـصب ويجوز الرَّفع . . لكن أيهما أرجح؟ النَّصب؛ لأني قُلت: «ضـربت زيدًا» جـملة فعليـة والجمـلة الفعليـة عندكم معروفة . . مـا هي؟ المبدوءة بالفعل . . «ضربت زيدًا» أقول «وعمرًا أكـرمته» ويجوز «وعمرو أكرمته» لكن الأول أولى لتناسب الجُملتين.

نحن ذكرنا على سبيل الاستطراد، وإلا ليس الدرس درس نحو لكن هذه القاعدة «إذا جاءت جملة فيها اشتغال فإن كانت ابتدائية أو معطوفة على جملة اسمية فالرَّاجح الرَّفع . . وإن كانت معطوفة على جملة فعلية فالراجح النَّصب».

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾. ﴿**وَنَكْتُبُ**﴾ هل الذي يكتب الله عزَّ وجلَّ أو الملائكة بأمر الله؟ الملائكة بأمر الله لقوله تعالى: ﴿**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**﴾ (سورة الإنفطار:٩-١٠). وإسناد الكتـابة إلى الآمر موجود في اللغة العربية كثيرًا يقول السيِّد: «كتبتُ كذا وكذا» والمراد كتبهُ عبيدهُ.

فهنا: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَنَكْتُبُ**﴾ والمراد: بملائكتنا، ودليل ذلك: ﴿**كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ⑨ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ (سورة الإنفطار: ٩-١٢).

وقوله تعالى: ﴿**وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا**﴾ أي: ما قدموه في الدنيـا من أعمال صالحة، لأن كل إنسان يعمل عملاً صالحًا في الدنيا فإنه قد قدمه بمنزلة السَّلَمَ ـ تعرفون السَّلَمَ في البيع: المُشتـري يقدم الثَّمن ـ أنت الآن مُقدم للثـمن . . المُثمَّن متى يكون؟ يكون يوم القيامة وقد يكـون في الدنيا ويوم القيامة جميعًا . . فـأنت الآن إذا عملت عملاً صالحًا فقدْ قدَّمت لنفسك الآن ثمنًا تأخذ عوضه يوم القيامة . . ثق بهذا، وأن الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً.

وقوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ يقول المؤلف: «نكتب في اللوح المحفوظ ما قدموا في حياتهم» هكذا مشى عليه المؤلف أنَّ المراد بالكتابة هنا: الكتابة في اللوح المحفوظ، وهذا التفسير مُخالف لظاهر اللفظ؛ لأن قوله نكتب فعل مضارع والمضارع لا يُحمل على الماضي إلا بدليل: دليل لفظي كـ «لم» مثلاً إذا دخلت على المضارع جعلته ماضيًا، أو دليل حالي يدل عليه السِّياق .. وهنا لا دليل على أنَّ المراد: «نكتب في اللوح المحفوظ» الكتابة في اللوح المحفوظ انتهت كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٥). اللوح المحفوظ انتهت كتابته .. ولا يمكن أن تُصاغ «نكتب» بشيء انتهى.

ولكن المراد: نكتب: يعني بواسطة الملائكة تكتب ما قدموا، والملائكة تكتب أو كتبت. إذًا: الصواب: نكتب في صحائف الأعمال والذين يكتبون الملائكة بأمر الله عزَّ وجلَّ. ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ في حياتهم من خير وشر ليجازوا عليه .. نعم يكتب الله عزَّ وجلَّ ما قدم الإنسان من خير وشر .. لكن ما قدم من خير فهو مضمون وما قدَّمه من شر فليس بمضمون، لأن الخير لا يُمكن أن يبتغى منه شيء، والشر قد يعفو الله عنه إذا لم يكن شركًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (سورة النساء: ٤٨). وهذا من مصلحة الإنسان إذا كان غير مضمون أم من غير مصلحته؟ من مصلحته.

قال: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ ما اسْتُنَّ به بعدهم .. الآثار: جمع أثر، والأثر ما أعقب الشيء، ومنه أثر القدم بعد المشي، فإنه يعقبه .. فما المراد بآثارهم؟. قال المؤلف: «ما استن به بعدهم» .. وهذا التفسير كمثال وليس حصرًا، لأن الذي كتب الآثار وهي أكثر ممَّا استُنَّ به بعده لقول النبي ﷺ: **«إذا مات الإنسان انْقطع عمله إلاَّ من ثلاثة: صدقة جارية أوْ علم يُنْتفعُ به أوْ ولد صالح يدْعُو له»**.

فمثلاً: الصدقة الجارية .. هذه من آثارهم أو مما قدموا من آثارهم أيضًا .. هذه إذا أوقف الإنسان مزرعة أو بُستانًا على الفقراء وانتفعوا به بعد موته صار هذا من الآثار بلاشك، وإن كان أصل التقديم في حياته لكنه النَّفع صار بعد مماته.

العلم النافع: من آثاره، كل ما انتفع به بعد موته من علم فهو من آثاره.

الولد الصالح: أيضًا من آثاره؛ لأنَّ الولد من كسب الإنسان فإذا كان ولدٌ صالح يدعو لأبيه أو أمه فهو من الآثار.

ما اقتدى به الناس بعده من الأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة فهو أيضًا من الآثار.

إذًا . . فما ذكره المؤلف على سبيل المثال وهذا الذي قاله المؤلف: أنَّ المراد بالآثار ما كان من بعد موت الإنسان هذا هو الصحيح وذهب بعض المُفسرين إلى أنَّ المراد بالآثار الآثار التي يتقدمون بها إلى الطاعة . . كالمشي إلى الصلوات، فإن الله تعالى يكتب للإنسان كل خطوة . . فيرفعُ له بها درجة ويحط عنه بها خطيئة . . واستدل هؤلاء بأن النبي ﷺ قال لبني سلمة: **«دياركم تُكْتَب آثاركم»** فجعل الرسول ﷺ الآثار تُكتب . . ولكن هذا الاستدلال فيه نظر . . لأن قول الرسول ﷺ: **«تُكْتَب آثاركم»** هذا ممَّا قدَّمُوه في حياتهم . . ولكنه سمَّاه أثرًا؛ لأنه نعم أثر هو الممشى والمسير.

فالصواب أن الآية كما قال المؤلف: أنَّ المراد بما قدموا ما سبق من أعمال صالحة في حياتهم حتَّى آثار مسيرهم إلى المساجد . . وآثارهم ما كان بعد موتهم.

قال: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾ . . قال المؤلف «﴿**أَحْصَيْنَاهُ**﴾: ضبطناه» والإحصاء بمعنى الضبط . . مأخوذ من الحصى ولأنَّ العرب كما نعلم أمَّةٌ أُمِيَّة ما يكتبُون، يضبطون الأشياء، بالحصى أو شبهها ويقدرون بالرمح وما أشبهها . . ما يقرؤون ولا يكتبُون . . فكانوا إذا أرادوا ضبط الشيء أخذُوا حصى . . كم عدد القوم؟ قال: تفضَّل أعطاه كيس الحصى . . إذا عدَّها عرف عدد القوم . . ولهذا قال الشاعر:

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُم حَصَى * وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلكَاثِرِ**

يعني: إنَّ قومك ما هم كثيرين؟ وإنما العزة للكاثر . . ويضرب المثل فيقال: «جاء قوم كثر الحصى».

على كل حال: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضبطناه وسمي الضبط إحصاء لأنَّ العرب كانت تضبط الشيء بالحصى .. قال: «﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ كتاب بيِّن وهو اللوح المحفوظ» هذا صحيح: ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ الإمام: يُطلق على عدة معان يجمعها أنَّه مرجع فإمام الصلاة مثلاً: إمام لأنه مرجع للمأمومين يقتدون به .. وإمام الحكم كذلك مرجع يرجع الناس إليه .. والكتاب: إمام لأنه مرجع، كما قال الله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ⦗١٣⦘ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (سورة الإسراء: ١٣-١٤). إذن: ﴿فِي إِمَامٍ﴾: في كتاب.

وقوله: ﴿مُبِينٍ﴾ يقول: بمعنى بين، لأنَّ مُبين هنا من الرُّباعي من أبان يُبين فهو مبين .. أما بيِّن فهي من الثُّلاثي من بان يبين فهو بين. وكلمة بان وأبان تأتيان بمعنى واحد فيقال: بان الصُّبح، وأبان الصُّبح. وتنفرد أبان بأنَّها تأتي بمعنى «أظهر وأوضح» أبان الشيء يعني: أظهره وأوضحه .. فإذا جاءت كلمة مُبين في القرآن الكريم فإنها تصلح أن تكون بمعنى بيِّن وتصلح أن تكون بمعنى مُظهر وموضح.

لكن ليس كل موضع جاءت فيه تصلح للوجهين جميعًا .. لا .. قد تكون في موضع لا تصلح إلا إلى بين. فمثلاً: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤). معناها: بين ظاهر .. لكن: ﴿حم ⦗١⦘ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (سورة الدخان: ١-٢). بمعنى الموضِّح وهو إذا كان موضحًا فهو واضح .. لكنها هنا مُبين بمعنى «مُظهِر» أبين في المعنى.

على كل حال: إذا جاءتكم كلمة «مُبين» فإن صلحت أن تكون من الرُّباعي الذي بمعنى أظهر فهو أولى من تفسيرها بالرباعي الذي بمعنى ظهر .. لأنَّ المُظهِر جامعٌ بين الظُّهور بنفسه والإظهار لغيره .. فيكون معناه أشمل ..

الإمام المبين يقول: المؤلف إنه اللوح المحفوظ، وهذا صحيح يعني: محتمل فإن اللوح المحفوظ كُتبت فيه أعمال العباد، ولكن هنا ﴿مُبِينٍ﴾ هل الأنسب أن تكون كما فسرها المؤلف «بيِّن» أو مُبين بمعنى «مُظْهِر»؟ الظاهر أنَّ المعنى الأخير أوْلى، إنَّ هذا الكتاب مُبين للأُمُور مُوضح لها. وكما قلنا: ما كان مُبينًا فهو بين.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

قال: ﴿وَاضْرِبْ﴾ قال: «بمعنى: اجْعَلْ» وهذا لاشك إنَّهُ معنى مُقرِّب من معنى ضَرَبَ مثلاً أي جعل مثلاً . . وقيل: إنَّ «اضْرِبْ» بمعنى: اتَّخذْ . . لأنَّ الضَّرْب يدُلُّ على صناعة وتكييف . . ومنه: «ضرب الذَّهب خاتمًا» «ضَرَبَ الذَّهب حُليًا» «ضَرَبَ الذَّهب سكَّةً» يعني نُقُودًا . . بمعنى: اتخذه حُليًا اتَّخذه سكةً وما أشبه ذلك.

فشبه ذكر المثل للاعتبار به بصناعة الشيء؛ لأن المثل يشتمل غالبًا على هيئة مُتكاملة مُركبة من أجزاء مُتعددة، ولهذا لا يأتي المثل في تشبيه مفرد بمفرد، إنما يأتي المثل في تشبيه صورة مشتملة على أجزاء متعددة في صورة، فلهذا سُمي ضرب مثل أي صُنع تمثل كما نصنع الأواني والخواتم وغيرها من معادنها.

وقال المؤلف: «﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ قال: مثلاً: مفعول أوَّل ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ «مفعول ثان» هذا، الظاهر أنَّه سهو من المؤلف . . والصواب العكس؛ لأن المضروب ما هو؟ أصحاب القرية، فيكون هو المفعول الأوَّل . . و﴿مَّثَلاً﴾ هو المفعول الثاني . . ففي إعراب المؤلف انقلاب، والصَّواب أنَّ: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ مفعول أوَّل، و﴿مَّثَلاً﴾ مفعول ثان.

أي: اجعل أصحاب القرية لهؤلاء المُكذِّبين لك؛ اجعلهم مثلاً يعتبرون به . . والمَثَل والمِثْلُ كالشَّبه والشِّبْه. يعني: اجْعله أمرًا مُشابهًا حتَّى يتعظوا به.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ . . كلمة ﴿وَاضْرِبْ﴾ الخطاب فيها للرسول ﷺ أوْ لكلٍّ من يتأتى خطابه.

سبق لنا أن مثل هذا تارة يكون صريحًا في أنه عام .، وتارة يكون صريحًا في أنه خاص بالرسول ﷺ وتارةً يحتمل الوجهين.

فمن الأشياء التي هي صريحة بخصوصيتها للرسول ﷺ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشرح: ١). فهنا الخطاب لمن؟ للرسول ﷺ قطعًا.

ومن الأشيـاء الصريحة بأنه عام مـثل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ (سورة الطلاق: ١). ولم يقل: «إذا طَلَّقْتَ» فَـدَلَّ على أنَّ الخطاب الأوَّل يُراد به العمـوم، وأمَّا احْتمال أن يكون خاصًا بالرسول أم عامًا فهو كثير من القرآن.

فما هو الأرجح: أن نجعله خاصًا أم عامًا؟ الأرجح أن نجعله عامًا .. لأنه أشمل .. إذا جعلناه عامًا شمل الرسول ﷺ وغيره.

إذًا .. مُمكن أن نقول لأي داعـية الآن: «اضرب مثلاً للمـكذبين بهذه القرية». قال: ﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ قال المؤلف: «أنطاكية هـذه القرية» فجعل «الـ» للعهد الذهني .. يعني كأنها قرية معروفـة .. ولكن هذا القول ضعَّفَهُ ابن كثير في التفسيـر وقال: إنَّ هذا غير معروف في أنطاكية .. وأنطاكـية ما دُمرت ولا أُهلك أهلها ولا ينطبقُ هذا المثل عليـها بوجهٍ من الوجوه ..وعلى هذا فـيكون المراد بالقرية هُنا: قرية غير مُعيَّنة وتكون «الـ» للجنس .. يعني: اضرب لهم مثلاً بقرية غير مُعينة .. تكون «الـ» للجنس لا للـعهـد .. وهذا هو الصَّحيح .. وذلك؛ لأنَّ الله عـزَّ وجلَّ لوْ كان في بيان هذه القرية بعينها مصلحة لبيَّنها الله عزَّ وجلَّ .. وليس المقصود كما مرَّ علينا تعيين الأشخاص أو الأماكن أو الأزمان ليس فيه كبير فائدة في الغالب.

المقصود: العبرة في القصة وما وقع .. ولهذا نَرَى بعض العلماء يتكلفون مثلاً فيما إذا جاء اسم رجُل في حديث مُـبهم يتكلفون في طلب تعيينه وليس هذا بلازم .. اللهم إلاَّ أنْ يتـرتَّبَ على تعيينه اخـتلاف في الحكم أو إظهـار للمعنى، فـهذا شيء آخر ..

على كل حـال: نحن هنا لا يعنينا أن نعرف مـا هي القرية ومن هم أهـلها .. الذي يعنينا العبرة بما جرى في هذه القصَّة.

إذًا . . الصَّواب عدم تعينها بأنطاكية . . ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ إلى آخره ﴿إِذْ﴾ بدل اشتمال من أصحاب القرية فتكون في محل نصب؛ لأن أصحاب منصوب . . والبدل يتبع في الإعراب المُبدل منه فيكون ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ في محل نصب على أنَّهُ بدلٌ من أصحاب القرية.

قال: ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ أي القرية ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾، قال المؤلف: «أي رُسُلُ عيسَى» وهذا القول ليس بصحيح . . ولا دليل عليه . . بل ﴿جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الذين من جنس قوله في أوَّل السورة ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الذين هم من جنس هؤلاء، وعلى هذا فهم رسل من عند الله عزَّ وجلَّ وليسوا من قبل عيسى عليه السلام، قال في تفصيل هذا المجيء وهذه القصَّة.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤)﴾

وهذا من عجائب القول أن نقول: أي رُسُل عيسى .. مع أنَّ الله يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾، ولم يقل: «إذ أرسل إليهم عيسى» بل قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ وعلى هذا فيتعين أن يكون المراد بـ ﴿مُرْسَلُونَ﴾ هُنا: رُسُلاً من عند الله.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ .. ﴿إِلَيْهِمُ﴾ أي: إلى أصحاب القرية. ﴿اثْنَيْنِ﴾ من هؤلاء الثلاثة. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا ..﴾ إلى آخره .. يقول: «بدلٌ من إذ الأُولى .. ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ هذه بدل من ﴿أَصْحَابَ﴾ و﴿إِذْ أَرْسَلْنَا﴾ بدلاً من ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ لأنها في الحقيقة بيان لكيفية هذا المجيء.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ .. التكذيب: ردُّ الخبر ونسبتهُ إلى خلاف الواقع .. هذا هو التكذيب .. فهؤلاء كذبوهم وقالوا: هذا أمرٌ ليس بصحيح ولستم برُسُل .. فماذا كان؟ قال الله تعالى: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ بالتخفيف والتشديد ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ على التَّشْديد، «عَزَزْنا» التَّخْفيف، والقراءتان سبعيَّتان؛ لأن المؤلف ذكرهما على حدٍّ سواء.

معنى ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ قال: قوينا الاثنين ﴿بِثَالِثٍ﴾ يعني: لَمَّا كذب الاثنان أرْسل الله ثالثًا معهم لأجل التقوية، وهذا كقول مُوسى عليه السلام لَمَّا أرسله الله تعالى إلى فرعون قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (سورة طه: ٢٩-٣٢).

إذًا .. زيادة الواحد يُقوي بلاشك .. ونحن نُشاهد حتَّى في أمرنا الواقع إذا قال شخصٌ قولاً ثمَّ أيده به آخر ازداد قُوَّةً ونشاطًا في تقرير هذا القول وتثبيته.

قال: ﴿فعززنا بثالث فقالوا﴾ الضمير يعود على الثلاثة ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ انظر: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ أتوا بالجملة المؤكَّدة بإنَّ .. لأنَّ الحال تقتضي ذلك .. فهم قد كذَّبوا بالأول وأنكروا فجاءت الجُملة الثانية مؤكدة؛ لأن المقام مقام تكذيب .. ولكن لو قال قائل: لماذا لم تُؤكَّد بأكثر من مُؤكِّد؟ قلنا: هي أكدت بأكثر من مؤكد .. أكدت بمؤكد واحد لفظي وهو: إنَّ .. وأكدت بمؤكد معنوي وهو زيادة الرسول .. ولهذا قال: ﴿فعززنا بثالث﴾ إذًا صار فيها مؤكِّدان:

المؤكد الأول ـ الرسول زيادة.

والمؤكد الثاني ـ إنَّ.

ولهذا قال قائل: هل المقام هنا مقامُ تأكيد على سبيل الاستحسان أو على سبيل الوجوب.

قلنا: على سبيل الوجوب .. فإذا قال: القاعدة أنه إذا كان على سبيل الوجوب فإنَّ التأكيد يتكرَّر .. يعني: يُؤتى بإنَّ واللاَّم .. إنَّ والقسم .. إنَّ والقسم واللاَّم .. يعني: يكرر المُؤكِّد.

قلنا: هذا المؤكد مُكرر .. لكنه من نوعين: تأكيد باللفظ: ﴿إنا إليكم﴾ وتأكيد بالمعنى: تقويتهم بثالث .. فقالوا: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾ مُرسل من قبل الله عزَّ وجلَّ، وهم يعلمون ذلك أنَّهم ما ادَّعوا الرسالة من شخص وإنَّما هي من الله .. كان جواب هؤلاء جواب غيرهم من المكذبين .. المكذبون يردُّون أقوال الرُّسُل بنفي وإثْبات .. أحيانًا بنفي وأحيانًا بإثبات .. ففي النفي يقولون: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ كما قال الله تعالى: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات﴾ (سورة التوبة: ٧٠). ﴿عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين (١٠) قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم﴾ (سورة إبراهيم: ١٠).

يعني: نُسلم إنا بشرٌ مثلكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (سورة إبراهيم: ١١)، هذا جواب بالنفي . . يعني: أنتم بشر لستم ملائكة حتَّى نقبل . . أحيانًا بالإثبات: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (سورة الذاريات: ٥٢). فصاروا أحيانًا يتهمون الرُّسُل بالسِّحر والجنون وأحيانًا بالنَّفي يقولون: ما أنتم ملائكة حتى تكونوا رُسُلاً إلينا ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ . . إذًا ليس ببدع أن يقول أصحاب هذه القرية لهؤلاء الرُّسُل: ﴿مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥)﴾

ثم قالوا: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾، فأنكروا الرِّسالة إنكار جُحُود بـلا مُبرر . . ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ ما الذي يمنع؟ ما ذكـروا حُجَّة . . ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ قوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾. هذه الجُملة كما نشاهد نفي . . و﴿مِن شَيْءٍ﴾ نكرة في سـيـاق النَّفي فتـعم . . ثمَّ هذه النَّكـرة مُؤكَّـدة بـ «مِنْ» الزائدة . . لأنَّ قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ بمعنى «شيـئًا» وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ «إِنْ» هنا بمعنى «ما» ففي الجملة حصر طريقه النفي والإثبات ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعني: ما أنتم ﴿إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ وهذا الحصر والعياذ بالله حصرهم يرونه حقيقة أو إضافيًا.

إضـافي: يعني: مـا أنتـم إلا تكذبون فـيمـا تدَّعون من الرِّسـالة، ولا يلزم أن يدعوا أنهـم كاذبون في كل شيء لكن فيما ذكروا من الرسالة . . فصار إنكارهم مبني على أمرين:

الأول ـ أنهم بشر: يعني كأنهم يقولون: لو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة.

ثانيًا ـ النَّفي الذي لم يُبنَ على شيء . . مُجرَّد إنكار ومُكابرة.

﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ وهذا بلاشك من سفههم لأنَّ إنزال الوحي على الرُّسُل لهداية الخلـق أمرٌ يُوجبه العـقل فضلاً عن الشَّرْع؛ لأن العـباد لا يُمكن أن يتعـبدوا لله سـبحانه وتعـالى إلا بشيء شرعه ونصـبه لهم دليـلاً عليه وإلا فكيف يتعبدون؛ فـإنزال الله تعالى الوحي للبشر أمرٌ يقتـضي العقل وجوبه مع أن الله قد أوجبه على نفسـه . . كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ﴾ (سورة الليل: ١٢-١٣). أوجب الله على نفسه أن يَهدي عباده سـبحانه وتعالى ما يوصلهم إليه وإلا لضلُّوا.

إذًا . . هـذه المُكابرة ﴿مَـا أَنزَلَ الرَّحْـمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ هذه المكابرة يُـكذبهـا العـقل والشـرع . . لأن العـقـل يُوجب أن ينزل الله على العـباد شـريعـة يتعـبدون بهـا له لتوصلهم إليه . . إذ أنَّ العقل لا يهتدي كيف يعبُد الله.

الشرع: أوجب الله على نفسه أن يُبـلغ عباده شريعتـه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ (سورة الليل:١٢-١٣). وقال تعـالى في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (سورة القيامة:١٩). حيث أوجب الله على نفـسه أن يهدي عـباده، وهذه هداية البلاغ، لأنَّه لو كان هداية التوفيق لاهتدى كل أحد.

قال: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾. ما هو الكذب؟ هو الإخبار بخلاف الواقع . . إذن أنتم أخـبرتمونا أنَّكم رُسُل والواقع أنكم لسـتم بِرُسُل . . ماذا قالوا لهم؟



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦)﴾

انظر: الآن أكَّدُوا الرسالة بثلاثة مؤكدات: الأول ـ ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ لأن هذا جار مجرى القسم. والثاني ـ إنَّ. والثالث ـ اللاَّم. لشدَّة إنكارهم .. فإذا قُلنا: هذه ثلاثة مؤكدات مع التأكيد الأول وهو زيادة الثالث، ثم أكدت الرسالة بأربعة مؤكدات. ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ قال المؤلف: «جار مَجْرى القَسَم وزيد التَّأكيدُ به وباللام على ما قبله لزيادة الإنكار في ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾. هذا بيان لزيادة التأكيد في إنَّ واللاَّم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)﴾

التبليغ البيِّن الظاهر بالأدلة الواضحة .. إلى آخره .. هذا حصر حقيقي أم لا؟ نعم .. ما عليهم بجانب الرِّسالة إلاَّ البلاغ المبين .. في جانب الرسالة، فقولنا في جانب الرسالة يقتضي أن يكون حصرًا إضافيًا؛ لأنَّ عليهم سوى البلاغ أن يقوموا بعبادة الله الخاصة التي هي غير التبليغ .. لكن بجانب الرسالة ما عليهم إلاَّ البلاغُ المُبين.

قال المؤلف: «التَّبليغ البَيِّن» يعني كلمة بلاغ بمعنى تبليغ فهي اسم مصدر من بَلَّغَ يُبَلِّغُ كما يُقال: كَلَّم يُكلِّمُ، المصدر: تكليمًا، واسم المصدر: كلام، بَلَّغ يُبَلِّغُ تبليغًا هذا المصدر واسم المصدر بلاغًا.

أما تفسير المُبين بالبيِّن فهذا يقال: إنَّ فيه نظرًا .. لأنَّ الظاهر أن المُبين هُنا بمعنى المُظهِر، يعني: البلاغ المُظهِر لحقيقة الأمر الواقع. وهو أنَّنا رُسلٌ من عند الله.

وسبق لنا أننا إذا فسرنا المُبين بالمُظهر على وجه صحيح صار مُتضمنًا لكونه بيِّنًا

.. إذ لا يكون الشيء مُبـينًا إلا وهو بينٌ في نفسـه أمَّا قوله رحـمه الله: ﴿إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ التبليغ البيِّن الظاهر بالأدلة الواضحـة .. قال: «وهي إبراءُ الأكْمه والأبرص والمريض وإحياء الموتى».

هذا ليس بصحيح لأنَّ هذا مبني على أنهم رُسُل عيسى والأمرُ ليس كذلك، لكن عليهم التَّبْليغ البين بالرسالة فيُبَلِّغون تبليغًا بيِّنًا.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾.

من فوائد هذه الآية: أنَّه لا ينتـفع من إنذار الرسول ﷺ إلا من اتَّصف بهـذين الوصفين لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ﴾.

ومن فوائدها: صحـة نفي الشيء إذا كان لا يُنتـفع به وإن كان موجـودًا لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ فإن إنذاره لغيرهم حاصل لكن لَّما لمْ ينتفعوا به صار وجوده كالعدم بالنسبة لهم، أمَّا المُنذر فقد قام بما يجب عليه.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّه كُلما كـان الإنسان أتبع للقرآن كـان أشد تأثرًا به لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ وبهذا نعـرف القاعدة التي ذكـرها بعض العلماء: «الطاعة تجلب الطاعة والمعصية تجلب المعـصية». الطاعة تجلب الطاعة؛ لأنهُ كُلما كان الإنسان أتبع للقرآن صار أشدَّ تأثرًا به .. لقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾.

ومن فوائد الآية: الثناء على هذا القرآن العظيم بأنه ذكر وسبقت الأوجه في كونه ذكرًا.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الخشيـة لله سببٌ كبير للتـأثر بالقرآن والانتذار به لقوله: ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾.

ومن فوائدها أيضًا: فوائد الخشية لله وأنها من أسباب الانتفاع بالقرآن، فكلما كان الإنسان أخشى لربه كان أفهم لكلامه.

ومن فوائدها أيضًا: أن الخشية إنَّما تكون خشية حقيقية إذا كانت بالغيب .. أمَّا من خشي الله بالعلانية فقد تكون خشيته مدخولة قد يكون خشي الله عزَّ وجلَّ من أجل أن الناس يرونه .. لكن إذا كان بالغيب كان أدل على الإخلاص.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن نُبشر من اتصف بهذين الوصفين وهما اتِّباعُ الذِّكر والخشية لله عزَّ وجلَّ بالغيب نُبَشِّره بالجنة ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ ولكن هل تنطبق هذه البشارة على كل واحد بعينه؟

الجواب: لا .. على سبيل العموم وكل شخص اتصف بما تثبت به الجنة على سبيل العموم فإنَّنا لا نشهد له بعينه ولكن يرجى له ذلك، لأنه في الظاهر قد انطبق عليه سببُ الاستحقاق، لكن الباطن لا نعلمه، كما قال النبي ﷺ : **«إنَّ الرجل لَيَعْمل بعمل أهْل الجنة فيما يَبْدُو للناس وهو مِنْ أهْل النار»** لهذا نقول في كل من ينطبق عليه وصف يستحق به دخول الجنَّة نقول: إنَّنا لا نشهد له بعينه؛ لأنَّ الشهادة له بعينه تحتاج إلى دليل مُعين، نرجو له هذا لأن ظاهر الأمر أنَّه مُستحقه لانطباق الأوصاف عليه، لكن لا نشهد؛ لأنه يُخشى أن يكون باطنه غير ظاهره .. وهذه قاعدة مُهمَّة مفيدة:

مثلاً: قُتل رجل في الحرب الأفغانية .. لاشك أنه إسلامي وأنَّ ظاهر جميع المُجاهدين فيه أنَّهم يُجاهدون؛ لتكون كلمة الله هي العُليا .. فهل إذا قُتل على أيدي الأعْداء نشهد بأنه شهيد؟

لا .. لا يجوز .. ولكن نقول: يُرجى أن يكون شهيدًا .. يعني من الشُّهداء عنْد الله عزَّ وجلَّ .. ولكن ما نشهد له بعينه .. ولهذا ترجم البُخاري رحمه الله على هذه المسألة في الصحيح قال: «بابٌ: لا يُقال فلانٌ شهيد» مَعَ أنَّ شهيدًا الآن عندنا صارت رخيصة تُبْذَل بأرخص الأثْمان .. أي واحد يُقتل ولو في قتلة جاهلية يقولون: هو شهيد!! وهذا لا يجوز .. أتدري ماذا يستلزم على شهادتك له بأنه شهيد؟ يستلزم أنَّك شهدت له بأنه من أهل الجنة .. وهذه مسألة صعبة، لكن كما

قلت لكم منذ قليل في القاعدة النافعة: أنَّ من اتصف بأوصاف ينطبق على أهلها هذا الجزاء فإننا نرجو له ذلك . . نقول: نرجو . . لو قلت: هل فلان شهيد الذي قُتل في معركة بين الأفغانيين المسلمين وبين الرُّوس؟

الجواب: نرجو له ذلك . . نرجو أن يكون شهيدًا . . أمَّا أن نجزم فلا . . لا يجوز أن نجزم . . هذا الذي اتَّبع الذِّكر وخشي الرحمن بالغيب هل نجزم له بالمغفرة والأجر الكريم.

نقول: نعم . . من فعل ذلك نشهد له على سبيل العموم . . لكن على سبيل التَّخْصيص نرجو له ذلك.

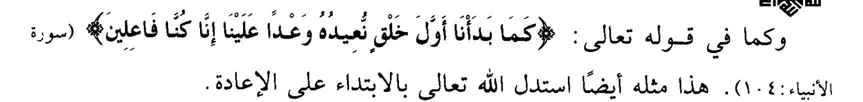
ومن فوائد الآية الكريمة: أن البشارة تكون بانتفاء ما يكره وبحصول ما يُحب . . ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ هذا انتفاء ما يُكره، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حصول محبوب . . فيُهنًّأ الإنسان ويُبشَّر بزوال المكروه عنه وحصول المحبوب اجتماعًا وانفرادًا . . يعني سواءٌ حصل له الأمران أو حصل له أحدهما فإنه يُبشر بانتفاء الشَّرِّ عنه كما يُبشر بحصول الخير له.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن خشية الرحمن بالغيب واتِّباع الذكر يحصل به مغفرة الذنوب والأجر الكثير . . فإنَّ المغفرة في مُقابل الذُّنوب والأجر الكريم في مُقابل الثواب على الأعمال الصالحة.

ثمَّ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله عزَّ وجلَّ بإحياء الموتى، وقد برهن الله عزَّ وجلَّ على قُدرته على إحياء الموتى، بأدلة عقلية وأدلة حسية.

فمن الأدلة العقلية: مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (سورة الروم:٢٧). فإنَّ هذا دليل عقلي على إمكان إحياء الموتى، وجهه: أنَّ الإعادة أهون من الإبتداء . . فالقادر على الإبتداء قادرٌ على الإعادة من باب أولى.



وكما في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء:١٠٤). هذا مثله أيضًا استدل الله تعالى بالابتداء على الإعادة.

أما الأدلة الحسية فما أكثر ما يضرب الله الأمثال بإحياء الأرض بعد موتها على قدرته على إحياء الموتى.. مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة فصلت:٣٩).

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (سورة ق:٩-١١). والآيات في هذا كثيرة.. فقد برهن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على قُدرته على إحياء الموتى بالأدلة العقلية والحسية؛ لتكون لذوي العقول دليلاً ولذوي الأبصار والأدلة الظاهرة دليلاً أيضًا.. فالإنسان العقلاني ـ كما يقولون ـ يستدل عليه بالعقل، والإنسان السَّطحي الذي لا يستدل إلا بما يُشاهد يستدل عليه بالأدلَّة الحسِّية.

ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أنَّ من لم يخش الله ولم يتبع الذكر فإن الله قادر على أن يُحيي قلبه فيخشى الله ويتبع الذِّكر، وجه الدَّلالة أنَّ الله تعالى ذَكَرَ بعد أن ذَكَرَ انقسام الناس إلى من يخشى الله بالغيب ويتَّبع الذِّكر ومن لم يكن كذلك.. فيه إشارة إلى أنَّ الله قادر على أن يَرُدَّ هؤلاء إلى الحق.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ كُلَّ شيء مكتوب للإنسان إمَّا له وإمَّا عليه.. لقوله: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾.

ومن فوائدها: أن الله تعالى يكتب كل شيء.. القليل والكثير لقوله: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾. و«ما» اسْم موصول والاسم الموصول يشمل الصغير والكبير، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ (سورة الكهف:٤٩). ويدل عليه أيضًا في آخر الآية ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأعمال لا تنقطع بالموت؛ لقوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ والآثار ذكرنا أنها أنواع: علم، وصدقة جارية، وولد صالح يدعو له، وسنة يحييها فيتبعه الناس عليها.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله عزَّ وجلَّ في ضبط الأمور وإتقانها، وأنه لا يفوته شيء لقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

ومن فوائدها: أنَّ ما يكتب على الإنسان فإنَّه حق بيِّن واضح لا يمتري فيه أحد لقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ والشيء المُبين هو الذي يُوضح الأشياء مع وضوحه في نفسه .. وهو كذلك، ولهذا يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (سورة الإسراء:١٣-١٤).

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ...﴾ إلى آخره. في هذه الآية وما بعدها في القصة كلها فوائد كثيرة منها:

بيان ضرب الأمثال ليعتبر بها لقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً﴾ والخطاب كما سبق إمَّا للرسول ﷺ أو لكل من يتأتَّى خطابه.

ومن فوائدها: أن العبرة بما فيه العبرة في ضرب الأمثال وأنه ليس من الضروري أن يُعين المثل المضروب .. فهنا قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ولم يُعين القرية ولم يُعين أُولئك الأصحاب بأعيانهم؛ لأنه ليس هذا محل عِبرة .. العِبرة إنَّما هي في القصة كُلها.

ومن فوائدها: بيان أن الله عزَّ جلَّ لن يدع الخلق إلى رُسُله لقوله: ﴿إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾.

ومن فوائدها أيضًا: بيان رحمة الله - عزَّ وجلَّ - في تعزيز الرسالة بالصيغة والعدد لأنه قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾. فهنا التعزيز بالثالث تقوية فعلية والتأكيد بإنَّ تقوية لفظية.

ومن فوائدها: جواز تعدد الرسل مع اتحاد المُرسل إليهم؛ لأن الله أرسل إلى هذه القرية اثنين ثمَّ عزَّزهما بثالث.

ومن فوائدها أيضًا: أنَّ الذين يُكذبون الرُّسل ليس عندهم إلا المُكابرة وليس عندهم حُجَّة عقلية أو نقلية لقولهم: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾. كل هذه الجمل الثلاث ليس فيها أي حُجة تُسوغ تكذيب هؤلاء الرُّسل؛ لأنك إذا رأيت الحُجج الثلاث أو الشُّبه.

الأولى - أنهم ردوهم؛ لأنهم بشرٌ مثلهم .. وقد سبق في التفسير بيانُ الرَّدِّ عليها، وأنه لا يُمكن أن يُرسل للبشر إلا بشرٌ مثلهم حتى لو أُنزل إليهم ملائكة فإنَّ الملائكة لابُد أنْ يكونوا على صورة البشر، وحينئذ تعود الشُّبهة.

والثانية - ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ هذا نفيٌ مُجرد بدون ذكر حُجة، وليس هذا بدليل للخصم إطلاقًا؛ لأن نفي قول الخصم بدون حُجة ما هو إلا مُكابرة.

وكذلك قوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾.

ومن فوائدها: بيان أن المُعاندين للرُّسُل ليس عندهم إلا المُكابرة المحضة في قولهم: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾. وقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾.

هل يُستفاد من الآية الكريمة أن الله لا يُرسل إلا بشرًا؟ أم لا؟

لا يُستفاد .. لكن يُستفاد أنَّ حكمة الله عزَّ وجلَّ تقتضي أن يُرسل إلى البشر بشرًا مثلهم.

ومن فوائدها: جوازُ التأكيد بما يُشبه القسم لقوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ .. وهل هذا أقوى من التأكيد بالقسم؟ أو التَّوكيد بالقسم أقوى.

الظاهر: أنَّ هذا أقوى من التوكيد بالقسم لأنهم إذا قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ولم يكونوا مُرسلين. استلزم قولهم هذا وصف الله بالجهل والعجز

والقصور . . لأنهم إذا قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ولم يكونوا مُرسلين معناه أن الله عَلِمَ الحال على خلاف ما كانت عليه . . إذا فرضنا أن الله يعلم أنهم مُرسلون وهم غير مرسلين في الواقع لَزِمَ من ذلك أن يكون الله جاهلاً بحالهم . . وأن يكون الله تعالى عاجزًا عن الانتقام منهم وبيان كذبهم . . لأنهم سيقولون: «إِنَّا مُرْسلون»، ويأخذون بمقتضى هذه الرسالة والله تعالى يعلم أنهم غير مُرسلين وهذا يستلزم الجهل . . إذن . . فالتأكيد بمثل هذا أشد من التأكيد بالقسم لما يترتب عليه من اللوازم الخطيرة.

ولهذا قال العلماء: لو قال قائل: «الله يعلم أنِّي ما فعلت كذا» وهو فاعل، قالوا: إنَّ هذا يقتضي الكُفر إذا كان يعلم معنى ما يقول، وما يلزم من قوله . . ووجه ذلك ما أشرنا إليه آنفًا من كونه يستلزم أن يكون الله جاهلاً وعاجزًا.

ومن فوائدها: جواز التأكيد بعدة مُؤكدات في جانب المُنكر . . بل قد نقول: إنَّ التَّأكيد واجبٌ إلا لفائدة . . لقولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وقد سبق أن الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

ومن فوائدها: أنَّ الرسل عليهم الصلاة والسلام ليس عليهم هداية الخلق وإنما عليهم إبلاغ الرسالة فقط لقولهم: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.

ومن فوائدها أيضًا: أنه يلزم الرُّسل أن يكون بلاغهم مُبينًا مُظهرًا للأمر على حقيقته ويتفرع على ذلك أنه لا إبهام في الشرائع وأن الشرائع كلها واضحة فإن جاء إبهامٌ في نص فهو مُبين ومُوضح في نصٍّ آخر، وإن بقي الإبهام قائمًا فالعلة في فهم المُخاطَب إما لقصوره، وإما لتقصيره.

أما ما جاءت به الرُّسل فإنه يحصل به البلاغ المُبين المُظهر لكل ما تحتاج إليه الرسالة لقوله: ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.

ومن فوائدها: أن المُكذبين للرُّسل الذين يكرهون ما جاءوا به يتطيرون بهم لقوله: **﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾** وهذا التطير قد يكون له أصل وذلك فيما إذا عُوقبوا بمخالفة الرسل . . فيجعلون تلك العقوبة من شُؤم هؤلاء الرُّسل . . كأنهم يقولون: لولا أنكم أتيتم إلينا ما حصلت لنا هذه العقوبة . . وقد يكون هذا التطير لا أصل له وإنما هُو دعوة مُجردة من هؤلاء المُكذبين وهم قد يتطيرون بمعنى أنه يحدُّ من حُرياتهم فيما تهواه أنفسهم فيقولون هذا شُؤم وتضييق مثل: أنَّ الرُّسل - عليهم الصلاة والسلام - ينهونهم عن عبادة الأصنام وهم يهوون عبادة الأصنام فيجعلون هذا التضييق عليهم بزعمهم يجعلونه شُؤمًا فيتطيَّرون بالرُّسل . .

والحاصل أن التطير بالرُّسل له ثلاث حالات:

أولاً - تطيُّر بحد الشريعة من أهوائهم وشهواتهم فيقولون: هذا تضييق علينا وهو شُؤمٌ في زعمهم.

ثانيًا - تطير بما يُصيبهم من العقوبات بالمخالفة فيقولون: إن هذا شُؤم.

ثالثًا - دعوى مُجردة لا أصل لها فيقولون: **﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾** لِمُجرد التَّشْويه لما جاء به الرُّسل.

ومن فوائدها: بيان عُدْوان المُكذبين للرُّسل؛ لأنهم قالوا: **﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** وهذا من العدوان العظيم على عباد الله . . فهؤلاء القوم - أعني الرسل - حالهم كما قال مُؤمن آل فرْعون: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾** (سورة غافر: ٢٨). فهؤلاء المكذبون للرسل الذين يتهددونهم بالقتل والرجم والعذاب الأليم هؤلاء من أشد الناس عُدوانًا؛ لأنهم اعتدوا على الحق وعلى حامل الحق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)﴾

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا﴾ أي: تشـائمنا، وأصل التَّطير مـأخوذ من الطيـر؛ لأن الناس يتشاءمون بالطيور أو يتفاءلون بها فيُرسلون الطيور فإن اتَّجهت إلى اليمين أو اليسار أو الأمام أو الخلف أو عادت أو ذهبـت ولم تعد تشاءموا أو تفاءلُوا على اخـتلاف بينهم فيما يكون التشاؤم أو التفاؤل، ثمَّ تعدَّى الأمر إلى أن تكون الطيرة في كل شيء وهو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو زمان أو مكان . . هـذه الطيرة: التَّشاؤم بمرئيٍّ أو مسموع أو زمان أو مكان. هؤلاء الذين قالوا للرُّسل: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا﴾ تطيروا بماذا؟ بمسموع أو مرئي، أي تشاءموا قال: «بكم لانقطاع المطر عَنَّا بسـببكم»، وهذا أحد الوجوه الثلاثة التي أشرنا إليها آنفًا بأنهم يتطيَّرون بهم بسبب العقوبة التي تحل بهم لمُخالفتهم.

وجه آخر: يتطيرون بهم بسبب الحد من بلـوغ مآربهم في شهواتهم في عباداتهم ومُعاملاتهم ومأكولهم ومشروبهم . . فيقولون: أنت ضيقت علينا مثلاً، حرَّمت علينا الخَمر، حَرَّمْت علينا الميتة، ضيَّقْت علينا بالعبـادة خصصتها بواحد . . وما أشبه ذلك . . هذا في زعمهم تطيُّر.

الوجه الثالث - تطير المُدعى الـذي ليس له أصل يقولون ذلك تنفـيرًا للناس عن مُتابعتهم. وقوله «لانقطاع المطر عنَّا بسببكم» يحتمل أن هذا هو السَّبب ويحتمل أنه ما حلَّ بهم من العُقوبات الأخرى التي من جُملتـها ما عاقب الله به آل فرعون ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ (سورة الأعراف: ١٣٣). ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ (سورة البقرة: ١٥٥). كم؟ تسع عقوبات، ويُمكن عقوبات أُخرى غير هذه أيضًا.

قال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. مؤلم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾ عن أي شيء؟ عن دعـوتنا إلى اتبـاعكم وترك ما كُـنا عليه، وقـوله: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾

الجملة هذه جواب القسم وليست جواب الشرط؛ لأنها قُرنت باللام وأكدت بنون التوكيد، وهذا يدل على أنها جواب القسم لا جواب الشرط، وإلى هذا أشار ابن مالك رحمه الله في الألفية حيث قال:

واحْذِف لَدَى اجْتماع شرْطٍ وَقَسَم ❖❖❖ جواب ما أخَّرْت فهو مُلْتَزِم

قال: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ الرَّجْم: هو الرَّمْي بالحجارة، ومنه: رجم الزاني المُحصن: أي رميه بالحجارة حتى يموت.

﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾: ليصيبنكم .. ومس كل شيء بحسبه: فمسُّ الإنسان للإنسان له معنى، ومسُّ العقوبات والمصائب له معنى .. المراد بالمس هنا: الإصابة.

وقوله: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ العذاب هو ما يحصل لهؤلاء الرُّسل من هؤلاء المُكذبين المُعتدين من الضرب وشبهه ومنه الحبس أيضًا فإنه عذاب. و﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مُؤلم فهو فعيل بمعنى مُفْعِل، ومنه قول الشاعر:

أمِن ريْحانة الداعِي السَّميعُ ❖❖❖ يُؤرِّقني وأصْحابي هُجُوعُ

«أمن ريحانة الداعي السَّميعُ» بمعنى: المُسمع لا بمعنى السَّامع. «يُؤرقني وأصحابي هجوع» فأليم بمعنى مؤلم لا بمعنى آلِم.

قوله: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سبيل التنويع أم على سبيل الجمع؟ يعني أنهم يرجمونهم ويعذبونهم قبل الرَّجم أو أنه على سبيل التنويع وأن الواو بمعنى «أوْ» أي: لَنَرْجمنكم حتَّى تموتوا أو ليمسَّنكم منَّا عذابٌ أليم دون الرَّجم.

الآية تحتمل معنيين: فإن جعلناها للجمع فإنها ليست على سبيل الترتيب؛ لأنَّ الرَّجم هنا سابق في الذكر لاحق في الواقع؛ لأن العذاب الأليم قبل الرّجم إذ أنَّ الرَّجم لا عذاب بعده، فيكون فيها تقديم وتأخير.

وأما إذا جعلنا الواو بمعنى «أوْ» للتقسيم فيكون المعنى أنهم توعدوهم بأحد أمرين إما الرجم وإما العذاب المؤلم الشديد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩)﴾

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ . . ﴿قَالُوا﴾ الضمير يعود على الرسل، يُخاطبون أصحاب القرية الذين كذبوهم ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي شؤمكم ملازم لكم، وذلك بسبب كفرهم . . فهم الشُّؤم على أنفسهم وليس الشؤم من الرسل بل من هؤلاء ولو شاءوا لآمنوا؛ فزال عنهم ما حلَّ بهم من العذاب والنقص.

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ همزة استفـهام دخلت على إن الشرطية، «وفي همزتها التحـقيق والتسهيل وإدخال ألف بينهمـا بوجهيها - يعني التحقـيق والتسهيل - وبين الأخرى» سبق مثل هذا وأنَّ فيها أربع قراءات: التـحقيق والتسهيل فيقال: «أئِن» هذا تحقـيق، تسهيل «أين»، إدخـال ألف بينهما بوجـهيها: يعني: وعـدم الإدخال: إدخال ألف في التحقيق تقول: «آئن» ذُكرتم بالتسهيل «آين» هذا «إدْخال ألف بيْنهما» «وبيْن الأُخْرى»: يعني التي هي همزة إن . . والقراءات كُلها سبعية.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وعظتم وخوفـتم، وجواب الشرط محـذوف أي: تطيرتُم وكفرتم إلى آخـره . . قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ لاشك أنها حرف شرط والـشرط يحتاج إلى فـعل الشـرط، وإلى جواب الشـرط، أمـا فعل الـشرط فـمـذكور وهو قـوله: ﴿ذُكِّرْتُم﴾ أما جوابه فمحذوف . . فما تقديره؟

يقول المؤلف رحمه الله: «تَطَيَّرتُم» وقال: «وكَفَرْتُم». ولننظر الآن ماذا حصل من التَّذكـير لنعرف جـواب الشرط: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ فالذي حصل منهـم أنهم تطيروا وأنهم توعـدوا بالرَّجم والعذاب الأليم . . فـيكون الجواب مُطابقًا للمذكور . . أي: أئِن ذُكرتم تطيرتُم وتوعدتُم بالرجم والعذاب الأليم . . أما الكفر فـقد سبق. قال: «وهو محل الاسـتفهام والمراد به التـوبيخ» «وهو» أي جواب الشرط المحذوف محل الاستفهام يعني: هو الذي ينصبُّ علـيه الاستفهام لا التذكير؛

لأن التذكير ثابت وليس فيه إنكار، إنما الإنكار والتوبيخ بالتطير بهم واعتدائهم على الرسل، فهو محل الاستفهام الذي يراد به التوبيخ .. يعني أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وبَّخُوهم وقالوا: أتتشاءمون وتتوعَّدون لأنَّنا ذكرناكم !! فهذا هو محل الاستفهام .. وإنما نصَّ المؤلف على ذلك؛ لأنه قد يظن الظان أنَّ محل الاستفهام هي الجملة الموالية لأداة الاستفهام وهي قوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾، والواقع أن محل الاستفهام هو جواب الشرط لا الشرط المذكور وهو أي الاستفهام للتوبيخ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ هذا إضراب انتقال .. يعني: انتقلوا من الإنكار عليهم بكونهم يكذبون الرسل ويتوعدونهم ويتطيرون بهم إلى وصفهم الحقيقي وهو: أنهم قومٌ مُسرفون .. والإضراب يكون للإبطال ويكون للانتقال: فإذا قلت: «جاء زيدٌ بل عمرو» فهذا إضراب إبطال.

وإذا قُلت: «زيد في شك بل هو منكر» فهذا إضراب انتقال .. ومنه قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ (سورة النمل:٦٦). ومنه هذه الآية الكريمة: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ .. وقوله: ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ أي: مُتجاوزون للحد .. ووجه التجاوز:

أولاً - أنَّهم كذَّبوا الرُّسل بلا بينة وبلا دليل لأنهم اعتمدوا على أمرٍ ليس حُجة لهم ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وقالوا: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ﴾ وقالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾. هذا إسراف مجاوز للحدِّ.

ثانيًا - أنهم تطيروا بالرسل وحقيقة الأمر أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - محل تفاؤل لأنَّ في اتباعهم الخير .. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الأعراف:٩٦). وهؤلاء تطيروا بالرسل وليسوا محلاً للتطير بهم.

ثالثًا - أنهم توعدوا الرسل بالعدوان عليهم إذا لم ينتهوا عن دعوتهم إلى الله تعالى وإبلاغهم رسالته لقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

إذًا . . وجه الإسراف . . في ذلك أنه لا يجوز للإنسان عقلاً أن يرد شيئًا بلا بينة . . مع أنَّ هؤلاء الرُّسل لاشك أنهم أتوا بآية تدل على صدقهم، ما بعث الله رسولاً إلا أعطاه آية يؤمن بها البشر . . هذا عُدوان.

العدوان الثاني ـ تطيرهم بالرسل والحقيقة أن التطير من أعمالهم هم؛ لأن الرسل قالوا وصدقوا فيما قالوا: ﴿**قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ**﴾ فتطيرهم بالرسل قلب للحقيقة لأن حقيقة الأمر أن التطير من هؤلاء.

الوجه الثالث للإسراف ومجاوزة الحد: أنهم توعدوا الرُّسل: ﴿**لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

هنا قال: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ وفي أول الآية قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾، وهذا يدل على أنَّ القرية تُسمى مدينة .. والمدينة أيضًا تُسمى قرية .. فمكة سمَّاها الله تعالى قرية وهي أم القُرى .. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ (سورة محمد:١٣).

فالقرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثيرٌ من الناس بل القرية تكون مدينة وذلك؛ لأن أصل القرية مأخوذ من القرَى وهو التَّجمع .. فإن الناس يجتمعون فيها فإن كانت بلدة كبيرة سُميت في عُرف الناس مدينة وإن كانت دون ذلك سُمِّيت في عُرف الناس قرية .. والتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عُرفي فقط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يُستفاد منها:

أنَّ هؤلاء المُكذبين تشاءموا بالرسل؛ لأن هذه دعوى باطلة يدعيها كل مُكذب للرسل ففيها أنَّ المكذبين للرسل يدعون عليهم ما لم يكن منهم تشويها وتنفيرًا.

ويستفاد منها أيضًا: عُدوان هؤلاء المُكذبين حيث توعدوا الرُّسل إذا لم ينتهوا عن الدعوة إلى الله بالرَّجم المؤدي إلى الهلاك، أو بالعذاب الأليم إن لم يرجموهم .. وهذا فيه غاية العُدوان.

ومن فوائدها: أنَّ الإنسان شُؤمه بعمله وليس بدعوته إلى الحق لقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

ومن فوائدها: أنَّ الذُّنوب والتكذيب للرسل يكون سببًا للمحن والبلاء لقوله: ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾. وهذا هو سنة الله - عزَّ وجلَّ - في جميع المكذبين للرُّسل أن الله تعالى يبتليهم بالعقوبات لعلهم يرجعون.

ومن فوائدها: الإنكار على من ذُكِّرَ فأعرض لقوله: ﴿أئِن ذُكِّرْتُم﴾.

ومن فوائدها: جواز حذف ما علم بالسياق ولا يعد هذا نقصًا في الكلام وبلاغته؛ لأن جواب الشرط هنا محذوف للدلالة عليه . . وربما يكون الحذف أبلغ.

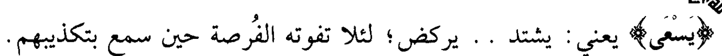
ومن فوائدها: أن هؤلاء القوم كانوا مُسرفين على أنفسهم مُتجاوزين للحد لقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، وسبق بيان وجه إسراف هؤلاء وتجاوزهم للحد. ثم قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ قال المؤلف: «هُوَ حبيبٌ النَّجَّار كان قدْ آمَنَ بالرُّسُل ومنزله بأقصى البلد».

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ أي: من أبعدها . . إلى أي مكان جاء؟ جاء إلى المكان الذي فيه الرُّسُل والمُكذبون لهم وهو وسط المدينة؛ لأن الغالب أن العلم والحضارة وكثرة السُّكان تكون في الوسط، وهذا الرَّجل كان في أبعد المدينة فسمع أنَّ هؤلاء كذبوا الرُّسل وكان ـ رحمه الله ـ قد آمن فجاء ينصح قومه.

والله عزَّ وجل يقول: ﴿رَجُلٌ﴾ وهو نكرة غير معرَّف . . والمؤلف يقول: «إنَّهُ حبيب النَّجَّار» وهذا الاسم والتعيين لمْ يصح عن النبي ﷺ ولعله مُتلقى عن بني إسرائيل وموقفنا في مثل هذا أن لا نُنكر ولا نُثبت.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾، وهنا بدأ ببيان مكانه قبل ذكره، وفي قصة مُوسى حين قتل القبطي ذكر الرجل قبل مكانه، هناك قال: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ (سورة القصص: ٢٠). وهنا ذكر المكان قبل ذكر الرَّجل . . وذلك؛ لأن هذا الرجل كان مُؤمنًا فسهل عليه أن يأتي من المكان البعيد فذُكر مكانه لبعده؛ ليُستدل به على قُوَّة محبَّة هذا الرجل للخير ودفع الشَّر.

أمَّا ذاك فالمقصود به العلم: أن يأتي أحدٌ بالعلم فبدأ بالآتي وهو الرَّجل قبل ذكر مكانه. ﴿يَسْعَى﴾ قال: «يَشْتَدُّ عَدْوًا لَمَّا سمعَ بتكذيب القوم الرُّسل.



﴿يَسْعَى﴾ يعني: يشتد . . يركض؛ لئلا تفوته الفُرصة حين سمع بتكذيبهم.

﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ . . ﴿قَالَ﴾ هذه جُملة مفصولة عمَّا قبلها: أي أنها أتت بدون حرف العطف . . كأنها جوابٌ عن سؤال مُـقدر . . فماذا قال حين جاء؟ قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ هنا «قوْم» مُنادى منصوب بالنداء لأنَّه مُضاف وقد حُذفت منه ياءُ المُتكلم وأصلها: «يا قومي» ولكـن حُذفت الياء للتخفيف أو لالتـقاء الساكنين لأن ﴿اتَّبِعُوا﴾ مبدوءة بهمزة وصل، وهمـزة الوصل ساكنة. على كل حال: قال الرجل: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقل: «يا أيُّها السُّـفهاء» «يا أيُّها الجُـهَّال» بل قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ توددًا وتعطفًا لـهم . . ولم يقل: «يا إخوتي» لأنه لا أخوة بـين المؤمن والكافر فهو مؤمن وهم كفار لكن قال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ . . ويصح أن يُقال «قوْم» ولو كانوا كُفارًا . . قـال الله تعالى مُـخـاطبًا رسـول الله ﷺ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ (سورة الأنعام: ٦٦).

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ اتبعوهم بما دعوكم إليه من الإيمان والعمل الصالح؛ لأنَّ هؤلاء الرُّسل دعوا إلى ما دعت إليـه الرُّسل كلهم وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٥). فهم دعوا إلى هذا . . إلى الإيمان والعمل الصالح.

﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ تأكيد للأول ﴿مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ كرَّر الأمر بالاتباع من باب التأكيد ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، ولو حُذفت «اتَّبِعُوا» الثانيـة وقيل: «اتبعُوا المُرسلين من لا يسألكم أجرًا» لصح الكلام، لكن ذُكرت أو كُرِّرت للتَّـأكيد، لأنها هي محطُّ الخطاب وهي المقصود الأوَّل بالخطاب أن يتبعوا المرسلين.

وقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾، ﴿مَن﴾ أي الذي، وهم الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فـإنهم يدعون الناس ولا يطلبون على دعوتـهم أجرًا ـ يعني: أجرًا من الناس ـ لكنهم يُؤمِّلون أو يرجُـون من الله الأجر . . أمَّا من الناس فـلا يأخذون

أجرًا . . فهم لا يتخذون أجرًا على دعوتهم وعلى دلالتهم إلى الخير وإنَّما يرجون الأجر والثواب من الله. ﴿أَجْرًا﴾ هُنا محلها في الإعراب: مفعول ثان، والكاف مفعول أول . . وهذان المفعولان من باب مفعولي كسى وأخواتها. ﴿لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فبين هنا أن هؤلاء الرُّسل على هُدى وليسوا على ضلال وهم لا يسئلون أجرًا على ما دعوا إليه. وقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يُحتمل أن تكون الواو للاستئناف وأن تكون للحال . . يعني: لا يسألونكم أجرًا مع كونهم مهتدين . . ويحتمل أن تكون للإستئناف وهو الأقرب لبيان حال هؤلاء الدُّعاة أنهم على هُدى . . ثم قال المؤلف: «فقيل له: أنت على دينهم؟ فقال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

ما قدره المؤلف من أنه قيل للرجل «أنت على دينهم؟» لا يتعين بل يجوز أن يكون الرَّجُل قال: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ⦗٢١⦘ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ على أن المراد به هؤلاء القوم كأنَّه قال: «وما لكم لا تعبُدُون الذي فطركم» لكن أضافه إلى نفسه من باب التَّلطُّف في الخطاب . . وهذا هو الأقرب:

أولاً ـ لأنَّ ما ذكره المؤلف لا دليل عليه والسياق لا يستلزمه، وإذا كان لا دليل عليه من حيث النقل، ولا دليل عليه من حيث السِّياق لأنَّهُ لا يستلزمه، فالأصل عدمه.

ثانيًا ـ أنَّ ما قُلناه أبلغ في التلطف بالدعوة . . بدل أن يقول: «وما لكم لا تعبُدُون الذي فطركم» قال: ﴿وَمَا لِيَ﴾ فأضاف الأمر إلى نفسه تلطفًا وقوله: ﴿وَمَا لِيَ﴾ الاستفهام هنا بمعنى الإنكار: يعني: أي شيء يمنعنى أن أعبد الله تعالى وحده . . ولهذا قال: ﴿لا أَعْبُدُ﴾ أي: لا أتذلل «للذي فطرني» خلقني: أي: لا مانع لي من عبادته الموجود مُقتضيها وأنتم كذلك . .

قوله: ﴿لا أَعْبُدُ﴾ تقدم لنا أنَّ العبادة هي التذلُّل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبَّةً وتعظيمًا . . وأنَّ العبادة تُطلق على التَّعبُّد الذي ذكرناه وعلى

المُتعبَّد به وهي الأفعال التي يتعبَّد بها الإنسان أو الأقوال، وعلى هذا حدَّها شيخُ الإسلام ابن تيمية بأنَّها: هي الاسم الجامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

وقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ لم يقل: «لا أعبد الله» ليقرن بين الحكم والتعليل .. وإن شئت فقل: بين الحكم والدليل .. لأن قوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ مُقتضٍ لكونه هو المعبود .. إذ إنَّهُ هو الخالق فلزم أن يكون هو المعبود .. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (سورة البقرة:٢١). فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ كالتعليل للأمر بعبادته وحده .. فكما أنه الخالق وحده فيجب أن يكون المعبود وحده.

ولهذا قال المؤلف: «المَوْجُود مُقْتضيها» .. ما هو مُقْتضيها؟ أنَّهُ هو الذي فَطَرَ الخلق وابتدع خلقهم .. فلزم أن يكون هو المُستحق للعبادة وأن يُعبد.

وقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي: خلقني لأوَّل مرَّة .. والفَطْر والإبداع بمعنى الإيجاد لأوَّل مرَّة، قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة فاطر:١). وقال: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (سورة البقرة:١١٧). فالذي فطر الخلق لأوَّل مرَّة وعلى غير مثال سبق هو الله .. إذًا: فيجب أن يكون هو المعبود .. أمَّا أن تعبُد غير الله وهذا الغير لا يخلق بل هو مخلوق. كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (سورة النحل: ٢٠). فكيف يصح أن يُعبد هؤلاء!!

المهم: أن هذا الرجل من فقهه وحكمته وحُسن دعوته أنَّه قَرَنَ الحُكم بالدليل .. الحُكم: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ الدليل ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾.

قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ .. هذا مما يؤيد ما قلنا من أنه يُريد قومه لكن من باب التَّلطف في خطابهم قال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ كما تُخاطب صاحبك الآن تُحاوره أو تُخاصمه تقول: «ما لي لا أفعل كذا وكذا» يعني: وما المانع؟ فإذا كان لا

مانع لي فلا مانع لك أيضًا.

قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت فيجازيكم قال المؤلف: «بكفركم» ولو قال: «بعملكم» لكان أشمل؛ لأنه يُجازيهم بالكفر إن استمرُّوا عليه ويُجازيهم بالإسلام إن أسلمُوا .. فلو عبَّر المؤلف بقوله: «فَيُجَازيكم بعملكم» لكان أولى.

ثم قال: ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ في الهمزتين منه ما تقدم، ما الذي تقدَّم؟ التَّحقيق والتَّسهيل وإدخال ألف بينهما وترك ذلك.

قال: «ما تقدم في ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وهو استفهام بمعنى النَّفي»، فيكون معنى ﴿أَأَتَّخِذُ﴾ أي: لا أتَّخذُ .. وقد سبق لنا أن الاستفهام إذا أتى بمعنى النَّفي فإنَّهُ يُفيد معنى التَّحدِّي .. ولكن هُنا يُفيد معنى الامتناع غاية الامتناع .. يعني: أنَّني لا يُمكن أن أتَّخِذَ من دونه - أي غيره - آلهة أصنامًا.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣)﴾

يقول: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ معروف أن أتخذ تنـصب مفعولين. ﴿مِن دُونِهِ﴾ المفعـول الثاني . . و﴿آلِهَةً﴾ المفـعول الأول . . ويجوز أن نجـعل ﴿مِن دُونِهِ﴾ في موضع نصب عـلى الحال من ﴿آلِهَةً﴾ ويكون الأول محـذوفًا، أي: «أأتّخـذُ أصنامًا آلهة» هذا هو الذي مشى عليه المؤلف لقوله: «أصنامًا» قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ التي زعمتموها ﴿شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ صفة آلهة . . يُريد المؤلف في الإعراب أي أن قوله: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ هذه الجُملة الشرطية صـفة لآلهة . . يعني: لا أتخذُ آلهة هذا شـأنها . . ما هو؟ أنَّ الله لو أراده بضرٍّ لن تنفع شفاعتهم ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ هذا معنى كلام المؤلف.

وقيل: إن الجملة استـئنافية لبيان حال هذه الآلهـة، أي: أأتخذُ من دونه آلهة ثم قال هذه الآلهة ـ الاستئناف: لا تُغنِ شفاعتها شيئًا من دون الله ولا تُنصف. ولكن ما ذهب إليه المؤلف أظـهر . . فتكون الجُـملة الشرطية في مـوضع نصب صفـة لآلهة.
قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ يعني: إن يُردن الله عـزَّ وجلَّ، وذكر الرحـمن؛ لأن الرحمن اسم يدلُّ على الرَّحمة . . ولمَّا كان الضُّر قد يفهم منه ـ من يفهم من الناس ـ انتفـاء الرحمة عن المُريد ذكـر ذلك باسم الرحمن لئلا يـتوهم الواهم هذا الوهـم: أنَّ إرادة الله الضُّر للإنسان تُنافـي الرحمة، لأنَّ إرادة الضُّر بالإنسان قـد يكون من رحمة الإنسان . . قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم: ٤١). فما يُصيبُ الإنسان من الضُّر له نتائج حمـيدة وهي الرجوع إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والاعـتبار بما جرى . . فلهـذا قال: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ﴾ أي: لا تنفعني بشيء . . والشفاعة في الأصل هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

هذه الأصنام التي تُعبد من دون الله يدعي عابدوها أنهم إنَّما عبدوها لتقربهم إلى الله كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ (سورة الزمر:٣). يعني يقولون: ما نعبدهم ﴿إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ .. إذن: فهم يدعون أنَّهم يعبدونها لتشفع لهم .. وهل هذا الوهم أو هذا الظَّن صحيح؟

الجواب: لا .. لأنهم عبدوها .. لم يتخذوها وسيلة بل جعلوها غاية ولهذا لا يخطر في قلوبهم عند التعبد لها إلا تعظيم هذه الأصنام وينسون الخالق - عزَّ وجلَّ -.

لكن يقول: التي زعمتموها يعني بناءً على دعواهم أنهم يعبدون هذه الأصنام من أجل أن تشفع لهم.

قال: ﴿لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ﴾ ﴿وَلا يُنقِذُونِ﴾ من أي شيء؟ أي من الهلكة أو من الضُّر الذي أراده الله به.

ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان نُصح هذا الرجل لقومه من وجهين:

الوجه الأول - أنَّه جاء من مكان بعيد ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾.

الوجه الثاني - أنه جاء يشتد يسعى.

فيستفاد منه أنه ينبغي للإنسان انتهاز الفُرص في إنذار قومه ومُناصحتهم وأن لا يتوانى فيقول غدًا أذهب إليهم أو في آخر النهار .. أو ما أشبه ذلك .. يعني: المُبادرة بالنصيحة والموعظة؛ لأن الرجل كما تُشاهدون.

ومن فوائدها: أنه يجوز للإنسان أن يُبادر بالإنذار قبل أن يُقدم له مُقدمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك لقوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ أمرهم من أول الأمر لم يأت بمقدمة تهيئهم للقبول لأن الحال تستدعي ذلك.

ومنها أيضًا: أنه ينبغي التلطف في القول في دعوة الغير لقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فإن هذا يستوجب اتباعه وقبول نُصحه .. لماذا؟ لأن للإنسان حدبًا على قومه.

ومن فوائدها أيضًا: أنَّ الرُّسل عليهم الصلاة والسلام لا يسألون الناس أجرًا على ما أتوا به من الدلالة والهداية لقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾.

ومن فوائدها أيضًا: أنه ينبغي أن يقدم الوصف المُوجب للقبول قبل الوصف المُفضل للقبول، فهنا قال: ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ والرسالة وصفٌ يقتضي وجوب قبول المُرسل. ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ هذا من باب الكمال.

ومن فوائدها: أنه ينبغي للداعية إلى الله عزَّ وجلَّ أن يترفع عن أخذ ما في أيدي الناس من الأموال حتَّى وإن أعطوه؛ لأنه رُبما تَنْقُصُ ميزانيته إذا قبل ما يُعطى من أجر دعوته وموعظته؛ لأن الرُّسل - عليهم الصلاة والسلام - لا يسألون الناس أجرًا لا بلسان الحال ولا بلسان المقال .. وبه نعرف قُبح ما يستعمله بعض الناس - وإن كان الحمد لله الآن قد قل - يقوم ويعظ الناس موعظة قد تكون بليغة فإذا انتهى قال: إنِّي في حاجة وصاحب عائلة وما أشبه ذلك .. صارت الموعظة الآن للدُّنيا للأجر .. وهل يُستفاد من هذا أنَّهُ لا يجوز أخذ الأجر على تعليم العلم؟ لمُخالفته لطريق الرُّسل؟ أم يُقال: لا .. الذي لا يجوز الأخذ عنه الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ؟ هذه لا يجوز أخذ الأجر عليها لوجوب الدعوة على الإنسان أما التعليم الذي يحتاج إلى معاناة وإلى تعب وإلى تفهيم خاص فهذا لا بأس به، وقد قال النبي ﷺ: «**إنَّ أحقَّ ما أخذْتُم عليْه أجْرًا كتاب الله**».

وهل يستفاد من الآية أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟ لا يُستفاد .. ولكن لاشك أن التنزه عن ذلك أولى .. يعني: كون الإنسان يذهب يدعو إلى الله - عزَّ وجلَّ - دون أن يأخذ مُقابل ولا من الحُكومة لاشك أن هذا أفضل وأقرب إلى الخلاص وأشد وقعًا في نفوس الناس حتَّى وإن لم يعلموا أنه لم يأخذ ..

لأن الله تعـالى يُلقى ذلك في قلوب الناس . . أي يُلقي القـبُـول من هذا الناصح أو الدَّاعي وإن لم يعلموا أنَّه لا يأخذ شيئًا.

ومن فوائدها: أنه من طريق الدعـوة أن يذكر الإنسـان حال الداعـية بوصـفه بما يُوجب قبول قوله . . لقوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فهنا ذكر ما يُوجـب قبول قولهم في أول الدعوة ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وفي آخرها في قوله: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

ومن فوائدها أيضًا: أنه يجب على من دعا إلى الله أن يكون على بصـيرة وعلى عِلم؛ لأن هذا هو وصف الرُّسل فهم يدعـون إلى الله تعالى على هدى منه . . وأمَّا من يدعو على غير هُدى فإنه قد يُفسـد أكثر مما يُصلح؛ لأن الذي يدعو عن غير علم ربما يجعل الشيء الحرام حلالاً والحلال حرامًـا وهو لا يدري . . فيحصل بذلك فساد في الدين والعقيدة.

وفي قوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ من فوائدها: أنـه لا بأس للإنسان أن يُضيف الشيء إلى نفسه على سبيل الفرض تلطفًا لقوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ يعني: على فـرض أنني أتخذ من دون الله آلهـة فمـا الذي يمنعني أن أعبـد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده.

ومن فوائدها: الإشارة إلى وجوب الإخلاص في العبادة لقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فإن الله تعـالـى مُنفرد بـفطـر الخلق فيـجب أن يُفرد بالعـبادة . . فلا يـدعي أحدٌ أن الآلهة تخلق، إذًا . . لا يجوز أن تُعطَـى شيئًا من العبادة التـي يختص بها من يخلق وهو الله.

ومنها: أنه من كمـال الدعوة والتـعليم قرن الحكم بدليله أو علَّتـه لقوله ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإن هذا كالتعليل لقوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ﴾ ولهذا عدل عن قوله: «وَمَا لِيَ لا أَعْـبُدُ الله» إلى قـوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْـبُـدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ليكون هذا كـالدليل والتـعليل لوجوب إفراده ـ سبُحانه وتعالى ـ بالعبادة.

ونظيـر هذه الآية قـوله تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ (سورة النساء: ١). ولم يقل: «اعْبُدُوا الله» بل قال: ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم﴾ ليكون ذلك كالتعليل لوجوب عبادته . . وهذا في القرآن والسُّنَّة كثير.

ومن فوائدها: أنه ينبغي ذكر ما يكون به الحذر والخوف بعد أن يذكر ما يكون فيه الترغيب والحث لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. فذكر ابتداء الخلق وانتهاءه وأنه كله إلى الله عزَّ وجلَّ.

وهنا نجد الفرق بين التعبير الأول: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ولم يقل: «وإليه أرجع» لأنه كما قلنا إنَّما أضاف ذلك إلى نفسه وهو يعني قومه . . لكن أضافه تلطفًا وتوبيخًا لهم. فكأنه يقـول: أنا لا أعبد إلا الذي فطرني . . فلماذا تعبـدون أنتم معه غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ثم قال عزَّ وجلَّ ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ..﴾ إلى آخره فيه بيان الإنكار والتسـفيه للذين يـتخذون مع الله آلهـة . . لأن المراد بالاستفـهام هنا الإنكار والتسفيه والتوبيخ لهؤلاء.

ومن فوائدها: أنه ينبغي أيضًا قرنُ الحكم بالتعليل لأنه قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ إلى آخره . . فهذه الآلهـة لا تنفع ولا تضر ولا تدفع . . فهي لا تنفع من عبدها . . ولا تضر من عدل عنها . . ولا تدفع عن عابديها ضرر الغير.

يقول عـزَّ وجلَّ: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ فهم الآن يستطيعون دفـع ضرر الغير وهم الآلهة لا ينفعون عـابديهم ولا يضرون من عدل عن عبادتهم فـهي قاصرة بنفسهـا لا تجلب نفعًا ولا ضرًا ولا تدفع الضَّـرر عن عابديها، فتكون عبادتها خُسرانًا.

ومن فوائدها: أن كل معبود فـهو إله لقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ لكن إن كان يستحق العبادة فعبادته حق، وهذا لا يكون إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وإن كان لا يستحق العبادة وهو مَنْ سوى الله فعبـادته باطلة وألوهيته باطلة . . ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ (سورة الحج: ٦٢).

ومن فوائدها: إثبات الإرادة لله لقوله: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ وإرادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غير خافية عليكم أنها تنقسم إلى قسمين:

الأول ـ إرادة كونية.

والثاني ـ إرادة شرعية.

فالإرداة الكونية: هي التي بمعنى المشيئة، ويتعين فيها وقوع المُراد ولا يلزم أن يكون محبوبًا لله.

والإرادة الشرعية: هي التي بمعنى المحبَّة ولا يتعين فيها وقوع المراد ويتعين أن يكون محبوبًا لله عزَّ وجلَّ.

إذا قال قائل: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ الضر شر أم خير؟ شر لاشك أنَّ الضَّر شرٌّ على الإنسان .. فكيف نجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: «**الشَّرُّ ليْس إليْك**».

الجواب: أنَّ النبي ﷺ لم يقل: «الشَّرُّ ليْس منْك» بل قال: «**الشَّرُّ ليْس إليْك**» فالله عزَّ وجلَّ قد يريد الشر لكن إرادته للشر خير، والشر في مفعوله لا في فعله؛ فقد يريد الله الشر أو وقوع الشر لكن لمصلحة عظيمة هذه المصلحة نفت نسبة الشر إلى الله، ولهذا يفرق بين الشر منك والشر إليك .. فالله عزَّ وجلَّ يقع منه الشر بمعنى أن الشر يكون في مفعولاته، أمَّا أن يُنسب إليه ويُقال: إن الله شرير ـ حاشًا وكلاً ـ فهذا مُستحيل .. لأن فعله كله بحكمة وغاية محمودة.

وانظر مثلاً إلى المرض إذا أصاب الإنسان: إذا أصاب الإنسان مرضٌ فلاشك أنه شر بالنسبة للصحة لا تشعر بهذه النعمة ـ نعمة الصحة ـ لكن إذا مرضت شعرت بقدر النعمة: «وبضدها تتبين الأشياء»، أنت الآن تتنفس النَّفس، تتنفس وأنت تأكل، تتنفس وأنت تتكلم، تتنفس وأنت قائم، وأنت قاعد، وأنت مُضطجع، لا تُحِسُّ بأي شيء، لكن لو قدر الله تعالى أن يحبس نفسك ويكون عندك ضيق تنفس عرفت قدر النفس أم لا؟

الحاصل: أنَّ هذا الشر شر نسبي في الواقع حتَّى بالنسبة لمن وقع عليه.

الفيضـانات والزلازل والجدب . . شر أم خير؟ شر، لكن بالنسـبة إلى تقدير الله لها خير . . هي شرٌّ بالنسبة لمن أصابتهم لكنها خيرٌ بالنسبة للآخرين يتعظون ويخافون . . وقد تكون خيـرًا لأولئك المُصابين بحيث يرجعون إلى الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ ويعرفون أن المعصية عاقبتها وخيمة ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ (سورة الروم: ٤١).

إذًا: فلا مُنافـاة بين قوله ﷺ: «**الشَّرُّ ليْس إليْك**» وبين مثل هذه الآية: ﴿**إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ**﴾.

ومن فوائدها: إثبات صفة الرحمة لله مأخوذ من قوله: ﴿**الرَّحْمَنُ**﴾ لأن الرحمن وصف مُشتق، والوصف المُشتق يدل على المعنى المُشتق منه ولابد . . بخلاف الأسماء الجامـدة كأسد وحجـر وتُراب وما أشبـهها فـهذه لا تدل على معنى، لكن الأسـماء المُشتقة لابُد أن تدل على معنى . . هذا بالنسبـة إلى أسماء الله ورسوله وكتابه . . أمَّا بالنسبـة لمن تسمى بها من المخلوقين فـقد تدل على المعنى وقد لا تدل . . قـد نُسمي شخصًا عبد الله وهو كافر بالله . . وقد نُسمي شخصًا مُحمدًا وهو مُذمَّم، وقد نُسميه خالدًا وهو سيمُوت . . وقد نُسَمِّيه صالحًا وهو من أفسد الناس.

ومن فوائدها: أن عابدي الأصـنام يُموهون على الناس بعـبادتهـا فيدَّعـون أنهم يعبـدونها؛ لتكـون شفيـعًا لهم عند الله . . وهذا عنـدما يسمـعه السَّـامع يظن أنهم يجعلون الآلـهة في مرتبـةٍ دون الله؛ لأن مرتبـة الشافع دون مرتبـة المشفـوع إليه . . فيقولون: إنهم شفعاء لنا إلى الله . . والحقـيقة أنهم لم يجعلوهم شفعاء بل جعلوهم شركاء لله، كـيف شركاء؟ لأنهم يعبـدونهم كما يعبـدون الله فيستفـاد منه الحذر من التَّلبيس بالأسماء أو بالتسمية وأن صـاحب الباطل قد يُسمي نفسه بما يقتضي أن يكون على حق وليس كذلك . . وهذا موجود كثير.



المعتزلة يُسمون أنفسهم أهل التوحيد، المُعطلة يُسمون أنفسهم أهل التنزيه يقولون: نحن نُنزه الله أمَّا أنتم أهل السنة أنتم لا تُنزهون الله جعلتموه صنمًا فمثلتُموه بالخلق بإثبات الصفات.

وهؤلاء أيضًا أهل التوحيد نفس الشيء يقولون: نحن نفينا الصِّفات يعني نُوحد الله؛ لأن تعدد الصفات يستلزم تعدد الموصوف، هذا تمويه.

المعتزلة يُنكرون أن يكون لله تعالى تعلق بفعل العبد فيسمون أنفسهم أهل العدل، أما أنتم يا أهل السنة، فأنتم أهل الظلم جعلتم الله ظالمًا حيث هو الذي يقدر المعاصي على العبد ثم يُعاقبه عليها، أمَّا نحن فنحن أهل العدل .. نقول: الإنسان هو المُستقبل بنفسه وعمله فإذا جُوزي على معصيته فقد استحق الجزاء لأنه فعله.

النصارى سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفًا لحالهم؛ ليوهموا أنهم على دين المسيح، والواقع أن المسيح بريء منهم وأنهم ليسوا على دينه لو كانوا على دينه وقابلين له لقبلوا بشارته بمحمَّد ﷺ فإنَّ عيسى بَشَّرَهُم به قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (سورة الصف: ٦).

ولو كانوا مُؤمنين بالإنجيل لآمنوا بمحمد ﷺ لأن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ (سورة الأعراف: ١٥٧). فهم لا آمنوا بعيسى ولا بكتاب عيسى وهو الإنجيل .. لكن مع ذلك سموا أنفسهم بالمسيحيين تلطيفًا لما هم عليه من الباطل ليصبغوا نحلتهم بصبغة المقبول.

المهم: أنه يجب الحذر من التلبيس في التسمية؛ لأن هؤلاء يقولون نعبد الآلهة لتكون شفعاء أو ليكونوا شفعاء لنا، وهم في الحقيقة إنما جعلوهم شركاء.

ومن فوائدها: أنه لا أحد يُنقذ من أراده الله تعالى بسوء أو بضرر. لقوله: ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾، فإن قلت: كيف يجتمع هذا مع أننا نُشاهد الغريق عصفت به الريح حتى سقط في الماء فجاء شخص فأنقذه .. فهذا أُنقذ مما أراده الله به من السوء؟

الجواب: أن نقول إن إنقاذه بتقدير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ . . لو شاء الله سُبحانه وتعالى أن يهلك هذا لم يكن عنده أحد . . ولو شاء الله أن يُهلكه لكان عنده من لا يُجيد السِّباحة . . ولو أراد الله أن يهلكه لكان عنده من لا يُريد الإحسان . . فإذا قيض الله له شخصًا قادرًا على إنقاذه مُحبًا للإحسان أنقذه بقدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ . . ونحن نُؤمن بالأسباب لكننا لا نؤمن بأنها مُستقلة . . فنكون وسطًا بين الذين يُنكرون تأثير الأسباب وبين الذين يدعون أنها مؤثرة بنفسها.

نقول: هي مؤثرة لكن بجعل الله لها تأثيرًا ولو شاء الله تعالى لسلب الأسباب تأثيرها . . فالنار محرقة وباردة، وقال الله تعالى لها حين أُلقي فيها إبراهيم: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء:٦٩). فصارت بردًا وسلامًا لم تكن سببًا للإحراق، والماء جوهر سيال لا يُمكن حجزه إلا بحواجز ثخينة ولَمَّا ضرب مُوسى البحر صار الماء كالجبال بدون حواجز . . وهذا خلاف الأسباب المُعتادة لكنه بقدر الله عزَّ وجلَّ، وبه نعرف أن الأسباب مُؤثِّرة بجعل الله تعالى لها تأثيرًا إلا لسقط تأثيرها . . لأن الكل بيد الله.

وبمناسبة ذكر نار إبراهيم عليه السلام: قال بعض المُفسرين: إنَّ الله لَمَّا قال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ صارت جميع النيران في جميع أقطار الدُّنيا باردة ولا تحرق، واستغرب الناس ذلك، قالوا: ما الذي بلى نارنا اليوم ما غلى القدر عليها؟! تأخر طعامهم وما نضج لأن النار صارت باردة!!

لكن هذا لاشك أنه قول خاطئ بعيد من الصواب، بل هو خلاف أمر الله عزَّ وجلَّ . . الله قال: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ﴾ و «نار» نكرة مقصودة، ولهذا بُنيت على الضَّم . . فهي في العلم يُراد بها شيء مُعين وهي النار التي أُلقي فيها . . ثم قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾. فهو خلاف الآية الكريمة . . لكن ما أدري، سُبحان الله !! بعض الناس ـ رحمهم الله وعفا عنهم ـ يذهبون مذاهب تقول كيف تقع هذه من عالم؟! والغالب أن هذه تجدها عن بني إسرائيل فتؤخذ مسلمة ولا يُنتبه لمعارضتها لأهل الكتاب.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾

﴿إِنِّي إِذًا﴾ الجملة هذه مؤكدة بإنَّ؛ لأن المقام يقتضي التوكيد .. وقوله: ﴿إِذًا﴾ أي: إن عبدت غير الله لقوله: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ويجوز أن نقدر «إن اتخذت من دونه آلهة» بقوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾، و﴿إِذًا﴾ هنا: ظرف تدل على الحال، و«إذا» ظرف يدل على المستقبل. و«إذْ» ظرف تدل على الماضي، فهذه الثلاثة تقاسمت الزمن .. إذًا للحال، وإذَا للمستقبل، وإذْ للماضي، وتأتي لغير ذلك إذ كما تأتي للتعليل مثلاً ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، اللام هنا للتوكيد، فالجملة مؤكدة بمؤكدين .. يعني: إن اتخذت معه آلهة أو عبدت غيره ﴿لَّفِي ضَلَالٍ﴾ قال المؤلف: بين .. والضلال هو أن يتيه الإنسان عن جادة الصواب .. ثم إن كان عن علم كان طريقه طريق المغضوب عليهم، وإن كان عن جهل كان طريقه طريق الضالين.

وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة الفاتحة فقال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (سورة الفاتحة: ٦-٧). فالمغضوب عليهم: هُم الذين جانبوا الصواب عن علم، والضالون: هم الذين جانبوه عن غير علم، والمهتدون الذين أنعم الله عليهم: هم الذين عملوا بالصواب عن علم.

ووجه كونه ضلالاً مُبينًا - أي اتخاذ آلهة من دون الله - أنه حيدةٌ عن الواجب شرعًا وعقلاً .. فالواجب شرعًا: أن لا نتخذ إلهًا مع الله كما جاءت به جميع الرُّسل.

والواجب عقلاً: أن لا نتخذ آلهة مع الله؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلق الإنسان وفطره وهو الذي بيده النفع والضرر فكيف نتخذ معه آلهة لم تخلق ولا تنفع ولا تضر!! ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

أعلن ـ رحمه الله ـ أنه آمن بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقال: ﴿آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، وهناك قال: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إشارة إلى أنه ليس ربًا له وحده بل هو رب للجميع.

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والإيمان بالله عزَّ وجلَّ يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

★ **الأول** ـ الإيمان بوجوده.

★ **والثاني** ـ الإيمان بربوبيته . . وهنا صرَّح به في قوله: ﴿آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فإثبات الربوبية إثبات للوجود.

★ **والثالث** ـ الإيمان بألوهيته.

★ **والرابع** ـ الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي أنه مُنفرد بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقوله: ﴿آمَنْتُ﴾ مرَّ علينا كثيرًا أن الإيمان في اللغة: التصديق عند كثير من المُفسرين الذي يُفسرون الإيمان . . وقيل: إنَّ معناه: الإقرار والاعتراف . . فهو أخص من التصديق قال: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾، الفاء هذه عاطفة على قوله: آمنت بربكم أو على الجُملة كلها.

وقوله: «اسمعُون» أي: اسمعوا قولي، وهذا إعلان منه ـ رحمه الله ـ بإيمانه مُراغمة لقومه وإقامة للحجة عليهم . . ولهذا لَّما أعلن هذا الإعلان قتلوه.

قال المؤلف: فَرَجمُوه فمات.



قِيلَ لَهُ عِنْدَ مَوْتِه: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)﴾

وقيل: دخلها حيًا لما أعلن هذا الإعلان وراغمهم ولم يأبه بهم ولم يهمه، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنهم توعدوه حينئذ رجموه فقتلوه فقيل له:

﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ الأمر هنا للتكريم، و﴿الْجَنَّةَ﴾ هي الدار التي أعدَّها الله ـ سُبحانه وتعالى ـ لأوليائه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ بعد موته ـ وقيل: دخلها حيًا ـ لأن الإنسان يُعذب في قبره أو ينعم، فإن كان من أهل الخير فإنه ينعم وإن كان من أهل الشر فإنه يُعذب.

﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ لما قيل له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وهذا الأمر كما قلت: أمر إكرام، قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

المؤلف يقول أو المُفسر يقول: «حَرْفُ تَنْبيه» يعني: «يا» . . وليست حرف نداء؛ لأنها دخلت على حرف . . و«يا» التي للنداء لا تدخل إلا على اسم . . فإذا دخلت على ما لا يصحُّ دخولها عليه فإنها لا تكون للنداء . . وقد مر علينا في علامات الاسم أن من علاماته النداء . . دخول ياء النداء عليه . . فإذا دخلت ياء النداء على غير اسم فإنها للتنبيه، سواء دخلت على حرف مثل: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ أو دخلت على فعل وأكثر ما تدخل على الأفعال على فعل الأمر فإنها تكون للتنبيه، ويجوز أن تكون حرف نداء والمُنادى محذوف ويُقدر بحسب السِّياق . . وفي مثل هذه الآية نُقدره فنقول: «يارب ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ فصار في إعرابها وجهان:

أحدهما ـ أنَّها للتنبيه.

والثاني ـ أنها للنداء، والمُنادى محذوف ويُقدر بحسب ما يقتضيه السياق.

وقوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ ﴿يَا لَيْتَ﴾ هنا للتمني .. ولعل للترجي .. والفرق بينهما أن التمني يكون فيما فيه تعذر، والترجي يكون فيما يقرب حصوله .. وما كان بين ذلك فتارة تُستعمل فيه «ليت» وتارة تُستعمل فيه «لعلَّ». فالأحوال ثلاثة:

★ ما قرب حصوله تُستعمل فيه: «لَعَلَّ».

★ وما امتنع «لَيْت».

★ وما كان بين ذلك فأحيانًا «لَعَلَّ» وأحيانًا «لَيْت» بحسب قُربه من التعذر أو من الحصول.

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ .. يعلمون ما حصل له .. ولهذا قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ بغفرانه ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ الباء هنا متعلقة بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ والعلم هنا بمعنى المعرفة .. فلا تتعدَّى إلا إلى مفعول واحد، و«ما» مصدرية كما حلها المُفسر وأولها إلى مصدر قال: «بِغُفْرانه» .. وهنا ينبغي أن نتذكر معاني «مَا» .. معانيها عشرة:

«ستَفْهَمُ» يعني للاستفهام، «شرْط»، «الوصل»، «فاعْجب» تعجبية، «لنُكرها» نكرة «بكفٍّ» كافَّة، «ونفي» نافية، «زيد» زائدة، «تعْظيم» للتَّعظيم، «مصدر» مصدرية.

فهنا هي من المعنى الأخير مصدرية، وعلامة المصدرية التي يُسبق ما بعدها بمصدر: يحول إلى مصدر.

وقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ تقدم لنا أن المغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من المِغْفَر، والمغفر فيه معنيان أو فيه شيئان:

أحدهما ـ الستر؛ لأنه يستر الرأس.

والثاني ـ الوقاية لأن الإنسان يضع على رأسه المغفر في القتال؛ ليتقي به السهام.

وليست المغفرة بمعنى الستر فقط . . ثم قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ فأضاف الربوبية إليه وهي من الربوبية الخاصة . . لأن الربوبية نوعان:

ربوبية عامة . . وربوبية خاصة . .

الربوبية العامة: هي الشاملة لجميع الخلق التي مقتضاها التدبير والتصرف في الخلق كما تقتضي حكمته.

والخاصة: هي التي يكون فيها عناية بهذا المربوب كربوبية الله سبحانه وتعالى لرسله وأوليائه، وقد اجتمع النوعان في قول السحرة: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٤٧-٤٨).

فالأولى - عامة.

والثانية - خاصة.

ويقابل ذلك العبودية فإنها عامة وخاصة، فالعامة كقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (سورة مريم: ٩٣). والخاصة كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣). والخاصة فيها أخص وهي عُبودية الرسل لله تعالى كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ (سورة الفرقان: ١).

قال: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ هنا الربوبية خاصة، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ لدخوله الجنة؛ لأن دخول الجنة إكرام للإنسان، إكرام من قبل الله، وإكرام من قبل الملائكة . . فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (سورة الرعد: ٢٤). إكرام من جهة الوِلْدان المُخلدين الذين هم خدم لأهل الجنة، إكرامٌ من جهة الزوجات اللاتي هن قاصرات الطَّرْف ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (سورة الرحمن: ٥٦). إكرام من جهة بعضهم لبعض فإنهم ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٧). قد نزع الله ما في صدورهم من غل، ومثل هذا لابد أن يكون فيه إكرامٌ

من بعضهم لبعض، فـأهل الجنة مكرمون، ومنهم هذا الرجل المؤمن الناصح المُخلص فإنه مكرم بدخول الجنة.

قـال الله عزَّ وجلَّ لَمَّا ذكـر المُصلين الذين هـم على صلاتهم دائـمون خـتم هذه الصـفات بقـوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ (سورة المعارج:٣٥). ولهـذا قـال هنا: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

من فوائد هذه الآيات:

قال الله تعالى: ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ .. في هذه الآية الكريمة بيان أنَّ من أبين الضلال وأشـده تيهـا أن يتخـذ الإنسان مع الله آلهـة لقوله: ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

ومنهـا: أنه ينبـغي التأكـيد إذا كـان المُخاطـب مُنكرًا أو حاله حـال المنكر؛ لأنه يُخاطـب قومه الذين اتخـذوا مع الله آلهة ويقـول: إني إن اتخذت آلهـة مع الله لفي ضلالٍ مبين، ولهذا أكد الجُملة بمؤكدين: إنَّ واللاَّم.

وربما يؤخـذ من الآية الكريمة أن كل مـن ضل عن الحق أو كل من خـالف الحق أصابه من الضلال بقدر ما خالف الحق لقوله: ﴿لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ فيُفيد أن الضلال قد يكون خفيًا وقد يكون بيِّنًا واضحًا.

ومن فوائد الآية الكريمة: كمـال نُصح هذا الرجل، لأنه قرر وحدانيـة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعـدَّ أمور منهـا: ما سبق فـي قوله: ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ومنها: التحـذير مـن الشرك به لكون المُشرك في ضـلال مُبين، وهكذا ينبغي للداعيـة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا دعـا إلى الحق أن يذكر ما في لُزُومـه من الفضائل وأن يذكـر ما في مُخالفته من الضلال والسُّوء حتَّى يجمع بين التَّرغيب والترهيب.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ عكس من اتخذ مع الله آلهة وكان في ضلال مبين أنَّ من وحَّد الله فهو على هُدى مُبين بيِّن واضح؛ لأنه أصاب الفطرة وأصاب ما جاءت به الرسل. ثم قال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

يُستفاد من هذه الآية: فضيلة هذا الرجل بإعلانه الإيمان بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ .. وكل إنسان يُؤمن يُعلن إيمانه بالله فإن ذلك له مزيَّة وفضيلة .. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة فصلت:٣٣). أعلن بأنه من المسلمين ولم يخف أحدًا سوى الله.

ومنها: قوة شخصية هذا الرجل .. حيث أعلن أمام هؤلاء القوم أنه آمن وآمن بربهم الذي يستلزم أن يكونوا مُخلصين له في العبادة إذا كان ربًا لهم .. كأنه أقام الحُجة عليهم بذلك .. فإذا كان الله ربكم فالواجب أن توحدوه ولا تتخذوا معه آلهة .. وهذا يدل على قوة شخصيته .. زد على ذلك أنه تحداهم فقال: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ فأنا لا أُبالي بكم اسمعوا أنِّي آمنت بربكم الذي يجب أن توحدوه لأنه ربكم.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان ربوبية الله تعالى العامة حيث قال: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ مع كونهم مشركين كفارًا .. وهذا من الربوبية العامة ثم قال: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾.

ويستفاد من هذه الآية الكريمة: إثبات نعيم القبر لقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ .. ويدل على ذلك آيات من القرآن مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ (سورة النحل:٣٢). فيستفاد من هذه الآية إثبات نعيم القبر .. وتوجد آية أخرى تدل على ذلك وهي: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ (سورة الواقعة:٨٣-٨٥). إلى قوله: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ (سورة الواقعة:٨٨-٨٩). فهنا قال: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾. حين الموت .. ثم قال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾.

ومنها هذه الآية: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ لأن هذا ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ ولم تقم الساعة الآن فهو دليل على أن الميت ينعم في قبره كأنما دخل الجنة؛ لأنه يُلبس من الجنة ويُفرش من الجنة ويُفتح له باب إلى الجنة ويأتيه من روحها ونعيمها، فكأنه دخلها.

ومن فوائدها: أن هذا الرجل كان ناصحًا في حياته وبعد مماته ففي حياته دعا قومه إلى توحيد الله عزَّ وجلَّ كما مرَّ علينا، وبعد مماته تمنى أن قومه يعلمون بغفران الله له من أجل أن يؤمنوا ويتبعوا الرسل .. وهذا دليل على أن المؤمن لا تلقاه إلا ناصحًا .. حتى بعد موته يكون ناصحًا .. فهذا الرجل تمنَّى أن قومه يعلمون بما غفر الله له لعلَّهم يرجعون فيؤمنون كما آمن.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات وجود الجنة وقد دل على ذلك آيات وأحاديث كثيرة .. مثل قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣). والإعداد بمعنى التهيئة والنَّصوص في هذا كثيرة .. وقد عُرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يُصلي صلاة الكُسوف. وهل تبقى الجنَّة أبدًا؟

الجواب: نعم .. وهذا مُتفق عليه بين أهل السنة .. النار موجودة الآن وهو مُتفق عليه أيضًا بين أهل السنة.

وهل تفنى؟

الصحيح المقطوع به أنها لا تفنى؛ لأن الآيات صريحة في ذلك، فقد ذكر الله تعالى تأبيد الخلود فيها في ثلاث آيات من كتابه:

ففي سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (سورة النساء: ١٦٨-١٦٩).

وفي سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٦٤-٦٥).

الآية الثالثة ـ في سورة الجن: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (سورة الجن: ٢٣).

فهـذه ثلاث آيات صريحـة في تأبيد أهل النار فيـها . . ومع ذلك مع التـصريح بالتأبيد ذُكر عن بعض السلف أنهم كانوا يقولون بأنها تفنى، ولكنَّ هذا القول لاشك أنه مهما قاله مَنْ قاله فإنَّ قوله مردود عليه.

ومن فوائد الآية الكريمة: مِنَّةُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على من آمن بالمغـفرة والإكرام . . فيتفرع على هذه الفائدة أنَّ الإيمان سببٌ للمغفرة وسببٌ لإكرام الله تعالى للعبد.

ومن فوائدها: أنَّه لا يتم النعيـم إلا بزوال المكروه ويُستفـاد هذا من قوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾.

ومنها أيضًا: ما أشار إليه بعض الأدباء: أن التخلية قبل التحلية . . لقوله: ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ وهذا تخلية . . وإزالة . . ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ هذا تحلية . . ولهذا لو أردت أن تُحلي امرأة تُنظفـها أولاً ثمَّ تُلبسهـا الحُلي، لو ألبستها الحُـلي وهي غير نظيفة ما يليق ولا تجد جمالاً فيها.

إذًا: يُستفاد منه: أن المغفرة تسبق الإكرام والرَّحـمة . . ويدل على هذه القاعدة: التَّتبُّع فإن الغالب أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا قرن بين الاسمين الغفور الرحيم يُقدم الغفور على الرَّحيم.

ومن فـوائد الآيـة أيضـا: إثبـات الربوبيـة الخـاصة لقـوله: ﴿رَبِّي﴾، فهـذه من الربوبية الخاصة.

ومن فوائدها: أن الإكرام ـ إكرام الله عزَّ وجلَّ ـ لا يختص بهذا الرجل . . بل هناك عالم يُكرمه الله لقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ففيه حثٌّ على أن يفـعل الإنسان كفعله لينال ما ناله، ولم يـقل: «بما غفر لي ربي وأكـرمني» بل قال: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ليبين أن الإكرام ليس خاصًا به . . بل إكرام موجود لكل من قام بعملٍ كعمله.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨)﴾

﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ «ما» نافيـة، وقوله: ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ قال المؤلف: «أي حبيب» بناء على أن اسمه حبيب، وقد سبق أن اسمه لا يهمنا، المهم القصة.

﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد أن هلك ومات على أيديهم.

﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ «مِنْ» هذه زائدة لأنها لو حُـذفت استقـام الكلام بدونها .. لو قال: «وما أنزلنا على قـومه جُندًا من السماء» يستـقيم الكلام، وقوله: ﴿مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: ملائكة، فإنَّ الملائكة جُند الله عـزَّ وجلَّ .. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ (سورة المدثر:٣١). وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (سـورة الصافـات:١٧٣). فـالجند: الملائكة .. لكن قال: لإهلاكـهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ملائكة لإهلاك أحد فلن تنزل ملائكة لإهلاك أحد، وقيل: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لإهلاك هؤلاء لأنهم أقل وأحقر من أن يبعث الله ملائكة من السماء تُهلكهم.

وهذا هو الأقرب .. فيكون النفي هنا خاصًا بهؤلاء القوم؛ لأن الله أنزل ملائكة في بدر وأنزل ملائكة في غزوة حُنين .. فأنزل الله تعالى الجنود .. وكذلك أيضًا في غزوة الأحزاب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ (سورة الأحزاب:٩). ولكن ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ جُنودًا لهؤلاء احتقارًا لهم، وهذا الذي مشى عليه المؤلف هو الصحيح.

وقال بعض الـعلماء: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من وحي ورسل لأن الوحي تنزل به الملائكة .. لكن ما مشى عليه المؤلف أصحُّ بدليل ما يأتي فيما بعد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩)﴾

﴿إِن﴾ قال المؤلف بمعنى «ما» وعلى هذا فهي نافية، ﴿إِن﴾ هُنا نافية، وينبغي أن نستحضر معاني «إنْ»: تأتي نافية كما هنا.

وشرطية كما لو قُلت: «إنْ قام زيدٌ قام عمرو».

ومُخففة من الثقيلة: مثل «وإن مالكٌ كانت كرام المعادن».

وتأتي زائدة كقوله:

بني غُدانة ما إنْ أنْتُمُ ذَهَبُ *** ولا صريف ولكن أنتُمُ الخَزَفُ

فتأتي على أربعة أوجه: نافية، وشرطية، ومخففة من الثقيلة، وزائدة . . وإذا أتت بعدها إلا فهي نافية . . وقد تكون نافية بدون إلا كقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ (سورة يونس:٦٨). أي: ما عندكم . . لكن القاعدة: أنه إذا أتت بعدها إلا فهي نافية . . ولا يلزم أن لا تأتي نافية إلا مع إلا . . لا ليس بلازم قد تأتي نافية بدون إلا كقوله: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾. يعني: ما عندكم، قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ﴾ قال المُفسر: «عقوبتهم» يعني: ما كانت عقوبتهم التي عاقبهم الله بها لكفرهم ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح بهم جبريل: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

يعني: ما احتاجوا إلى عناء وإلى جُند ما هي إلا صيحة . . ولم يُبين الله - سبحانه وتعالى - الصائح، والمؤلف قال: إنه جبريل، ولا ينبغي أن نجزم بهذا إلا بدليل؛ لأن الواجب علينا أن نُبهم ما أبهمه الله إلا أن يرد تعيينه بدليل صحيح، ولم يرد هذا بدليل صحيح . . وعلى هذا فنقول: «صيح بهم» ولا نجزم مَنْ هذا الصائح؟

المهم: أنها صيحة واحدة . . صيح بهم فهلكوا عن آخرهم . . ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

«إذا» هنا فجائية تدل على تعاقب ما بعدها وما قبلها أي أن ما بعدها وقع عقب ما كان قبلها مباشرة، ولهذا سُميت «فجائية» لأنها تفاجئ وتأتي فورًا. من حين أن صيح بهم خمدوا عن آخرهم .. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ فإذا هم ساكتون ميتون .. وبهذا نعرف أن هؤلاء ماتوا عن آخرهم لأن ﴿هُمْ﴾ ضمير يُفيد الجمع والشُّمول.

ومن فوائد قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

في هذه الآية دليل على أن الله أهلك هؤلاء القوم بصيحة واحدة لم تُكرر مرة أخرى .. صيحة واحدة هلكوا بها .. لكن لو قال قائل: ما نوع هذه الصيحة؟ هل قيل: اهلكوا؟

نقول: الله أعلم .. هذه الصيحة يُحتمل أنها صرخة .. يُحتمل أنهم أُمِرُوا بالهلاك .. المهم: أنها صيحة واحدة فهلكوا عن آخرهم.

ثانيًا ـ من فوائدها: بيان قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن من عارض الله أو ضاد الله مهما عظم فإن إهلاكه يسيرٌ على الله عزَّ وجلَّ .. كل شيء يكون بكلمة واحدة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (سورة القمر:٤٩-٥٠). وعند هذا الأمر الواحد ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ لا يتباطأ ولا يتأخر. لمح البصر أسرع ما يكون، فإذا أراد الله شيئًا قال له: كن فيكون كلمح البصر .. سُبحان الله!! هذا يدل على عظمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقدرته.

ومن فوائدها: أن هؤلاء القوم الذين كذبوا الرُّسل الثلاثة هلكوا جميعًا لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، وهذا يدل على أن من زعم أن هذه القرية التي أرسل إليها الثلاثة أنطاكية فإن زعمه هذا باطل، لأن رسل عيسى الذين أُرسلوا إلى أنطاكية كانوا بعد موسى ولم يهلك الله تعالى أمة على سبيل العموم بعد أن نزلت التوراة .. هكذا قال كثيرٌ من العلماء لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ﴾ (سورة القصص:٤٣). قالوا: هذه الآية تدل على أن الله لم يهلك أمة على سبيل العموم بعد نزول التوراة .. وهذه الآية كما تعلمون في سورة يس ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ تدل على أنهم هلكوا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠)﴾

هؤلاء ونحوهم ممن كذبوا الرسل فأهلكوا، وهي - أي الحسرة - شدة التألم والندم، فشدة التألم والندم يُسمى حسرة .. ونداؤها مجاز .. أي: هذا أوانك فاحضري قوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾.

الحسرة: هي شدة الندم والتألم والحُزن على ما مضى .. قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (سورة البقرة: ١٦٦-١٦٧).

وقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾، حسرة على العباد ممن؟

قيل: إنَّ القائل هم المُكذبون وأنهم تحسروا على أنفسهم، وقالوا: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ ثمَّ بينوا السَّبب كما سيأتي.

وقيل: إنَّ الحسرة من أتباع الرسل: يعني: من هذا الرجل ونحوه، يقولها يتحسر على هؤلاء العباد.

وقيل: إن التحسر من الله عزَّ وجلَّ .. ولكن ليس معناه أنه يتصف به بل المعنى أنه يبين حسرة العباد على أنفسهم .. فيقول: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ واقعة ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ واقعة عليهم .. فتكون ﴿عَلَى﴾ قريبة من معنى «مِنْ» .. يعني: أنَّ الله تعالى يُبين أنَّ هؤلاء العباد المُكذبين سوف يتحسرون على تكذيبهم .. وهذا أقرب إلى السِّياق .. هذا أقرب لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ فالكلام كلامُ الله عزَّ وجلَّ .. لكن لَمَّا كان التَّحسر ندمًا وألمًا صار الله تعالى منزهًا

عنه فوجب أن يكون المُراد «يا حسـرة واقعة عليهم» أي: ما أشد تحسـر العباد على ما فعلوا من التكذيب للرُّسل كما بينه آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾ المراد بالعباد هُنا العبودية العامة وليست الخاصة لأن العبـودية الخاصة لا تحسـر على أهلها . . وقد مرَّ علينا أن العـبودية عامـة وخاصة، فالمراد بها العبودية العامة لأنه لا يدخل فيها غير المكذبين.

ومع ذلك نقـول: العبـــودية العـامة لكنهـا عـام أريد بها الخـصوص . . من هم؟ المكذبون للرسل. قال: «ونداؤها مـجاز» يعني: ليس حقيـقة؛ لأن النداء حقيـقة إنما يوجه إلى من يعقل، أما من لا يعقل فليس نداؤه على سبـيل الحقيقة ولهذا قالوا في قول الشاعر:

ألا أيُّهـــا الليْلُ الطويـلُ ألاَ انْجلي ❊❊❊ بصُبْحٍ ومـا الإصْبـاحُ مِنْكَ بأمْـثَلِ

إن هذا يراد به التمني وليس نداء بمعنى: طلب الحضور لأن الليل لا يعقل فالنداء حقـيقة إنما يوجه لمن يعـقل . . إذا وجه لمن لا يعقل صـار له معنى آخر على سـبيل التجوز، والمعنى أنه جـعل غير العاقل كالعاقل، كـأن الحسرة شيء يأتي ويذهب . . فقيل: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ احضري.

﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ هذا بيان لسببـها - سبب الحسرة: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿مَا﴾ نافية . . و﴿مِّن﴾ زائـدة لوقوعهـا فـي سـياق النفي . . وهي: زائدة زائدة، زائدة: لفظًا تزيد في المعنى . . وهذا معنى قولنا «زائدة زائدة» وليس في القرآن حرف واحد لا يُفيد مـعنى أبدًا، كل ما في القرآن فإنه يشمل على المعاني . . ولكن قد يكون زائدًا من حيث الإعراب فقط . . ولهذا نُعرب رسول في هذه الآية أنه فاعل . . نُعربه فاعلاً ونقول: فاعل مـرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الحرف الزائد.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ وفائدتهـا: التنصيص عـلى العموم لأن رسـول نكرة في سياق النفي فـتعم، فإذا جاءت «مِنْ» صارت أنَصَّ وأدلَّ على العـموم مما لو حذفت، ولهذا قالوا: إنَّ فائدتها في مثل هذا السياق التنصيص على العموم.

وقوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ الرسول عند عـامة أهل العلم: هو بشرٌ أوحي إليـه بشرع وأمر بتبليغـه ويُطلق الرسول على الرسول الملكي، فإن الله سمَّى جبـريل رسولاً كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⁽١٩⁾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (سورة التكوير: ١٩-٢٠). إلى آخره.

وقوله: ﴿مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يعني: «إلا كانوا يستهزؤون به» ولكن قُدم المعمول وهو «به» لإفادة الحصر .. ولمناسـبة رؤوس الآيات فقدم لفائدتين ففائدة لفظية وهي مُراعاة الفواصل.

وفائدة مـعنوية وهي الحصـر كأنه قال: إذا أتاهم الرسـول فكأنهم لا يستـهزؤون بأحد سوى هذا الرسول .. ﴿إِلاَّ كَانُوا بِهِ﴾ أي: لا بغيره، وهم يستهزؤون بغيره .. لكـنْ لَمَّا كان هـؤلاء قد أمـعنـوا فـي الاستهـزاء بالرسـل صاروا كأنهم لا يسـتهزؤون إلا بالرسل.

﴿إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .. والاستهزاء: هو السخرية والهزء ..

يُستفاد من هذه الآيات من قوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يُستفاد منها فوائد: ﴿مِن جُندٍ﴾.

أولاً - أنَّ الله - عـزَّ وجلَّ قد ينزل الملائكة لإهـلاك المكذبين، ووجهـه: أن نفي إنزال الملائكـة علـى هـؤلاء القـوم يـدل علـى إمكانـه في غيرهم وإلا لما صحَّ النفي.

ومن فوائدها: أن الملائكة جنود لله عزَّ وجلَّ لقوله: ﴿مِن جُندٍ﴾.

ومن فوائدها: أن الملائكة محلهم السموات لقوله: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ . . وهذا هو الأصل لكنهم قد ينزلون إلى الأرض كما في قوله تعالى في ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ (سورة القدر: ٤). وكالملائكة الذين يحفظون بني آدم، والذين يتبعون أعمالهم، وما أشبه ذلك، والذين يكتبون المُتقدمين إلى الجمعة على أبواب المساجد.

ومن فوائدها: بيان حقارة هؤلاء القوم المُكذبين للرسل الثلاثة لقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

ومن فوائدها: بيان عظمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وذلك بذكره بصيغة الجمع: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لا يقال: إن هذا يُفيد التعدد كما استدلت بذلك النصارى وقالوا إن الآلهة متعددة لأن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات . . فيقال لهم: إنَّ هذا التعدد للتعظيم وكيف تستدلون بهذه الآيات المُتشابهة وتعمون عن مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (سورة الصافات: ٤). ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (سورة النساء: ١٧١). ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ (سورة المائدة: ٧٣).

ولكن النصارى كغيرهم من أهل الزيغ يتبعون ما تشابه من القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . . ومن رأى اتباع الشبهات من النصارى ومن غيرهم في نُصوص الكتاب والسنة تبين له العجب العُجاب . . وأنه يجب علينا وجوبًا مؤكدًا طلب العلم لدفع شُبهات هؤلاء، لأن هؤلاء كما تعلمون انتشروا بيننا الآن وكثروا في هذه البلاد التي قال عنها رسول الله ﷺ: **«أخرِجُوا اليهود والنصارى منْ جزيرة العرب»**، هؤلاء يبثون السموم في شبابنا وكهولنا أيضًا . . بل إنهم الآن ـ كما سمعنا يرسلون النشرات ـ نشرات تدعو إلى النصرانية ويُرسلون أشرطة تدعو إلى النصرانية لأنهم بدؤوا يعرفون المحلات ويعرفون العناوين ثم يُرسلون إليها، وعندنا من هذا عدد يُؤتى إلينا بنشرات وأشرطة مسجلة تدعو إلى النصرانية . . هذه إذا وقعت في أيدي أُناس لا يعرفون جُهلاء . . على الأقل تركن إليها نفوسهم، وإن كنت أستبعد جدًا أن يتنصر أحد من

المسلمين؛ لأن دين النصارى كله ضلال . . الذي هم عليه الآن . . لكن لاشك أنه يوقع الشبهة والخلود والاطمئنان إلى هؤلاء، لذلك أنا أرى أن اليوم يجب على شباب المسلمين أن يتسلحوا بسلاح العلم . . العلم المبني على الأثر والنظر، لأن أولئك القوم يُشبهون بما يدعون أنه عقل، ولا يكفي الآن أن نتعلم الأثر فقط، بل لابد من أثر ونظر . . الأثر إنما يكفي للمؤمن الذي قال الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٦). لكن المكذب لا يكفيه الأثر لأنه لا يؤمن أصلاً بالأثر يحتاج إلى نظر وعقل تدحض به حُجته.

المهم: أن مثل هذه الآية الكريمة ﴿وَمَا أَنزَلْنَا﴾ ، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ يُشبه بها النَّصارى على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ متعدد أكثر من واحد . . وقد ذكرنا أنهم عموا عن الآيات الواضحة الصريحة بأن الله إله واحد، وأن الله كفر من زعم أن الله متعدد: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾ (سورة المائدة: ٧٣).



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠)﴾

في هذا دليل على شدة تحسُّر العباد المكذبين للرسل لقوله: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ ولهذا جاء النداء على سبيل التنكير، ليدل على أنها حسرة عظيمة؛ لأن التنكير يُفيد أحيانًا التعظيم والشدة.

ومن فوائدها: إثبات عدل الله - عزَّ جلَّ - وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه لقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فلم يُعاقب الله تعالى أحدًا إلا بذنب . . بل إنه - عزَّ وجلَّ - قد يعفو عن الذنب إذا كان دون الشرك.

ومن فوائدها: إثبات الرسالة لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ وأن الرسالة عامة في كل أمة لأنه قال: ﴿عَلَى الْعِبَادِ﴾، ثم قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾. فكل العباد قد قامت عليهم الحجة ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٤).

ومن فوائدها: أن الاستهزاء بالرسل كفر موجب للعقوبة؛ لأن السياق في قوم كذبوا الرسل فأهلكوا جميعًا ثم قيل: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فدل هذا على أن الاستهزاء بالأنبياء أو بالرسل كفر، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ (سورة التوبة: ٦٥-٦٦).

والاستهزاء بالكتب كفر لقوله: ﴿وَآيَاتِهِ﴾، والاستهزاء بشرع من الشريعة ولو بشعيرة واحدة كفر، لأن الاستهزاء بالشعيرة الواحدة استهزاء بكل الشريعة كما أن الكفر بالشعيرة الواحدة كفر بجميع الشريعة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ (سورة البقرة: ٨٥). قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً

(١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (سورة النساء: ١٥٠-١٥١). فمن آمن بالرسالة ولكن كفر بشعيرة واحدة منها فقد كفر كفرًا تامًّا بالجميع، من استهزأ بشيء من شرائع الرسل ولو بشيء ليس بواجب فقد كفر حتَّى بالشيء المندوب إذا استهزأ به فقد كفر لأنه لا يمكن الإيمان ببعض دون بعض . . بل من كره ما أنزل الله فقد كفر . . والدليل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمد: ٩). ولا تحبط الأعمال إلا بالكفر لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢١٧).

فالمسألة مسألة عظيمة ليست بالهينة، ولهذا يجب على المرء الرضا بكل ما شرع الله . . فيرضى مثلاً بوجوب الصلاة وتحريم الخمر ووجوب الزكاة وتحريم الربا، وعلى هذا فقس . . يعني: كل شيء يجب أن ترضى به وتقبله ثم إن عملت به أُثبت، وإن لم تعمل به عوقبت، إذا كان واجبًا أو استحققت العذاب، إلا إذا كان هذا الواجب تركه كفر فإنك إذا تركته كفرت . . فمثلاً يجب على الإنسان أن يؤمن بتحريم الربا، فإن أنكر تحريمه كفر، أو لم يقبل تحريمه، إذا آمن بتحريمه وقبله ورضي بالتحريم ولكن فعل الربا . . ما يكفر . . يكون حكمه حكم العصاة.

فائدة من سؤال وجواب . . الاستهزاء بالصالحين إما أن يكون بأشخاصهم أو بأعمالهم . . وإن كان بأعمالهم فهو استهزاء بالشريعة، وإن كان بأشخاصهم فليس بكفر لكنه على خطر . . إلا الرسول ﷺ فإن من استهزأ ولو بشخصه فهو كافر. قال الله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

من فوائد هذه الآية: بيانُ قُدرة الله عزَّ وجلَّ وأنَّه قادرٌ على إهلاك الخلق بصيحة واحدة فقد بدُون أي فعل . . صوت مُزعج يُقطِّعُ القُلُوب . . لقوله: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾.

ومنها: بيان ذُل كل شيء لعظمته بحيث لا يُكرر أو لا يعيد ما أراده لقوله: ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ ولهذا أكدها بواحدة لبيان أنهم لم يحتاجوا إلى إعادة الصيحة مرة ثانية .. وهكذا جميعُ ما أمـر الله تعالى به كونًا فإنه لا يحتاج إلى إعـادة لقوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (سورة القمر: ٥٠).

ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الصيـحة أهلكتهم جـميعًـا لم ينج منهم أحد لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ وعلى هذا يترتب فائـدة أخرى وهي أن قبض ملك الموت لأرواح بني آدم أكبر مما نتصور فإنه قد يقول قائل: كيف يقبض الله هذه الأرواح وهي تموت في آن واحد؟

نقول: إنَّ «كيْف» في الأمور الغيبيـة لا ترد لأن هذه الأمور لا ندركها بحواسنا، فكل أمر غيبي لا تقل فـيه «كيف»، ولهذا لَّما قيل للإمام مالك: كـيف استوى؟ قال: «الكيْف غيْر معـقول»، ما يُمكن أن نُضيفه للعقول حـتَّى نسأل عنه. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ إلى آخره.

في هذا دليل على عظم حسـرة المُكذبين للرسل لقوله: ﴿يَا حَسْرَةً﴾ فإن التنكير يُفيد التعظيم.

ومن فـوائدها: أن هؤلاء المكذبين للرسل سـيجـدون أعـمالهم حـسرات عليـهم لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

ومن فـوائدها: أنه مـا من نبي بُعـث أو مـا من رسـول أُرسل إلا وجـد له من يستـهزئُ به ويجدُ من يُؤمن بـه أيضًا لكن منهم من لا يجدُ من يؤمـن به لقول النبي ﷺ - في حديث السبعين ألفًا -: **«والنَّبي وليْس معه أحد»**.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الاستهزاء بالرُّسل كفر لقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وكذلك الاستهزاء بشرائع الرسل كُفر، وكذلك الاستهزاء بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ كفر.
واختلف العلماء فيمن سبَّ الله أو رسوله هل تُقبل توبته؟

على قولين: فمنهم من قال: إنها لا تُقبل توبته بل يُقتل قتل المرتد فلا يُغسل ولا يُكفن ولا يُصلى عليه ولا يُدفن مع المسلمين، وفي الآخـرة أمرهُ إلى الله: إن كان الله تعالى علم منه صدق التوبة فإنه لا يُعذبه، وإن كان الله علِمَ منه كذبها فإنه يُعذب في الآخرة . . وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

والقول الثاني ـ صحة توبته: أي صحـة توبة من استهزأ بالله ورسوله وسبَّ الله ورسوله، ولكن بالنسبة لمن استهزأ بالرسول ﷺ يُقتل، وأما من سبَّ الله أو استهزأ به فإنه لا يُقتل . . وهذا هو الصحيح: أنَّ الإنسان إذا سبَّ الله أو رسوله أو استهزأ بهما فإنه يكفر، فإن تاب قُبلت توبته، لكنه يُقتل إذا كان السَّبُّ أو الاستهزاء بالرسول ﷺ ولا يُقتل إذا كان السَّبُّ أو الاستهزاء بالله.

والفرق بينهـما: أن الاستهزاء بالرسـول وسبه حقٌّ لآدمي، وأما الاسـتهزاء بالله وسبه فهو حقٌّ لله، وقد أخبر الله عزَّ وَجلَّ أنه يقبل التوبة من جميع الذنوب وإذا قبل الله توبته ارتفع عنه مُقتضاها وهو القـتل . . أما بالنسبة للرسول ﷺ فإننا لا نعلم أن الرسول ﷺ عفا عن حقه، فوجب علينا أن نأخذ به.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١)﴾

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ﴾ أي: أهل مكة القائلون للنبي ﷺ: لست مُرسلاً، والاستفهام للتقرير أي: علموا .. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾، الرؤية هنا فسرها المؤلف برؤية العلم .. وذلك لأنهم لم يُشاهدوا هذا بأعينهم وإنما علموه بما بلغهم من الخبر.

وقوله: «أي أهل مكة»، الصحيح أن هذا ليس خاصًا بأهل مكة بل هو عام لكل من كذب الرسول ﷺ، وكأن المؤلف جعله خاصًا بأهل مكة لأن الآية مكية، ولكن يقال: حتى وإن كانت الآية مكية فإنَّ المكذبين للرسول ﷺ من أهل مكة وغيرهم، فأهل الطائف كذبوا الرسول ﷺ وكذلك غيرهم كثير؛ لأن الناس لم يدخلوا في دين الله أفواجًا إلا بعد فتح مكة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ .. يقول: ﴿كَمْ﴾ خبرية بمعنى كثيرًا معمولة لما بعدها معلقة لما قبلها عن العمل، ﴿يَرَوْا﴾ بمعنى العلم .. وإذا كانت الرؤية بمعنى العلم فإنها تنصب مفعولين، ﴿كَمْ﴾ خبرية علقتها عن العمل، يعني أنها أبطلت عملها لفظًا؛ لأن التعليق يُبطل العمل لفظًا فقط لا محلاً، والإلغاء يُبطله لفظًا ومحلاً، والأفعال القلبية إما أن تعمل في اللفظ والمحل، وإما أن تعمل في المحل دون اللفظ، وإما أن لا تعمل لا في اللفظ ولا في المحل .. الثالث يُسمى إلغاء، والثاني يُسمى تعليقًا، والأول يُسمى إعمالاً. فـ ﴿كَمْ﴾ هُنا علقت ﴿يَرَوْا﴾ عن العمل في اللفظ، أما المحل فالجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي ﴿يَرَوْا﴾ .. ثم هي لها إعراب أيضًا باعتبار ما بعدها .. فباعتبار ما بعدها يقول: إنها مفعول لما بعدها وعليه فتقدر كما قال المؤلف: أي: كثيرًا .. وقوله: «أو المعنى: أنا أهلكنا قبلهم كثيرًا من القرون» الأمم.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ ، ﴿مِّنَ﴾ هذه لبيان ﴿كَمْ﴾ .. تبين الإبهام الواقع في ﴿كَمْ﴾.. ﴿الْقُرُونِ﴾ جمع قرن وهم الأمة المشتركة في عصر من العصور تُسمى قرنًا، والعصر مئة سنة وعلى هذا فالقرن يكون مئة سنة .. ولكن قد يكون دون ذلك، قد تكون أمة تبقى أقل من القرن، يُهلكها الله عزَّ وجلَّ قبل أن يتم لها هذا العدد من السنين .. لكن الضابط أن نقول: القرن هم الأمة التي اشتركت في عصر.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ﴾ أي: المهلكين، ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أي: المكذبين، ﴿لا يَرْجِعُونَ﴾ .. والمكيِّين هم على كلام المؤلف مادام الخطاب لأهل مكة أو الكلام عن أهل مكة فالمكذبون هم المكيُّون .. فهؤلاء الأمم التي أهلكت هل رجعت إلى الأمم التي بعدها؟ لا .. بل هي ذهبت وزالت وكأنها لم توجد ولم يبق إلا عملها فقط.

قال: ﴿لا يَرْجِعُونَ﴾ أفلا يعتبرون بهم و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ إلى آخره بدل مما قبله برعاية المعنى المذكور، «الذي قبله». قوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ كأنه قال: ألم يروا أنهم لا يرجعون، فهي بدل مما قبلها من حيث المعنى .. وقولي من حيث المعنى يعني: لا .. من حيث الإعراب .. لأنها جملة مستقلة وليس تابعة لها في الإعراب وتابعةٌ لها في المعنى.

الخلاصة: أن الله بيَّن في هذه الآية بيانًا يُقرر به هؤلاء المكذبين بأنه أهلك كثيرًا من الأمم السابقة وأن هؤلاء المهلكين لا يرجعون إلى هولاء المكذبين؛ لأنهم انتهوا من الدنيا ولم يبق لهم رجوع إليها حتى يستعتبوا، فالواجب على هؤلاء المكذبين أن يعتبروا بهم.



قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾

قال: «﴿وَإِن﴾ نافية أو مخففة» بقوله: «نافـية» واضح بمعنى «ما» . . «مخففة» بمعنى «إنَّ» لكنها خُفـفت . . و«أو» هنا ليست للتخفـيف، بل هي للتنويع لأنها على حسب القراءة الآتية في «لَمَّا». ﴿كُلٌّ﴾ أي: كل الخلائق: مُبتـدأ على التقديرين يعني على أنها نافية وعلى أنها مـخففة . . لأن المخففة كما نعلم تعـمل في الجملة واسمها ضميـر الشأن محذوف، فكلٌ مـبتدأ على كلا الوجهـين، أي: على أن «إنْ» نافية أو مخففة. ﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى «إلا»، أو بالتخفيف فاللام فارقة و«ما» مزيدة.

﴿لَمَّا﴾ بالتشـديد بمعنى «إلا» . . وعلى هذا تكون «إنْ» نافية . . والتقـدير: وما كل إلا جميع لدينا محضرون.

يقول: «وبالتـخفيف ﴿وَإِن كُلٌّ لَمَا جَمِيعٌ﴾ فاللام فـارقة، فارقة بين «إن» المخـففة و«ما» مُزيـدة، والتقدير على هذا: وإن كل لجمـيع لدينا محضرون . . «لجـميع» لأن «ما» زائدة، فإذا أردنا أن نُعرب هذه الآية نقول: «إن» نافية على قراءة التشديد، و«لَمَّا» بمعنى «إلا».

الإعراب الثاني - «إنْ» مخففـة على قراءة التخفيف، واللام فارقـة وهي للتوكيد كما هو معروف، و«ما» زائدة والتقدير على هذا: وإن كل لجميع لدينا محضرون.

إذًا . . تكون «أوْ» في كلام المؤلف في قوله: «نافية أو مـخففة» للتنويع . . فهي على قراءة التشديد نافية . . وعلى قراءة التخفيف مخففة. قال: ﴿جَمِيعٌ﴾ خبرُ المُبتدأ . . أي: مجموعون، والمبتدأ ﴿كُلٌّ﴾ . . «كُلٌّ، جميعٌ». فإن قال قائل: كيف يكون خبرًا لكل وكل تدل على الشمول؟!

فـالجـواب: أن كلا تـدل على الشمـول لكن لا يلزم من دلالتهـا على الشـمول الاجتماع . . فنقول: «أكرم كل القوم» وقد يكون القوم مشتتين كل واحد في جانب.

لكن ﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الاجتماع . . ففيها زيادة على الشمول وهي جمع الناس . . وكل الناس يُحضرون إلى الله عزَّ وجلَّ . . ولكن هل حضورهم متفرق أو مجتمع؟

الجواب: حضورهم مجتمع . . دليله في الآية ﴿جَمِيعٌ﴾.

إذًا . . فلا يقول قائل الآن: إنَّ المبتدأ هو نفس الخبر لأن كلمة ﴿كُلٌّ﴾ تدل على الشمول و﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشُّمول!! نقول: لا . . لأن الفرق بينهما أن ﴿كُلٌّ﴾ تدل على الشمول وإن كانوا متفرقين . . و﴿جَمِيعٌ﴾ تدل على الشمول مع الاجتماع . . أي مجموعون لدينا عندنا في الموقف بعد بعثهم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ للحساب خبرٌ ثان لكل . . فصار كل الآن لها خبران: جميع ومحضرون . . يقول الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية: ما كل أحدٍ من هؤلاء إلا محضر لدينا يوم القيامة والناس جميع.

في هذه الآية الكريمة والتي قبلها:

أولاً ـ تقرير المكذبين بما يقرون به من إهلاك من سبقهم . . لقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾.

ومن فوائد الآية: أنه يجب على الإنسان أن ينظر ويعتبر بحيث إذا نظر في عواقب الناس اتخذ من ذلك عبرة لأن الاستفهام هنا مع كونه للتقرير مُفيد للتوبيخ لأن الواجب على من نظر في عاقبة المكذبين أن يرتدع عن الكذب.

ومن فوائد الآية أيضًا: أنه لا بعث ولا رجوع قبل يوم القيامة لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ فلا أحد يُبعث قبل يوم القيامة . . اللهم إلا على سبيل الآية كما ثبت في القرآن أن عيسى بن مريم عليه السلام يُحيي الموتى بإذن الله . . وكما في قصة الرَّجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، وكما في قصة بني إسرائيل الذين أخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله بعد موتهم، وكما في قصة الرجل الشاب الذي يقتله

الدَّجال ثم يُخاطبه فيقوم حيًا. وإلا فإن الأصل أن من مات لا يرجع أبدًا لقوله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ﴾.

ومن فوائد الآية الثانية: إثبات البعث لقوله: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

ومن فوائدها: كمال قدرة الله عزَّ وجلَّ حيث يجمع هذه الخلائق جميعًا في مكان واحد لقوله: ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الاستعداد لهذا اليوم لأن الله تعالى لم يُخبرنا به لمجرد: الاطلاع .. ولكنه أخبرنا به من أجل أن نستعد له حتى نكون على أهبةٍ لما سنُحاسبُ عليه.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ على البعث خبر مقدم، ﴿الأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ بالتخفيف والتشديد، ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالماء مُبتدأ.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ الآية في اللغة: العلامة والدليل القاطع على الشيء، وقول المؤلف: «خبر مُقدم» أين المبتدأ إذن؟ المبتدأ: ﴿الأَرْضُ﴾ .. هذا المبتدأ. وقوله: ﴿الْمَيْتَةُ﴾ يقول: «بالتخفيف والتشديد» يعني أن فيها قراءتين: الميِّتة والميْتة .. وهذا دليل على أن الميْتة كما يطلق على الميِّت الذي قد فارقت روحه جسده يُطلق أيضًا على الذي سيموت .. خلافًا لمن قال: إنَّ الميِّت لمن سيموت، والميْت لمن مات بالفعل.

فإن الأرض الميْتة قد ماتت .. ومع ذلك ففيه هُنا قراءتان: الميِّتة والميْتة .. ﴿الأَرْضُ﴾ مبتدأ، ﴿الْمَيْتَةُ﴾ صفة، ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ صفة أيضًا، ولهذا قال المؤلف: «مُبْتدأ» جعله بعد قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ ليبين أن الميْتة وأحييناها كلاهما صفة الأرض، ولكن الصحيح أن أحْيَيْناها جملة استئنافية؛ لبيان وجه الآية في هذه الأرض .. لأنَّ محط الفائدة هو ليس موت الأرض، ولكن أن الله تعالى أحياها بعد موتها.

أما على رأي المؤلف فإذا جعل أحييْناها صفة فإنه يُشكل علينا أن هذا مُخالفٌ للقاعدة المعروفة: أن الجُمل بعد المعارف أحوال .. والجواب على ذلك أن يُقال: إن الأرض هُنا المُراد بها الجنس فهي بمعنى النكرة ونظيرها قول الشاعر:

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي ❊❊❊ فَمَضَيْتُ ثَمَّةَ قُلْتُ لا يَعْنِينِي

قال: «على اللئيم يَسُبُّني» التقدير: على لئيم يسبُّني .. «فمضيت ثمة قلت لا يعنيني»، ومنه أيضًا على قول بعض المعربين: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (سورة الجمعة: ٥). على أنَّ جملة ﴿يَحْمِلُ﴾ صفة لحمار، لأن المراد به الجنس .. فهو بمعنى: كمثل حمارٍ يحمل أسفارًا.

أما جملة ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ استئنافية ببيان وجه الآية في هذه الأرض. ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ ووجه كونها آية أن هذه الأرض الميْتة أشجارها يابسة وليس فيها ثمر فيُنزل الله عليها المطر فتحيا بعد الموت .. فالذي أحياها وقدر على إحيائها قادرٌ على إحياء الموتى كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة فصلت: ٣٩).

وعليه فنقول: وجه الآية: أن نقيس الشاهد بالغائب .. فالشاهد المنظور هو هذه الأرض ميِّتة أشجارها يابسة ينزل عليها المطر فتخضر .. فالذي أحياها قادر على أن يحيي الموتى.

قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالتخفيف والتشديد، ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالماء مُبتدأ .. أسلوب المؤلف هنا أو كلامه فيه نظرٌ ظاهر؛ لأن الذي يقرأ «مُبتدأ» بعد قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ يظن أن المبتدأ هي كلمة: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ والمبتدأ هي كلمة: ﴿الْأَرْضُ﴾ لكن أخذ هذا ليبين لك أن ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾. تابع للأرض، فكأنه يقول: مبتدأ لأنه صفة المُبتدأ .. يقول مُبتدأ؛ لأنه تابعٌ للمبتدأ فأخر إعراب المتبوع عن إعراب التابع .. ولكن الصواب في العبارة والأوضح والأبلغ أن يقول: ﴿الْأَرْضُ﴾ مُبتدأ .. و ﴿الْمَيْتَةُ﴾ و﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ صفة.

قال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾، معطوف على ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾. يعني: الأرض الميتة أحييناها بالزرع فقام الزَّرع أخضر يهتز، لكن مُجرد كونه زرعًا لا يُفيد الآدمي .. وإنما يفيد البهائم، ويُفيد الآدمي عند الضرورة .. لكن الفائدة العُظمى منه: ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾. ﴿مِنْهَا﴾ من الأرض .. ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ كالحنطة ﴿فَمِنْهُ﴾ أي: من هذا الحب .. ﴿يَأْكُلُونَ﴾. وفائدة قوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ دليل على سهولة تناول هذا الحب وعظم فائدته وأنه حبٌّ نافع سهل التناول؛ لأنه لو كان صعبًا لكانوا لا يستطيعون الأكل منه إلا بمشقة عظيمة، ولهذا قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ فقدم المعمول لإفادة الحصر لكنه حصر الإضافي لسهولته كأنه لا أكل لهم إلا من هذا السهل المُتيسر.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾

من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله على إحياء الأرض بعد موتها . . لقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾.

ومنها: الاستدلال بالشاهد على الغائب، فإنَّ إحياء الأرض بعد الموت مُشاهد.

ويستدل بها على إحياء الله الموتى عند بعثهم يوم القيامة . . وقد أشار الله تعالى إلى هذا الدليل بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة فصلت: ٣٩). وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (سورة ق: ٩-١١). والآيات في هذا كثيرة.

ومن فوائد الآية الكريمة: جواز وصف الجماد بالموت وأنه ليس خاصًا بذي الروح المُتحرِّك لقوله: ﴿الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ فوصفها بالموت ووصفها بالحياة.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان عظمة الله ـ سُبحانه وتعالى ـ من قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ بضمير العظمة.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: بيانُ نعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما أخرج للناس من الأرض من الحبوب والثمار . . الحبوب قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ والثمار قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ (سورة يس: ٣٤-٣٥).

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حاجة العبْد إلى ربه لقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، وكأن هذا الحصر فيه إشارة إلى تحدي الإنسان، لأنك لا يُمكن أن تأكل إلا من هذا

الذي أخرجه الله لك، وهذا من فوائد الحصر، كأنه يقول: إن كنت قادرًا فأخرج لنفسك ما تأكله، إنك لن تأكل إلا مما أخرجناه لك.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذه الأشجار العظيمة الكثيرة المُظللة لقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فما أعظم نعم الله على العبد من هذه النخيل والأعناب.

ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان فضل النخيل والأعناب؛ لأنها ثمرٌ يُؤكل بلا تعب وثمرٌ يقتات رطبًا ويابسًا.

ومن فوائد الآيات الكريمة أيضًا: بيانُ قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بتفجير الأرض عُيونًا . . هذه الأرض اليابسة، يابسة جامدة يخرج منها هذا الرطب السائل وهو الماء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ (سورة البقرة: ٧٤). وهذا من عظيم قُدرة الله. كان موسى عليه الصلاة والسلام يضرب الحجر اليابس ـ إما حجرًا مُعينًا كما قيل يحمله معه، وإما أي حجر كان يضربه ـ فيتفجَّر اثنتا عشرة عينًا على قدر قبائل بني إسرائيل، وهذا من تمام قُدرة الله سبحانه وتعالى.

ومنها: بيان احتياج النَّخيل والأعناب إلى الماء وأنَّ ثمرهُ يكثر بحسب الماء لأنه قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾. فدل هذا على أن الماء له أثر في الثمار في كثرة الثمار وطيبها . . وهذا هو الواقع.

ومنها: الردُّ على الجبرية بإثبات العلة والحكمة في قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ . . والنصوص الدالة على إثبات حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ كثيرة جدًا منها ما صرَّح الله تعالى به . . مثل قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (سورة القمر: ٥). ومنها ما صرح الله به على وجه السَّلب والنفي ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾ (سورة الأنبياء: ١٦). ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (سورة ص: ٢٧).

ولا أدل على الصفة من إثباتها ونفي ضدها فإنَّ إثباتها يدل على ثُبُوتها ونفي ضدها يدل على كمالها، وأنَّها غير مشوبة بهذا النقص الذي يحصل بفقدها أو بفقد كمالها ولاشك أننا إذا نفينا الحكمة عن فعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أو عن شرع الله، لزم من ذلك النقص العظيم وأن يكون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يفعل الشيء سفهًا وعبثًا.

ومن فوائد الآيات الكريمة: بيان ما أنعم الله به على العباد من هذا الثمر الذي يُؤكل، أرأيتم لو أن هذا الثمر صار مُرًا هل يُنتفع به؟ لا . . ولهذا قال الله تعالى في الماء: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ**﴾ (سورة الواقعة:٦٨-٧٠). فلم تستطيعوا شربه . . هذا الثمر جعله الله تعالى شهيًا للنفوس تأكل منه وتتغذى به الأبدان . . ولهذا قال: ﴿**لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ**﴾. لو شاء الله عزَّ وجلَّ لجعل هذا الثمر فاسدًا . . يعني: قد يكون حلوًا لذيذًا شهيًا لكن يجعل الله فيه آفة تُفسده، وهذا موجودة بكثرة، ولكن من نعمة الله أنه يبقى ويُؤكل من ثمره.

ومن فوائد الآيات الكريمة: أننا لا نملك لأنفسنا أن نُوجد هذا الثمر وأنَّ ذلك مُجرد فضل من الله، لقوله: ﴿**وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ**﴾ فإن هذا ليس من صنعنا، لو اجتمع الناس كلهم على أن يُخرجوا رُطبة واحدة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . . أو حبَّة عنب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . . ومع هذا يخلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه العناقيد التي لا تُحصى كثرة، وهذه الأعذاق في النَّخل التي لا تُحصى كثرة ونحن لم نعمل ذلك بأيدينا . . غاية ما هُنالك أننا نُوجه هذه الثمار حسب ما علَّمنا الله عزَّ وجلَّ فنأخذ مثلاً من طلع فحل ما نجعله في طلع نخلة حتَّى يطيب الثمر . . أما أننا نحنُ الذين خلقناه وأوجدناه فلا . . هذا على جعل «ما» نافية.

وفائدة أخرى: وهي بيان نعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما علمنا مما نصنعه من هذه الثمار على وجه يُخالف ما خُلقت عليه حتى يتكون من هذا طيب على طيب لقوله: ﴿**وَمَا**

عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ علمنا كيف نصنع هذه الثمار على وجهٍ نتلذذ بها وننتفع بهـا أكثر مما هي عليه في الخلقة . . وهذا على جعل «ما» موصولة.

ومن فوائد الآيات الكريمة: وجوب شكر نعمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأن الله وبخ من لا يشكر . . والشكر مع كونه طاعة لله يُثاب الإنسان عليـه، ويعرف به قدر نعمة الله عليه فهو سببٌ للمزيد من هذه النعم لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سورة إبراهيم:٧). فإن قال قائل: نحن نرى كثيراً من الناس قد أغدق الله عليهم النعم مع كفرهم بها، فبماذا يُجيب عن هذه الآية؟

الجواب على هذا أن نقول: إن الله تعالى قد عاقبهم عقوبة عظيمة؛ لأن العقوبة لا تنحصر في فقدان النعمة بل العقوبة تكون بفقدان النعمة وتكون بقسوة القلب ومرض القلب . . وإن كان أكثر النـاس يظنون أن العقوبات إنما هي بزوال النعم، والواقع أن عقوبات القلوب بالمرض والقسوة والإعراض عن الله وعن ذكره هذه أكبـر عقوبة . . ثمَّ هؤلاء المُنعمون بأبدانهم لا تظنون أنهم مُنعـمون بقلوبهم أبداً . . ففي قلوبهم من الضيق والحـرج وعدم الصَّبر على القـضاء والقـدر ما يجـعلهم دائمًا في نـار . . ولا تجد أطيب حياة من حياة المؤمن وإن كان أفقر الناس . . ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل:٩٧). هذا الجواب.

ما هو الجـواب الآن؟ أن نقول: إن هؤلاء قـد عُوقـبوا عقـوبة أعظم من إتلاف الأموال والثمار وغيرها وهو قسـوة القلب ومرضه وإعراضه، فإن هذا يوجب للإنسان ضيق الصدر والتعب من الحياة؛ لأنه لا يرضى بالله ربًا ولا بشرعه دينًا.

ثانيًا ـ أن نقول: هذه النعم عُجلـت لهم عقوبة لهم واستدراجًـا، ولهذا لَمَّا جاء عمر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ وهو على سرير من اللِّـيف يعني: مخيط بليف وإذا هو قد أثر في جنبه بكى . . وقال له: ما يُبكيك؟ قال: يا رسول الله، فارس والروم ينعمون بما

نُعمـوا به من الدنيـا وأنت على هذه الحال فـقال: «**يا عُمـر، إنَّ هؤلاء قـوم عـجلت لهم طيِّباتهم في حياتهم الدُّنيا**».

إذًا . . نقول: هؤلاء يُعاقبون بهـذه النعم التي تدر عليهم لأنه استدراج، ولأنهم إذا ماتوا وصـاروا في العذاب صار هـذا أشد عليهم؛ لأنهم فـارقوا دنيا تـعلقت بها قُلُوبهم ونعموا بها . . ثم أعقبها هذا العذاب والعياذ بالله . . فصاروا أشدَّ حسرة.

ويذكر عن ابن حجر العسقلاني رحمـه الله وهو قاضي القضاة في مصر: أنه مرَّ ذات يوم بيـهودي زيَّات يبـيعُ الزَّيت متـعب من الزَّيت وثيابه وسِـخَة وهو يـهودي، وقاضي القضاة في مـصر يمشي على عربة تجرُّهَا الخُيول والناس حـوله يمينًا وشمالاً، فأوقف هذا اليـهودي الموكب وقال له: يا قـاضي القُضاة، كـيف تكون أنت في هذه الحال وأنا في هذه الحال ورسولكم يقول: «**إنَّ الدُّنيا سجْنُ المؤمن وجنَّة الكافر**»؟ قال له: نعم . . ما فيه أنا من النَّعيم في الدُّنيا هو سجن بالنِّسبة لنعيم المؤمن في الآخرة، وما أنت فيـه من التَّعب والبـلاء وهو بالنِّسبـة لعذاب الآخـرة جنَّة . . أنت الآن في جنَّة لأنَّك ستنتـقلُ إلى عذاب . . عذاب مـا تتصوَّره . . فلمَّـا قال ذلك قال اليـهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله . . فأسلم.

فالُمهم أن نقول: إن هؤلاء الُمنعمين نعيمهم في الحـقيقة شقاء وعذاب وإن تُنعمت أجسـامهم . . لكن أكثر الناس فـي غفلة عن هذا . . ومع الأسف أن هذا الداء دبَّ إلى المسلمين . . فصـار أكثر المسلمين اليوم لا ينشدون إلا هذا النـعيم فقط . . أعني نعيم الدنيا . . وفي غفلة عن نعيم الآخرة . . ولهذا تجدهم يتحدَّثون دائمًا عن الترف واللهو وما أشبه ذلك . . كأنهم ما خُلقوا إلا لهذا . . وهذا من أكبر ما يصد الإنسان عن دينه أن يكون قلبُهُ مُعلقًا بالدنيا ولا ينظر إلا إلى التنعم بها.

ونحن لا ننكر أن ينال الإنسان من الدنيا ما يستفيد به في الآخرة . . بل إنَّ الدنيا إذا جُعلت وسيلة للآخرة صارت من الآخرة في الحقيقة . . لكننا نُنكر أن تكون الدنيا

أكبر هم الإنسـان كأنما خُلق لها فقط . . وهذا من نقص دينه ونـقص عقله أيضًا . . كيف تجعل نفسك وحياتك الثمينة كيف تجعـلها مُهتمة غاية الاهتمام بأمر ليس بمخلد . . قال الله تعـالى مُنكرًا على قوم هُود على لسـان هود ـ عليه الصـلاة والسلام ـ: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (سورة الشعراء:١٢٩). أنت لست بخالد كيف تجعل هذا الممر الذي أنت تعـيش فيـه تجعله أكبـر همِّك مع أنك لاتدري متى تُفـارقه، كل من هؤلاء المُترفين لا يدري متى يموت . . لكن يدري أنه سيبقى في الآخرة إن كان مؤمنًا بهـا . . ومع هذا يعـمل للدنيـا التي لم يُخلق لهـا ويدع الآخرة التي قـد خلق لهـا ﴿سبْحَانَ الَّذي خلقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ إلى آخره. وفي الآية الكريمة نزه الله تعالى نفسه عن كل نقص وعيب في قوله: ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

ومن فوائدها: التنبيه على وحدانيـته ـ عزَّ وجلَّ ـ ومُخالفته لـلمخلوقات لقوله: ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فلم يقل: «سبحان الله» بل قال: ﴿الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممَّا تُنْبتُ الأَرْضُ﴾ . . والجمع بين ما يثبت للعباد وما ينزه الله عنه قد ورد في غير موضع من القـرآن . . منها قـوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن:٢٦-٢٧). فلما ذكر حـال الخلائـق ذكـر حال الخالق بأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ يـبقى مع فناء غـيره . . كذلك هُنا: المخـلوق كله مُزدوج لابُد فـيه من زوجين: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (سورة الذاريات:٤٩). أما الرب ـ عـزَّ وجلَّ ـ فإنه واحد ولهذا قال: ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّه ما من شيء مـخلوق إلا وفيه زوجـان . . لقوله: ﴿وَممَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا لفظ من أعمِّ ما يكون من الكلمات وقوله: ﴿ممَّا تُنْبتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيه أيضًا فوائد:

فمن فوائد الآية أيضًا: أنَّ بني آدم على أصناف مُتنوعة كما كـان ذلك أيضًا فيما تُنبته الأرض بل وفي الأرض نفسها . . قال الله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾

(سورة الرعد: ٤). فإثبات التجاور لها يقتضي أن كل واحد منها يُخالف الآخر، لأنَّ كل جار غيرُ جاره .. وكذلك هُنا ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ يدل على أن في الأرض أصنافًا مُنوَّعة من النباتات.

كذلك ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما خلق الله - عزَّ وجلَّ - فينا أصناف: ذكر وأنثى، أسود وأبيض، طويل وقصير، شقي وسعيد، ذكي وبليد، عاقل وسفيه .. وهكذا ليعتبر الإنسان قُدرة الله - عزَّ وجلَّ - على خلق هذه الأشياء المُتضادَّة.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الجهل للإنسان وأنه لا يُحيط بكل شيء لقوله: ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ وهذه إذا أضفتها إلى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥). تبين لك مدى جهل الإنسان في الأمور.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)﴾

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ هذا غير الحب لأن الخارج من الأرض يكون حبًا ويكون ثمرًا . . الحب من الزروع، والثمر من الأشجار ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ ، ﴿وَجَعَلْنَا﴾ بمعنى: صيرنا فهو ناصبٌ لمفعولين: المفعول الثاني ﴿فِيهَا﴾، والمفعول الأول ﴿جَنَّاتٍ﴾ و﴿جَنَّاتٍ﴾. جمع جنَّة وهي البُستان الكثير الأشجار، سُمي بذلك لأنه يجنُّ من دخله وكان فيه لاستتاره به . . وأصل هذه المادة الجيم والنوم، كلها تدور على هذا المعنى: أي على الاستتار والخفاء . . ومنه سُمي القلب: الجَنَان لاستتاره، ومنه سُمي الجن لاستتارهم وخفائهم، ومنه سُمي الجُنَّة: الوقاية لأنَّ الإنسان يستتر بها، فكل المادة هذه تدل على خفاء واستتار، فالبستانُ الكثيرُ الأشجار المُتشابكة إذا كان فيه أحد لا يُرى لأنَّ هذه الأشجار تستُرُه . . وقوله: ﴿جَنَّاتٍ مِّن﴾ أي بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، النخيل والأعناب معروفة، ونصَّ الله عليها لأنَّها طعام لا يحتاج إلى مؤُنة طعام قُوت لا يحتاج إلى مؤُونة . .ولهذا يُقتاتُ رطبًا ويابسًا . . فيُقتاتُ رطبًا كالرُّطب في التَّمر والعنب في العنب، ويابسًا كالتَّمر الذي يؤول إليه الرُّطب وكالزبيب الذي يؤُول إليه العنب . . فجمع الله بينهما؛ لأنهما قُوت حُلو لا يحتاج إلى مؤونة طبخ ويُنتفع به رطبًا ويابسًا. ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض . . ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي: بعضها . . ويجوز أن تكون ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس . . ويكون هذا عامًا . . وهو الأقرب . . يعني: فجرنا فيها من العيون عيونًا كثيرة وأصنافًا مُتنوعة . . فمنها العيون الجارية الغزيرة، ومنها العيون الراكدة التي لا تجري لكنها تنبع على وجه الأرض، ومنها العيون التي تكون بواسطة كالأنابيب المعروفة الآن تُركز في الأرض فيخرج الماء، ومنها العيون التي تكون بلا واسطة كالتي تتفجَّر من رُؤُوس الجبال وغير ذلك . . كل هذا دليل على قُدرة الله عزَّ وجلَّ وعلى رحمته بعباده.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾

قال: «بفتحتين وبضمتين» ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ الضمير يعود على الناس ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ و«ثُمُرِه» أي ثمر المذكور من النَّخيل وغيره. قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ اللام هذه للتعليل كما هو واضح . . والفعل بعدها منصوب إمَّا بها على مذهب الكوفيين، وإما بـ «أنْ» مُضمرة على مذهب البصريِّين.

وقوله: ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ هنا مُفرد ولم يقل: «مِنْ ثمرهما» لأنَّ الله ذكر نخيلاً وأعنابًا . . فهما ثمرتان . . فهما صنفان ولم يقل: «مِنْ ثمرهما» بل قال: ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر المذكور فالضمير هنا يُعود على المذكور من النَّخيل والأعناب. قال المؤلف قال: «مِنَ النَّخيل وغيره».

﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي لم تعمل الثَّمر، ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ أنعمه تعالى عليهم . . قوله: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ في «ما» قولان للمفسرين:

القول الأول - أنها نافية، وهو الذي مشى عليه المؤلف يعني: أنَّ هذا الثمر الخارج من النخيل والأعناب لم تعمله أيدي الناس، من الذي عملته أيديهم لأنَّ الناس قد يعملون شيئًا يُصلحونه مثل: عصير العنب، وكذلك الثمر، وكذلك الخُبْز الذي يخبزونه من الزروع . . وغير ذلك ممَّا يصنعه الناس بأيديهم . . فهناك مثلاً أنواع الحلوى تُصنع باليد وتُعمل باليد . . فيكون الله تعالى امْتَنَّ على العباد بأمرين:

امْتَنَّ عليهم بما يُخرجه هو عزَّ وجلَّ من هذه الثمار والزرع.

وامْتَنَّ عليهم بما علمه إيَّاهم ممَّا يعملونه بأيديهم . . والمأكولات التي نأكلها نوعان: نوع لا نُحدث فيه شيئًا نأكله - كما يقولون - طازجًا، ونوع آخر نعمل فيه ونُركِّبه مثلاً من عدة ثمرات، وما أشبه هذا . . فيكون الله - عزَّ وجلَّ - امْتَنَّ على العباد بالأمرين جميعًا. أيهما أولى المعنيين؟

نقول: إن الثاني أعم فيكون أولى، على أننا ذكرنا قاعدة سابقة بأن الآية إذا كانت صالحة للاحتمالين فلا مانع من أن تُحمل عليهما فنقول: إن الله أراد هذا وهذا .. أراد أن أيدينا لم تعملِ هذه الثمرات التي تخرج من النَّخيل والأعناب، ولا هذه الحبوب التي تخرُج من الزُّروع، وأراد أيضًا ما نعمله نحن بأيدينا على حسب ما نُريد فكل هذا نعمة.

وقوله: ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ الاستفهام هُنا للتوبيخ، والجملة معطوفة على مُقدَّر يُعلم من السياق .. يعني: «أغفلوا عن ذلك فلا يشكرون»؟! أوْ «أكفروا به فلا يشكرون»؟! لأنَّ انتفاء الشكر يكون إمَّا بالغفلة أو بالكفر المتعمد .. فكثير من الناس بالنسبة للنعم إما غافل ويرى هذا أمرًا مُعتادًا وكأنها شيءٌ جار على العادة بدون أن يكون لله فيه مِنَّة .. وهذا يحصل من المؤمن الذي لم يُصب بضدٍّ تلك النعم؛ لأن الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا حيثُ يُصابُ بضدِّها فلا يعرفُ قدر الشِّبع إلا من جاع،ولا قدر الرِّي إلا من ظمئ، ولا قدر العافية إلا من مرض، ولا قدر الأنس إلا من فقد الأنيس .. وهكذا .. هذه غفلة.

وإما أن تكون كُفرًا كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة النحل:٨٣). كُفرًا بالنعمة وبطرًا .. يقول: إنَّما أُوتيتها على علمٍ عندي .. وما أشبه ذلك.

وقوله: ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ الشكر سبق لنا عدة مرات أنه القيام بطاعة المُنعم .. هذا الشكر: القيام بطاعة المُنعم وصرف نعمه فيما جعلها الله له .. فمن صرف نعم الله لغير ما جعلها الله له فليس بشاكر، فلو جعل النِّعم عونًا له على المعصية فصار يستعين بنعم الله على معصيته لم يكن شاكرًا؛ لأنه صرفها في غير ما جُعلت له، إنما أنعم الله علينا هذه النعم لنقوم بعبادته ونتقوَّى عليها.

وسبق لنا أيضًا عدة مرات أنَّ بين الحمد والشكر عُمومًا وخصوصًا من وجه .. فالحمد أعم من حيثُ السبب وأخص من حيث المُتعلق، والشكر أخصُّ من حيثُ السبب وأعم من حيث السبب وأعمُّ من حيث المُتعلق.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممَّا تُنبتُ الأَرْضُ وَمنْ أَنفُسهمْ وَممَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ الأصناف، ﴿كُلَّهَا ممَّا تُنْبتُ الأَرْضُ﴾ من الحبوب وغيرها، ﴿وَمنْ أَنفُسهمْ﴾ من الذُّكور والإناث، ﴿وَممَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ من المخلوقات العجيبة الغريبة.

﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ ﴿سبْحَانَ﴾ هذه تأتي دائمًا منصوبة على أنها مفعول مطلق، حُذف منها العامل وجوبًا، وأصلها تسبيحًا لله، وتسبيحًا مصدر «سَبَّح»، فالعامل مَحذوف وهو «سَبِّح»، والمصدر مُحول إلى اسم مصدر وهو التَّسْبيح حُوِّل إلى «سُبْحان». والتَّسبيح هو تنزيه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عمَّا لا يليق به مأخوذ من «سَبَحَ» أي أبعد في الماء . . فمعنى التَّسبيح في «سُبْحان الله» تنزيه الله ـ سُبحانه وتعالى ـ عمَّا لا يليق به . . والذي لا يليق بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ أمران:

أحدهما ـ النقص في صفاته.

والثاني ـ مُماثلة المخلوقين فيها . . على أنَّه يُمكن أن نرد الثاني إلى الأول ونقول إنَّ مماثلة المخلوقين نقص؛ لأن مماثلة الكامل للناقص يجعله ناقصًا . . مُمكن أن نقول هكذا.

فقوله: ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ أي: تنزيهًا لهذا الذي خلق الأزواج كلها، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ﴾ أي: الأصناف، وقوله: ﴿خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ممَّا تُنبتُ الأَرْضُ وَمنْ أَنفُسهمْ وَممَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية كقوله: ﴿وَمن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الذاريات: ٤٩). كل المخلوقات لا تقوم إلا بتركيب من مادتين فأكثر . . ليس فيها شيء يقوم من شيءٍ واحد أبدًا . . كل شيء سواء مما تُنبت الأرض أو الآدميين أو من البهائم أو مما لا نعلم، وهذه عامة من أعم ما يكون . . فإنه مكون من شيئين ﴿وَمن

كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (سورة الذاريات:٤٩). تنزيهًا لله عزَّ وجلَّ عمَّا لا يليقُ به .. ولهذا جاءت الآية هنا ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ فالمخلوق لابد فيه من تعدد .. والخالق مُنزَّهٌ عن التَّعدد .. وهذه هي الحكمة، والله أعلم في أنَّهُ قال: ﴿سبْحَانَ الَّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، ولم يقل: «الحمْد لله الذي خَلَقَ الأزواج» بل قال: ﴿سبْحَانَ﴾ لأنَّ كون كل شيء يحتاج إلى ازدواجيَّة يدل على كمال الواحد المُتفرد الذي لا يُماثله شيء من مخلوقاته.

فبنو آدم لابُدَّ لهم من ازْدواجية ذكر وأُنْثى حتَّى المعاني التي فيه والأوصاف التي فيه تجد أنَّها مُزدوجة .. فيه غضب ورضا، وكراهية ومحبَّة، وقُوة وضعف .. إلى غير ذلك .. لكن الخالق ـ عزَّ وجل ـ واحد مُنفرد لا يُماثله شيء في ذاته ولا في صفاته.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ نقول في إعرابها ما قلنا في ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ﴾ فيكون ﴿اللَّيْلُ﴾ مبتدأ، و﴿آيَةٌ﴾ خبر مقدم، ونقول في ﴿نَسْلَخُ﴾ كما قلنا في قوله: ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ أي أنه يجوز أن تكون صفة لليل على حد قول الشاعر:

ولقد أَمُرُّ عَلَى اللئيم يَسُبُّني

ويجوز أن تكون جملة استئنافية لبيان هذه الآية .. كيف كان الليل آية؟ قال: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ .. ﴿نَسْلَخُ﴾ يقول المؤلف: «نَفْصِل»، وسمى الله هذا الفصل سلخًا؛ لأنه يُشْبِه سلخ الجلد من البهيمة. ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ لأن النَّهار أمرٌ وجودي يُوجد بوجود الشمس فهو واردٌ على الليل فإذا غابت الشمس تبعها هذا الضوء كالجلد يُسلخ من البهيمة .. أنت عندما تسلخ الجلد من البهيمة تجده يتراجع شيئًا فشيئًا .. هكذا النهار، ضوء النهار بالنِّسبة لليل، يسلخ الله تعالى النهار من الليل كما يُسلخ الجلد من البهيمة.

قال: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام .. ﴿فَإِذَا هُم﴾ «إذا» فُجائية تدل على أنه بمجرد هذا الانسلاخ يظلم الجو وكما نشاهد أن الانسلاخ يأتي شيئًا فشيئًا .. لكن إذا تكامل الانسلاخ وُجدت الظُّلمة كاملة، وهذا من حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ لأنه لو ورد الظَّلام الدَّامس على الضوء السَّاطع؛ لأضرَّ هذا بالأبصار وبالأشجار وبكثير من الأشياء، لكن كونه يأتي شيئًا فشيئًا يتنزل الأمر من أعلى ما يكون من الإضاءة إلى الظُّلمة شيئًا فشيئًا.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)﴾

الواو حرف عطف، ﴿وَالشَّمْسُ﴾ معطوفة على ﴿اللَّيْلُ﴾ . . يعني: وآية لهم الشمس أيضًا ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾، ويجوز أن تكون الواو استئنافية ﴿وَالشَّمْسُ﴾ مبتدأ . . يجوز هذا وهذا . . لكن المعنى الأول أقوى.

قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي ..﴾ إلى آخره من جملة الآية لهم . . أو آية أخرى . . والقمر كذلك . . يعني: سواء قُلنا جملة استئنافية وأن هذه آية أخرى جديدة أو قلنا: إن الواو حرف عطف . . فإنه لاشكَّ أن الشمس على الوصف الذي ذكره الله لاشكَّ أنها آية من آيات الله.

فالشمس آية من آيات الله في ذاتها . . هذا الجرم الكبير العظيم الذي تصل حرارته إلى الأرض مع بُعد المسافة بينهما لاشكَّ هذا من آيات الله . . من يستطيع أن يُوجد مثل هذه الكُتلة النارية المُلْتهبة المُضيئة التي يصلُ ضوؤها وشُعاعها وحرارتها إلى الأرض مع هذه المسافة العظيمة؟

الجواب: لا أحد يستطيع.

إذًا . . فهي آية من آيات الله . . ثمَّ ما يحصل فيها من المنافع من إنضاج الثمار وتدفئة الأرض والنور العظيم . . كم طاقة يتفاداها الإنسان بنور هذه الشمس من الكهرباء؟! طاقة عظيمة . . سواء كان هذا فيما يحصل من الحرارة كأيام الشتاء التي يُستغنى بالشمس عن تدفئة المنازل . . أو ما يحصل بالإضاءة، فإنَّ هذا أمر لا يُقدرُ له ثمن.

وأما إنضاج الثمار وإيباس الرُّطب وما أشبه ذلك ممَّا فيه مصلحة الخلق فحدث ولا حرج . . فهي آية من آيات الله . . آية عظيمة من آيات الله عزَّ وجلَّ . . هي آية أيضًا في سيرها . . قال: ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ﴿تَجْرِي﴾ يعني: تسير جريانًا، والجري

هو المشيُ بشدَّة . . وهكذا الشمس فإنها تسيـرُ بسرعة عظيمة جدًا لا يعلم قدرها إلا الله عزَّ جلَّ . . أو قد يُعلم بالوسائل الحديثة مدى سُرعتها . . لكن تأمَّل الآن الطائرة تسيـرُ بسرعة عظيـمة وهي قريبة منَّـا ومع ذلك نراها تمشي بِبُطء لبُعدها عنَّا . . فـما بالك بالشمس . . نحن نُـشاهدها تسير ـ لاشـك في هذا ـ حتَّى إنَّك إذا نظرت إلى الظل عند انفصاله من الشُّعاع تجده يتحرَّك كأنه يبتعد، وهذا دليل على أنَّها تمشي مشيًا عظيمًا، ومع بُعدها عنَّا نُشاهدها تسير هذا السَّير . . إذًا فسريانها سريع جدًا . . وقد عُلم تقديره عند الفلكيين الآن.

وقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال المؤلف: «أي: إليه لا تتجاوزه»، فالمُستقر موضع القرار كما قـال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (سورة البقرة:٣٦). وقال: ﴿جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ (سورة النمل:٦١). فالمستقر موضع القرار . . وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ (سورة هود:٦).

فما هذا القرار الذي تجري الشمس إليه . . . هل هو قرار زمني أو قرار مكاني أو همـا جميـعًا؟ ثبـت في الحديث الصـحيح عن أبي ذر ﷺ أنه كـان مع النبي ﷺ في المسجد حين غربـت الشمس فقال: «اتدْري أيْنَ تذْهب؟» قال أبو ذر: الله ورسوله أعلم . . قال: «فـإنَّهـا تذْهب وتَسْـجُـد تحْت العَـرْش وتَسـتـأذِن فـذلك مُـسْـتـقَـرُّها»، ثم قرأ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، وهذا الحديث يدل على أن مُستقرهـا مكاني . . لأنها تسجُد تحت العرش . . وهذا السجود لا نعلم كـيفيته لأنَّ الشمس ليست كالبـشر حتَّى يُقاس سجودها بسجـود البشر بل هي مخلوق أعظم ولا ندري كيف تسجـد . . إذًا . . فلا يرد علينا السؤال هل هي تسـجد وهي سائرة، أو تقف . . وكيف يصح أن نقول إنَّها تسجد وتسـتأذن وهي لا تزال مُستمرة في الأُفق؟ كل هذه الأسئلة والإيرادات نُجيب عليها ـ إن شاء الله ـ عند ذكر الفوائد.

وقيل: إن المُسـتقر مُـستقـر زمني وذلك عند تكويرها يوم القيـامة . . يعني: عند مُنتهى سيرها يوم القيامة. يعني: تجري إلى يوم القيامة الذي هو موضع قرارها الزمني.

وقيل: إنَّ المراد بالمُستقـر: مُنتهى تنقلها في البروج الشماليـة والجنوبية، فلها حد تنتهي إليه من الشمال لا تتجاوزه، ولها حد تنتهي إليه من الجنوب لا تتجاوزه.

وبناء على هذا يكون المُستقر زمانيًا ومكانيًا، لأنَّ غاية سيرها في الشمال يكونُ به ابتداء فصل الصيف القيظ، وغاية سـيرها في الجنوب يكون به ابتداء فصل الشتاء .. فهذا قرارٌ أو مستقر زماني ومكاني.

فالشمس .. هذه الشمس العظيمة التي لا يعلم قـدرها إلا الذي خلقها سُبحانه وتعالى بما فيها من المصالح العظيمـة تجري لمستقر لها .. كل شيء له غاية وكل شيء له مُنتهى إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

قال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي جريـها، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ في ملكه، ﴿الْعَلِيمِ﴾ بخلقه .. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: جريانها لمسـتقرها، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وأضاف التقدير هنا إلى هذا الاسم الكريم ﴿الْعَزِيزِ﴾ لأن هذه الشمس الـعظيمة تحـتاج إلى قوة وسـلطان قاهر، فلهذا أتى باسم العزيز لأن العزيز يتناول أو يشمل ثلاثة معان:

أولاً ـ العزيز في قدره.

ثانيًا ـ العزيز في قهْره.

ثالثًا ـ العزيز في امْتناعه.

أما في قدره: فمعناه أن الله ذو شأن عظيم لا يُماثله أحد.

وأمـا في قهـره: فـمعناه أن الله لـه الغلبة والسـلطان المطلق .. يقـول الشاعـر الجاهلي:

أيْـن المفـــــــرُّ والإلـهُ الـطـالـبُ * والأشْـرمُ المَغْلُوب ليْسَ الغـــالبُ**

وأما في امتناعه: فالمعنى أنه مُمْتنع عن كل نقص وعيب ..

أما العلـيم فمعناه ذو العلـم الكامل الشامل: فـعلم الله تعالى كامل: لـم يُسبق بجهل ولا يلحقه نسيان.

وشامل: لكل صغير وكبير . . قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة الأنعام:٥٩). وما كتب في كتاب مُبين إلا بعد أن كان معلومًا عند الله عزَّ وجلَّ . . إذ المجهول لا يُكتب . . فهذا يدل على سعة علم الله عزَّ وجلَّ، وأنه محيط بكل شيء جُملة وتفصيلاً.

إذًا . . فالعليم معناه: ذو العلم الكامل الشامل: كماله: من حيث إنه لم يُسبق بجهل ولا يلحقه نسيان وشموله: لأنه شاملٌ لكل صغير وكبير.

يقول: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. فذكر الله هذين الاسمين لمناسبة المقام لأن الشمس ليست بالشيء الهين الذي يسهل قياده بل هي شيء عظيم يحتاج إلى عزة وإلى علم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)﴾

﴿وَالْقَمَرَ﴾ القمر فيه قراءتان: الرفع والنصب ففيه وجهان في الإعراب: «والقمر» بالرفع على أنه مُبتدأ خبره ﴿قَدَّرْنَاهُ﴾ و«القَمَرَ» بالنَّصب على أنه مفعول لفعل محذوف يُفسره المذكور . . فيكون من باب الاشتغال . . وهنا يتساوى الرَّفع والنصب في الرجْحان لأنَّ الجُملة التي قبله ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ جملة اسمية خبرها فعل . . فلهذا جاز في القمر الوجهان، والمعروف أنه يترجح الرفع إذا عُطِفَ المشغول عنه على جملة اسمية ويترجح النصب إذا عُطف على جملة فعلية.

قال: ﴿وَالْقَمَرَ﴾ بالرفع والنصب وهو منصوب بفعل يُفسره ما بعده . . يعني: يُفسره المذكور والتقدير على هذا: وقدرنا القمر منازل، ولا حاجة تقول، كما يقول بعض الناس: التقدير: وقدرنا القمر قدَّرناه . . لماذا؟

إذ لا يُجمع بين المُفَسِّر والمُفَسَّر . . فإذا أردت أن تُقدر فقل: التقدير: وقدرنا القمر منازل، فإذا قُلت: لماذا لم يقل عزَّ وجلَّ: وقدرنا القمر منازل؟

قلنا: لأنه إذا أتى بالجملة الاسمية التي خبرها فعل الذي هو التقدير إلى القمر مرتين: مرَّة بذكره اسمًا ظاهرًا ومرَّة بذكره اسمًا مضمرًا: قدرناه. قال الله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ من حيث سيره ﴿مَنَازِلَ﴾ . . تقدير الله عزَّ وجلَّ القمر منازل؛ لأنه بهذا التقدير يُمكن أن يأتي على هذا الوجه الذي نُشاهده . . يتغير كل ليلة عن الأخرى . . ولولا هذا التقدير ما تغير، لكنه مُقدَّر منازل، ثمانية وعشرين منزلة على حسب النُّجوم المعروفة عند العرب . . كل ليلة ينزل منزلة . . ويبقى ليلة واحدة إن كان تسعًا وعشرين أو ليلتين إن كان ثلاثين . . تُسمى هاتان اللَّيلتان ليالي الاستسراء يعني: الاختفاء، يختفي فيها القمر: إما في أول الشهر التالي، وإما في آخر الشهر السابق.

يقول ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ثمانية وعشرين منزلاً في ثمان وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين يومًا، وليلة إن كان تسعة وعشرين يومًا . . ومن أراد تفصيل العلم في هذا فليقرأ ما كتبه أهل العلم في ذلك ولاسيما في عصرنا هذا فإنهم اطلعوا على أشياء عجيبة في هذا التقدير.

﴿وَالْقَمَرَ﴾ قدره الله منازل كل يوم منزلة . . إذًا . . هو يختلف كل ليلة عن الأُخرى، ولهذا يبدو صغيرًا ثم يكبر ثم يعود فيصغر بحسب قُربه من الشمس، كلما قرُب من الشمس ضعُف نوره؛ لأنه نور القمر مُستمد من نور الشمس . . هو عينه ليس به إضاءة، جرم مُظلم كما قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (سورة الإسراء:١٢). فهو جرمٌ مُظلم لا يستفيد نورًا إلا بغيره . . فإذا قابل الشمس حصل فيه النور . . كلما بعد عنها كثرت المُقابلة؛ لأن السَّير كروي فكلما قرب ضعفت المقابلة، فإذا ارتفع زادت المُقابلة، ولهذا يمتلئ نورًا فيما إذا كان في المشرق والشمس في المغرب لتمام المقابلة حينئذ . . وما هو الجزء المُنيرُ منه؟ الجُزءُ المنير منه هو الذي يلي الشمس ولهذا تجد في أيام الشتاء إذا كانت الآن الشمس خلفه تكونُ فتحة قوسه نحو المشرق . .

أما في أيام الصيف تكون فتحة قوسه نحو الجنوب؛ لأن الشمس تكون عنه شمالاً وهو يكون عنها جنوبًا فتجد فتحته نحو الجنوب، وفي الشتاء حيث يستدبرها ويكون وراءها تجد فتحته تكون نحو المشرق؛ ولهذا يغلط بعض الناس الذي يظن أنَّ اتجاه فتحة القمر ـ يعني فتحة قوسه ـ دائمًا إلى الشرق أو إلى الجنوب . . هذا ليس بصواب وإذا أردت أن تعرف هذا فتدبره.

يقول تعالى: ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ﴾ في آخر منازله في رأي العين ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: كعود الشَّماريخ إذا عتق فإنه يدق ويتقوَّس ويصفر، ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ القمر بعد تقدير هذه المنازل ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، ﴿كَالْعُرْجُونِ﴾ يُسمى في اللغة العامية

عندنا «عُرْجُـود» بالدال «العُرْجُود» هذا العـرجود هو أصل الشَّـماريخ الذي في طلع النَّخل وهو إذا يبس يتقوس ويصـقر . . فشبَّه الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ القمر في رؤية العين بهذا العرجون القديم . . أي أنه يبـدو دقيقًا أصفر مُتقوسًـا . . وهذا من باب التشبيه الغير بليغ لأنه ذُكرت أداة التشبـيه . . التشبيه البليغ هو الذي يُحذف فيـه أداة التَّشبيه ووجه الشبه . . فإن ذُكر أحدهما فالتشبيه ليس ببليغ.

يقول تعالى: ﴿**حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾، لما ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ الشمس تجري لمسـتقر لها وأن هذا أمرٌ مقدر من قبل العزيز العليم، وأنَّ الله تعالى قـدَّر القمر منازل ينزلها منزلة منزلة حتَّى يعود بعد امتلائه نُورًا فيصيـر كالعرجون القديم بيَّن أن هذا النِّظام لا يُمكن أن يتصادم أبدًا لأنه مقـدَّر من عند الله العزيز العليم . . منـازل لا يـجاوزها ولا يتعـداها قال: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ**﴾، ﴿**يَنْبَغِي**﴾ بمعنى يُمكن . . والمؤلف يقـول: «يسـهل ويصح» لكن الأولى أن نقـول بمعنى يُمكن . . يعني: لا يُمكن للشـمس أن تُدرك القمر.

وقد مرَّ علينا أنَّه إذا جاءت كلمة «لا ينبغي» أوْ «ما ينبغي» في القرآن فهي بمعنى: المُمْتنع غاية الامتـناع كقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾ (سورة مريم: ٩٢). يعني: مُسـتحيلاً . . يعنـي أن ذلك مُستحـيل . . وقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله لا ينام ولا ينبغي له انْ ينام**» أي: أن ذلك مُستحيل.

إذًا . . ينبغي من جنسها ﴿**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا**﴾ أصلها «الشمس لا ينبغي لها»، لكن قدَّم النَّفي؛ ليكون المنفي هو الجُملة الاسمـية برأسها كلها قال: ﴿**لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ**﴾ يعني: لا يمكن أن تدرك القمر فتجـتمع معه في الليل . . مثلاً إذا غابت لا يُمكن أن تخرج في زمن الليل، فإذا قدرنا أنها تغـيب الساعة الثانية عشرةو

وتخرج الساعة الثانية عشرة بيْن غُروبها وطُلوعها اثنتا عشرة ساعة . . لا يُمكن أن تطلع في الساعة الثامنة فيكون بيْن غُروبها وطلوعها ثمان ساعات . . لأن هذا خلاف التقدير الذي قدره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لها والذي جعلها تسيرُ عليه . . لماذا؟ لتمام قُدرة الله تعالى ونظام هذا الكون وأنه لا يُمكن أن يختلف ولا يضطرب . . لكن إذا جاء يوم القيامة فإنه يُجمع الشمس والقمر ويختل نظام الفلك، بل كل النظام يختلف. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة إبراهيم:٤٨).

كذلك قال: ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ الليل لا يسبق النهار، بل لا يأتي إلا بعده، هنا قال تعالى: ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ كأنَّ الليل هو الذي يُمكن أن يسبق النهار، فنفى الله عزَّ وجلَّ أن يسبق الليلُ النَّهار.



قيل: المراد أن الليل لا يأتي قبل انتهاء النهار فيكون ـ عزَّ وجلَّ ـ ذكر الشروق في **قوله تعالى**: **﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾**.

يعني: لا يمكن للشمس أن تطلع في الليل .. **﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾** لا يُمكن لليل أن يأتي في زمن النهار .. فإذا قدرنا أنَّ الشمس تغرب الساعة الثانية عشرة فلا يُمكن أن تغرب الساعة التَّاسعة مثلاً .. لأنها لو غربت الساعة التاسعة لسبق الليل النهار .. ولو في بعض أجزائه.

وقيل: المعنى: **﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾** أي: لا الليل يحل محل النهار فيتوالى ليلتان سواء .. والمعنى صحيح على كلا القولين .. فلا يمكن لليْل أن يأتي وقد بقي شيءٌ من النهار ولا يُمكن أن يأتي الليْل كله في مكان النهار .. لأن هذا يُنافي تقدير الله عزَّ وجلَّ الذي سمَّى نفسه بأنَّه العزيز العليم.

قال: **﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** «كُلٌّ» تنويه عِوَضٌ عن المُضاف إليه من الشَّمس والقمر .. لأنه لا ذكر للنجوم هنا. **﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾** .. **﴿فَلَكٍ﴾** مُستدير **﴿يَسْبَحُونَ﴾** يسيرون.

يعني: كُلٌّ من الشمس والقمر والليل والنهار .. كل يسبح في فلك .. والفلك: هو الشيء المُستدير ومنه: «فَلَكَةُ المِغْزَل المغزل» للشيء المُستدير في أعلاها ولعلكم قد رأيتم المغزل .. الذي تغزل به النساء الصوف .. له شيء شبه الطار في أعلاه مستدير هذا فلكة المغزل .. الفلك مُستدير تدور فيه الشمس والقمر والليل والنهار، وقوله: **﴿يَسْبَحُونَ﴾** أي: «يسيرون» ولكن المعنى أدق مما قال المؤلف .. لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه الأجرام عائمة في الفلك الواسع تدور وليست تسيرُ على أرض مُسطحة أو على ماء بل هي تعوم في هذا الأُفقُ.

ومن فوائد الآية الكريمة: هذه الآية العظيمة في الليل حيثُ يسلخه الله تعالى يسلخ منه النهار سلخًا كما يُسلخ الجلد من الشاة، وهذا يدُلُّ على أنه يأتي شيئًا فشيئًا.

من فوائد الآية الكريمة أيضًا: أن الأصل هو الظلام لقوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ فهذا يدل على أن الأصل هو الظلام وأن النهار طارئ عليه، ولهذا يُسلخ منه .. وهو كذلك فإن أصل الضوء من الشمس، والشمس حادثةٌ وواردة على الليل، فيكون الأصل الظلام ويأتي النور بعده.

ومن فوائد الآية الكريمة: تذكير الخلق بهذه النعمة لقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ وأنه لولا نعمة الله علينا بهذا النهار الذي يُسلخ من الليْل لكُنَّا دائمًا في ظُلمة .. وهذا بلاشك مُتعب للنَّاس وضارٌّ بهم .. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (سورة القصص: ٧١).

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي تسير، وهذا هو الواقع .. وظاهر القرآن الكريم أنَّ سيرها ذاتي وليس المراد أنها تجري برأي العين وأنَّ الذي يدُور هو الأرض .. والواجب إجراء القُرآن على ظاهره حتَّى يقوم دليل صريح يكون لنا حُجة أمام الله - عزَّ وجلَّ - إذا خرجنا عن ظاهر القرآن .. لأن الذي تكلم بالقرآن هو الخالق عزَّ وجلَّ وهو العليمُ بخلقه، فإذا قال: إنَّ الشَّمس تجري .. وجب أن نقول: إنَّ الشمس تجري ولا يجوز أن نقول: إننا نحن الذين نجري، ولكن هي التي تجري بتقدير العزيز العليم.

ومن فوائدها: أنَّ هذه الشمس التي هي دائمًا دائبة لابُدَّ لها من مُنتهى لقوله: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ ويتفرع على هذا أن جميع الخلائق لها مُنتهى، كل ما في الدنيا من الخلائق له مُنتهى وسوف يزُول ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٨).

ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الشمس مقدرة تقديرًا بالغًا مُنظمًا لقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ويشهد الواقع لهذا فإن هذه الشمس مُنذُ خلقها الله إلى أن

تزُول وهي في فلكها لا تتـقدَّم ولا تتأخَّر عن السُّنَّة التي أمـرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكون عليـها ولا ترتفع ولا تنخـفض حـتَّى قيل: إنهـا لو انخفـضت مقـدار شعـرة لأحـرقت الأرض . . ولو ارتفـعت مقـدار شعـرة لجمدت الأرض، ولكـن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعلها على هذا التقدير البديع المُحكم الذي لا يتغير.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسـماء الله وهُما: ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، ويؤخذ منهـما إثبات صفـتين تضمَّناهُما وهمـا: العزَّة والعلم، ويؤخذ منهمـا أيضًا: إثبات الأثر أو الحكم وهو أنه غالبٌ لكل أحد وعليمٌ بكل شيء.

ومن فوائد الآية في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أيضًا: أنَّ هذا القمر آية من آيات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيثُ هو مـوضوع في فلكه ومع ذلك له منازل ينزلها كل ليلة ليس مُطلقًا ولكنه مُقدر بمنازل ينزلها كل ليلة . . والحكمة من هذه المنازل هي أن يعرف الناس عـدد السنين والحساب كما قـال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (سورة يونس: ٥). حتَّى إنَّ العالمين بمنازل القمـر يعرفون الليلة من الشهـر وإن كانوا لم يحسبـوا من أول الأمر بناءًا على معرفة المنازل؛ لأن هذه المنازل لا تتغـير وحلول القمر فيها أيضًا لا يتـغير فهي مُنظمة من عند الله عزَّ وجلَّ.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القياس لقوله: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ . . وكل تشبيه أو مـثل في القرآن فإنه يدل على القياس لأن التشـبيه أو المثل إلحاقُ شيء بشيء لعلة، التي تُسمى في البلاغة «وجه الشَّبه».

ومن فوائد الآية الكريمة: إطلاق القديم على غـير الله خلافًـا للفلاسـفة الذين يقولون: إنَّ أخص وصف لله هو القِدَم . . وهذا خطأ . . لو كان هذا أخص وصف الله لم يوصف به سوى الله . . والقدم لا يدل على الأزليَّة . . فهـذا العرجون وصفه الله بأنه قـديم ومع ذلك فليس أزليًـا؛ إذ أنه حـادثٌ بعـد أن لم يكن . . وبه يتـبين

بُطلان قول هؤلاء الذين يقولـون: إنَّ أخص وصف لله - عزَّ وجلَّ - هو القدم .. لو قالوا: أخص وصـف لله هو الأوَّلية لكنا نُوافـقهم على مـا قالوا؛ لأن الله هو الأول الذي ليس قبـله شيء، وأما أن نقول: إنَّ القـدم أخص وصف لله مع أنه يُوصف به الحادث فهذا لا يكون ولا يصح.

ومن فوائدها: أن فيـها دليلاً على قـدرة الله من حيث نور القـمر حيثُ يبـتدئ ضعيـفًا ثم يزداد في القوة ثمَّ يرجع إلى الضعف .. فـإن هذا من قُدرة الله عزَّ وجلَّ .. إذ لو شاء لجعله تامًا مُمْتلئًا دائمًا أو ناقصًا دائمًا.

وفيه أيضًا من الفوائد: الإشارة إلى حال الإنسان فإنَّ الإنسان إذا تدبر القمر وجد أنه مُطابق لحال الإنسان كما قال الله تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾** (سورة الروم: ٥٤). فحال الإنسان مُساويةٌ تمامًا لحال القمر .. فـالقمر يبدو ضعيفًا ثم يزداد في القـوة حتى إذا تكامل في القوة أخذ في النقص، وهكذا الإنسان بالنسـبة لحياته. قـال الله تعالى: **﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾** .. في هذه الآية دليل على أن سُنة الله - عزَّ وجلَّ - لا تتغير، هذا هو الأصل .. كـما قال الله تعالى: **﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾** (سورة فاطر: ٤٣). فسنة الله - سبحانه وتعـالى - لا تتغير في الكون، ولكن: هل هي سنة لازمة بحيث يمتنع على الله أن يغيرها؟

الجواب: لا .. ولكنَّ الله تعالى أخبرنا بأن هذه السنة لا تتغير لكنها تتغير بتغيرها.

ولهذا حُبست الشمس ليوشع بن نُون كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

ولهذا أيضًا إذا كان قُرب الساعة فإنها تخرج من مغربها.

ولهذا انشق القمر في عهد النبي ﷺ وصار فلقتين.

فهذه السنن الكونـية لا تتبدل ولا تتغـير لكن الله قادر على أن يُبدلهـا أو يُغيرها ويكون هذا لسبب.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشمس لا يُمكن أن تخرج ليلاً . . بحسب السنة الإلهية . . أما بحسب قدرة الله: فإنه يُمكن أن تخرج ليلاً لأن الله يقول: ﴿كُنْ﴾ فيكون.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: أن الليل لا يسبق النهار فلا يدخل عليه ولا يتقدمه بحيث تتوالى ليلتان جميعًا . . ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ هذا هو ما يظهر لنا من هذه الآية الكريمة . . وقد يكون لها معنى غير ما نفهمه من ظاهرها.

ولهذا رُبما يكون الذين يدرسون في علم الفلك يتبين لهم من هذا التعبير أكثر مما تبين لنا.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: أنَّ الشمس والقمر، والليل والنهار في فلك . . يعني: في شيء مُستدير كفلكة المغزل، وأنها تدور لقوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

ومن فوائدها: ضعف قول من يقول: إنَّ الشمس في السماء الرابعة والقمر في السماء الدنيا ويجعلون الكواكب والشمس والقمر كواكب معينة في كل سماء كوكب . . على هذا الترتيب من الأعلى إلى الأدنى:

زحل شرى مُرِّيخه مِنْ شمْسِهِ ❖❖❖ فَتَزاهرت بعُطاردِ الأقمارُ

هذه سبعة يكون كل واحد في سماء . . زحل هو أعلاها في السماء السابعة . . على كلام السابقين من علماء الفلك. شرى يعني: المشتري في السماء السادسة، مريخه: المُريخ في السماء الخامسة، من شمسه: الشمس في السماء الرابعة، فتزاهرت: الزهرة في السماء الثالثة، بعطارد: في السماء الثانية، الأقمار: القمر في السماء الدُّنيا . . فهذا البيت فيه ترتيب هذه الكواكب:

زحل شرى مُرِّيخه مِنْ شمْسِهِ ❖❖❖ فَتَزاهرت بعُطاردِ الأقمارُ

وليس هذا من كتاب الله ولا من سُنـة رسول الله ﷺ، ونحن إنما نعرف أن هذه الكواكب بعضها فـوق بعض بالكسوف .. فإذا كان القمر يكسـفه الشمس عرفنا أنه تحتها .. كمـا نعرف أن الغيم تحت الشمس لأنه يحجبها .. وإذا كسف القـمر شيئًا من النجـوم عرفـنا أنه - أي القمـر - تحـتهـا .. ولهـذا القمـر يكسف كل النجـوم والشمس، ولا يكسـفه شيء منها، مـا يكسفه إلا الأرض .. لأن الأرض تحـته .. فيـحجب نور الشـمس عنه، وحيـنئذ ينكسف. وقـد شاهدت أنا وغـيري أنَّ القـمر يكسف بعض النجوم .. تجده يسـيرُ حولها ثمَّ يُغطيهـا .. وهذا يدل على أنَّ القمر نازل عن علو هذه الكواكب.

ومن فوائد الآية الكريمة: الرد على قول من يقول: إن الشـمس ثابتة .. وأنها لا تدور، والعجب أنهم يقولون: إنها ثابتة وأن القمر يدور على الأرض!! وهذا غلط لأن الله - سبحانه وتعـالى - جعل الحكم واحدًا .. قال: ﴿**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾، فإذا فسرنا السبح بالدوران وأثبتنا ذلك للقمر فلنُثبته أيضًا للشمس.

قال المؤلف: «يسيرون: نُزِّلوا منزلة العُقلاء»، نُزِّلُوا: مَنْ؟ الشمس والقمر والليل والنهار. منزلة العقلاء: وذلك بأن أُتي بالواو التي هي للعقلاء .. الواو ضمير الجمع لا تأتي إلا للعقلاء .. غـير العقلاء يُؤتى لهم بنون النسوة فغـير العقلاء إذا أردنا أن نُضيف إليـهم شيئًـا على سبيل الجـمع نأتي بنون النسوة .. والعـقلاء نأتي بالواو أو بالميم .. فنقول مثلاً:

«الإبل ركـبـهن أربابهنَّ» ولا تقل: «الإبل ركـبـهم أربابهم» لأن الميم للعـاقل. وتقول: «الإبل قَدِمْن» أوْ «الإبل شَرِبْنَ»، ولا تقول: «شَرِبُوا» لأنَّ الواو للعاقل.

هنا: ﴿**يَسْبَحُونَ**﴾ أتى بالواو التي للعاقل يقول: «إنها نُزِّلَت منزلة العاقل بإضافة السبح والجريان إليها، والجريان إنما يكون من ذى الإرادة والعقل».

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وفي قراءة «ذُرِّيَّاتهم» أي آباءهم الأصول ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أي سفينة نوح ﴿الْمَشْحُونِ﴾ المملوء ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: مثل ذلك، أي: مثل فلك نوح، وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار بتعليم الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ﴾ أي: للناس جميعًا .. على أي شيء؟ يقول المؤلف: «على قُدرتنا» ونحن نُسلم بذلك لكن فيه أيضًا آية على شيء آخر وهو رحمة الله عزَّ وجلَّ بالخلق ونعمه عليهم .. فآية لنا دالة على قدرة الله ورحمته وفضله علينا هذا الفُلك الذي سخره الله عزَّ وجلَّ يجري في البحر يحمل الأرزاق من جهة إلى جهة، ويحمل الناس، ويحمل المواشي، ويحمل كل ما فيه مصلحتنا .. فهذا من الآيات الدالة على قدرة الرَّب عزَّ وجلَّ وعلى رحمته.

وقوله: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذه الجملة في تأويل المصدر هي المبتدأ .. يعني: وآية لهم حملنا ذُريتهم .. ذُرِّيَّتهم .. وذُرِّيَّاتهم .. قال المؤلف: «أي آباءهم الأصول» فجعل المراد بالذرية هنا الأصول .. يعني: الآباء .. مع أن المعروف في اللغة العربية أن الذرية هم الفروع وليسوا الآباء كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ (سورة الحديد: ٢٦).

والمؤلف ومن ذهب مذهبه في تفسير الآية يقول: إنَّ الذرية لفظ مشترك بين الأصول والفروع؛ لأنها مأخوذة من «ذَرَى» والذَّر كائن للأصول والفروع.

ثم يقولون أيضًا: إن سياق الآية يدل على ذلك ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾. ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الصغار الموجودون معهم إذا حُملوا فسيحملون معهم هم .. وإن كان المراد بالذرية: من يأتي فيما بعد فكيف يكون ذلك آية وهي غير مشهودة لهم؟!

إذًا . . يتعين أن يكون المراد بالذرية الأصول؛ لأن الصغار المشهودين حملهم حمل لآبائهم؛ لأن الغالب أنهم لا يحملون إلا مع آبائهم والصغار الغير مشهودين الذين يأتون فيما بعد لا يكونون آية لمن لم يُشاهدها فتعين أن يكون المراد بالذرية: الآباء . . وهذا الذي ذهب إليه المؤلف يُوافق ظاهر الآية لكنه يُخالف ما كان معهودًا في اللغة العربية من أن الذرية هم الفروع . . ولهذا ذهب العلماء إلى أن المراد بالضمير هنا: الجنس . . لا العين.

ومعنى: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي ذُرية جنسهم كنوح مثلاً . . نوح عليه الصلاة والسلام من جنسنا آدمي بشر . . فحمل الله ذريته في الفلك المشحون.

قالوا: وهذا لا يمتنع في اللغة العربية ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (سورة المؤمنون:١٢-١٣). ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جنس الإنسان وليس عينه لأنَّ الذي جُعل نُطفة هل هو آدم الذي خُلق من السُّلالة أم غيره؟ غيره بلاشك.

إذًا . . فالضمير عاد إلى آدم باعتبار الجنس، فليعد الضمير في قوله: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى الموجودين باعتبار الجنس . . فمن هو الجنس؟ قالوا: هو نوح لأنه بشر آدمي . . وذريته هي المحمولة فيكون المعنى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذُرية جنسهم وهو نوح عليه السلام، حملت ذريته في الفلك المشحون وخُلق لهم من مثله ما يركبون . . وهذا قريب جدًا ولا يُخالف ظاهر الآية ويُشيرُ إلى أن هذه السفينة جُعلت آية لمن بعد نوح يعتبرون بها ويصنعون مثلها قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر:١٥).

فائدة من أسئلة:

الذين قالوا: إنَّ الكسوف والخسوف يقع في كل وقت والله على كل شيء قدير . . نقول: هذا ليس بصحيح . . لأن الله تعالى أجرى العادة أن لا كُسوف للشمس إلا في ليالي الاستسراء في آخر الشهر، وأن لا خُسوف للقمر إلا في ليالي الإبدار

.. ويكون قـول من قال من الأئمـة: «إذا وقع الكسـوف في عرفـة بعد أن غـربت الشمس - إذا وقع - فـإنه يُصلي ثم يدفع» يُقال: هذا أمرٌ فـرضي وليس بواقعي، ولا يُمكن أن يقع هذا.

❖ ***يحتجون بأن الشمس كسفت في يوم موت الحُسين العاشر من رمضان؟***

ليس هذا بصحيح .. إما أن الـكسوف غير صحيح أو التاريخ غـير صحيح .. ويحتجون أيضًا بأنها كسـفت يوم مات إبراهيم .. هذا صحيح .. كسفت يوم مات إبراهيم .. هم يقـولون: إن إبراهيم مـات في عاشـوراء ربيع الأول .. وهذا غيـر صحيح أيضًـا .. والصحيح أنها كسـفت - الشمس - في تسعة وعـشرين شوَّال .. وعلى هذا فلا إشكال في المـوضوع، هذا غير ممكن لأن هـذا سُنَّة مُطردة ما يمكن أن تختلف إلا أن تكون آية، إذا كانت آية لا بأس .. مثل انشقاق القمر .. ولهذا نحنُ نُقر بأن القمـر قد انشق حقيقة، خـلافًا لبعض المعاصرين أيضًـا الذين أنكروا انشقاق القمر وقالوا: إنَّ الق٠مر من الأفلاك السـماوية ولا يُمكن أن تتغير أبدًا .. وأن المراد بانشقاق القمر ظهور رسالة النبي ﷺ بمعـنى اتضاح القمر أي نور الرسالة، ويستدلون أيضًا بأن هذه الحادثة لو كـانت حقيقة، لكانت مـشهورة عالميًا بالتـاريخ لأنها ما هي بالأمر الهين أن ينشـق القمر ولا يعلم الناس به إلا أهل مكـة أو من حولهم .. وكل هذا تعليلات عليلة باطلة لأن انشقاق القمـر مما هو مشهور بل مُتواتر عن النبي ﷺ، والقرآن دل عليه ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ (سورة القمر: ١-٢).

وكونه لم يشـتهر عالميًـا في التاريخ ليس هذا بمانع من وجـوده حقيقـة، لأنه قد يكون صادف في النهار - أي على من حولهم - ثم قد يكون هناك غُيوم وموانع تمنع، ثم قد يكون بالليل وهم نائمـون .. فالمهم أن هناك موانع .. ثم انشقـاقه أيضًا ليس أنه انشق كل الليل بل انشق حتى أراهم النبي ﷺ هـذه الآية ثمَّ التئم .. وهذا قد لا يكون إلا خلال خمس دقائق أو نحوها.

قوله تعالى: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ .. ﴿فِي الْفُلْكِ﴾: أي: سفينة نوح .. فـ «أل» هنا للعهد الذهني لأنه لم يسبق لها ذكر وليست للاستطراد؛ لأن المراد بها: فُلكٌ واحد فتكون «ألْ» هنا للعهد الذهني .. يعني: في الفلك المعهود في أذهانكم وهو الذي قال الله تعالى لنوح: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة المؤمنون:٢٧). والفلك ـ كما مرَّ علينا ـ يُطلق على الجمع ويُطلق على المُفرد .. فمن إطلاقه على المفرد: كهذه الآية .. وعلى الجمع: مثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (سورة يونس:٢٢). ﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: الفُلك .. وهذا الضمير: ضمير جمع ولا يعود على المفرد .. ولهذا قال بعض الفقهاء رحمهم الله: إنَّ الأحدب الذي حدبته كالركوع ينوي الركوع. قال: «وهذا كفلك في العربية لا يُدرى هل هو جمع أو مفرد إلا بالنِّية» .. فالأحدب المقوس الظهر كيف يركع؟ بالنية .. ينوي الركوع لأنه مازال راكعًا أحدب .. ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أي: سفينة نوح ﴿الْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء .. مملوء بأُناسٍ من البشر الذين آمنوا مع نُوح ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (سورة هود:٤٠) .. مملوء ببقية الحيوانات لأن الله قال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ (سورة هود:٤٠).

وقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾ أي: مثل فلك نُوح .. وهو ما عملوه على شكله من السفن الصغار والكبار.

يُذكرهم الله عزَّ وجلَّ:

أولاً ـ بحمل آبائهم السابقين الذين هم ذُرية نوح.

ثانيًا ـ بأنَّ الله تعالى خلق لهم من مثل هذه الفُلك ما يركبون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر:١٥). فالناس تعلموا كيف يصنعون السُّفن وصاروا يصنعون مثل هذه السفينة ولعل قوله تعالى في سورة القمر: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ (سورة القمر:١٣). فيه الإشارة إلى مواد هذه السفينة أو هذا الفلك

لأجل أن يتعلم الناس لأنه لم يقل: «حملْناهُ علَى فُلْـك» بل قال: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ كأنه يقول: إن هذا الفلك مصنوع من الألواح والمسامير حتى يتعلم الناس مواد هذا الفلك.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ ، ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ المراد بالمثل هنا: الجنس وليس المراد المماثلة من كل وجه، وذلك لأن المماثلة من كل وجه قد تكون متعذِّرة، لكن يكفي الجنس .. أما النوع فيختلف باختلاف العصور، فلكل عصر نوع سفُنُه، ومازالت تترقَّى السُّفن في البحار إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه في عهدنا الحاضر.

قال المؤلف رحمه الله تعالى: «بتعليم الله تعالى» إشارة إلى سؤال مُقدر كأنه قال: كيف قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ﴾، وهذه السُّفن مصنوعة بأيدي البشر وليست بخلق الله كخلق البعير التي تركب والفرس وشبهها؟

فأجاب المؤلف: بأن الله تعالى أضاف خلقها إليه؛ لأنها كانت بتعليمه.

في هذه الآية من الفوائد:

أولاً - بيان ما في إنقاذ البشرية من الغرق في زمان نوح فإنه لولا أن الله أبقى هؤلاء لزالت البشرية من الأرض، لكن الله تعالى أبقى نوحًا ومن معه، ومع هذا فلم يبق من نَسْل الذين معه أحد وإنما الذين بقُوا هم نَسْل نُوح فقط كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ (سورة الصافات:٧٧). أما غيرهم فلم يبق منهم أحد .. ولهذا يُسمى نُوح أبا البشر الثاني.

ثانيًا - من فوائد هذه الآية: بيان نعمة الله عزَّ وجلَّ بما أنعم على هؤلاء بتعليم السفن التي يركبونها في البحر، ولولا هذه السفن ما استطاع أحد أن يعبر من يابسة إلى أخرى بينهما ماء .. ولكن أعلمهم بصناعة هذه حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن السفينة التي كان فيها نوح كانت مملوءة من البشر وغيرهم لقوله: ﴿الْمَشْحُونِ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن المماثلة قد لا تقتضي المُساواة من كل وجه لقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾، وليست هذه السفن الموجودة والتي كانت في عهد نُزول القرآن ليست كمثل سفينة نوح من كل وجه، ويدل على أن المماثلة قد لا تقتضي المساواة من كل وجه.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق: ١٢). فإن المراد بالمماثلة هنا المماثلة في العدد فقط.. وإلا فإنَّ بين الأرض والسماء من الفروق العظيمة ما هو ظاهر.

وفي قوله: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾، إشارة إلى الرَّاحة الحاصلة بهذه السفن وأنها محل ركوب واستقرار.. ففيها أيضًا بيان نعمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ باستقرار الراكبين على هذه السفن.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤)﴾

في الآية جملة شرطية: فعل الشرط فيها: ﴿نَشَأْ﴾ وجوابه: ﴿نُغْرِقْهُمْ﴾، وفيها أيضًا: استثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأحوال وهو قوله: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ وهي مفعول من أجله أي: إلا لأجل الرَّحمة التي من الله عزَّ وجلَّ.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ يعني: إذا ركبوا في السفن . . والأمر كذلك . . قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ (سورة الشورى: ٣٢-٢٤). فحذر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من أمرين في هذه السفن: إما إسكان الرِّيح فتبقى راكدة على ظهرها وإما إغراقها.

وهنا يقول: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ وهم في سُفُنهم ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ بمعنى: المُغيث وسُمِّي المُغيثُ صريخًا؛ لأن العادة أن الإنسان إذا هاجمه أحد صرخ يستغيث . . ومنه حديث غزوة بدْر: أنَّ أبا سُفيان بعث صارخًا إلى أهل مكة يستغيثهم.

قال: ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ يُنجون . . أي: لا أحد يُغيثهم ولا أحد يُنقذهم إذا أراد الله ـ سُبحانه وتعالى ـ أن يغرقهم.

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: لا يُنجيهم أحد إلا رحمة الله عزَّ وجلَّ . . والاستثناء هُنا قيل: إنه مُنقطع لأنَّ قوله: ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ بمعنى: لكن رحمة منَّا ينجون ويُنقذُون.

وقوله: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي أنهم يُمتعـون إلى حين أجلهم؛ لأن الله تعالى قد جعل لكل شيءٍ قدرًا.. أي: لا يُنـجيهم إلا رحمتُنا لهم وتمتـيعنا إيَّاهم بلذَّاتهم إلى انقضاء آجالهم.

في الآية الكريمة فوائد:

منها: إثبات مشيئة الله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾.

ومنهـا: أنَّ الله إذا أراد بقوم سـوءًا فلا مـردَّ له، لقوله: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾.

ومنها: بيان نعـمة الله - سبـحانه وتعـالى - بإنجائهم من الغـرق وأنَّ نجاتهم من الغرق ليست بكسبهم وعملهم ولكنها من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

ومنهـا: أن الله تعـالى قد يُـنقذ الإنسـان من الهـلاك إلى أن يأتي أجله لقـوله: ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ومنها: أنَّ الخلود في هذه الدنيا مُتعذر ومستحيل لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ وما كان له غاية فلابُد أن ينقضي.

ومنها: أنَّه يجبُ على الإنسان أن ينظر إلى نعم الله تعالى بالإنقاذ من الشدائد أو بحـصول المحـبوب أن ينظر إلى النِّعم عـلى أنها فـضل من الله - عزَّ وجلَّ - ليـست بكسبه، ولكنها من الله لقوله: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا كـغيركم ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أعرضوا.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ الجملة هذه شـرطية فعل الشرط فـيها: ﴿قِيلَ﴾ وجوابه محذوف قـدَّره المؤلف بقوله: «أعْرَضُوا» وهذا التقـدير لاشكَّ أنَّهُ التماس من المؤلف وإلا فقـد يكون الأمر ممَّا قال المؤلف .. وحذف مـثل هذا فيه من البـلاغة أنَّ الذِّهن يُقدِّر كُلَّ مـا يُمكن أن يُقدره ممَّا يترتَّب على هذا القـول .. هذا من جهة، من جـهة أُخرى: أنَّ الناس إذا قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ تختلف إجاباتهم .. منهم من يُعـرض ويسكت، ومنهم من يستكبـر ويسُبُّ، ومنهم من يُقاتل، إلى غـير ذلك من الأمـور التي لا تخفى .. فكان فـي حذف هذا من البـلاغة مـا هو ظاهر؛ ليذهب الذِّهن كل مذهب في تقدير هذا المحذوف.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من القائل؟ القائـل هُنا مُبهم .. لأنَّ الفعل مبني للمجهول؛ ليشـمل أي واحد يقول لهم هذا القول سواء كان من قول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه أو كان من قول الرسول ﷺ في سُنته أو كان من قول الدُّعاة بعد ذلك .. هؤلاء الـكفار إذا قيل لهم: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾، ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا فـإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قـد يُعذِّب الكافر في الدُّنيا كما عذَّب الأمم السابقة .. وكـما عذَّب هذه الأمَّة أيضًا لكن عذاب هذه الأمَّة يكون بابتلاء بعضهم ببعض. ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (سورة محمد: ٤). ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (سورة الدخان: ١٦). كانت هذه في غزوة بدر حين قُتل صناديد قُريش فسماها الله تعالى: «بطشة كُبْرى».

أما الأمم السابقة فعقُـوباتهم معروفة فهنا: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ من عذاب الدنيا، العـذاب المُتنوع سواء كـان بأيدي المؤمنين أو كـان من فعل الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ كالقـحط

والزلازل والغرق وغير ذلك. ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ من أمر الآخرة .. وعذاب الآخرة أشق وأشد وأبقى.

وهنا قال: ﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قد يقول قائل: لو كان الأمر بالعكس لكان أقرب إلى الصواب .. يقول: ما بين أيديكم من عذاب الآخرة لأنَّه مُستقبل وما خلفكم من عذاب الدنيا؛ لأن الدنيا هي التي يُخلفها الإنسان وراءه؟

ولكن الجواب عن هذا: بأن الذي بيْن أيديهم حقيقة هو الدُّنيا وأمَّا ما خلفهم: فإنَّ الخلف والوراء قد يُطلق بمعنى الأمام .. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (سورة الكهف:٧٩). قال العلماء: معناه: أمامهم .. وكقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (سورة إبراهيم:١٧). أي أمامه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ «لَعَلَّ» هنا للتعليل؛ أي: لأجل أن يرحمكم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا قيل لهم هذا الشيء فَجُمِعَ لهم بين الترغيب والتَّرهيب: ... الترغيب في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، والتَّرهيب في قوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾. هؤلاء جُمع لهم بين التَّرغيب والتَّرهيب ومع ذلك لا يستجيبون بل يُعرضُون ويستكبرون ويسخُرون ويقولون: «هذا أساطير الأولين». وما أشبه ذلك ممَّا هو معروف عن هؤلاء إذا دُعُوا إلى الله.

في هذه الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء الكُفار قد أُقيمت عليهم الحُجَّة وبلغتهم الدَّعوة وَوُعظُوا، ولكن لم ينفعهم ذلك لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

ومن فوائدها: أن الإنسان إذا أعرض عن دين الله واستكبر كان عُرضة للعذاب إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرة، أو في الدُّنيا والآخرة. لقوله: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾.

ومن فوائدها: أن الإقبال إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واجتناب معصيته سببٌ للرَّحمة لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ومن فوائدها أيضًا: إثبات العلل والأسباب لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ فإن «لَعَلَّ» هذه للتعليل ولا أحد يُنكر أن للأسباب تأثيرًا .. إلا من صُرِفَ عن مُقتضى الفِطرة .. والناس اختلفوا في الأسباب والعلل على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: إنَّ الأسباب والعلل مُؤثِّرة بذاتها وأنَّه لابد لكل سبب من تأثيره في مُسببه ولابُدَّ في كل عِلَّة من تأثيرها في معلولها.

ومنهم من قال: بالعكس وقال: إنَّه لا تأثير للعلل والأسباب وإنَّما هي علامات وأمارات فقط، فإذا وُجد المُسَبَّب أو المعلول لم يقولوا: إنَّ ذلك من أجل السَّبب أو العلَّة، ولكن يقولون: إنَّ ذلك حصل عنده لا به!!. ولا ريب أنَّ هؤلاء خالفوا المنقول والمعقول؛ ولا أحد يُوافقهم على ما ذهبوا إليه.

والقول الثالث الوسط: يقول: إن للأسباب والعلل تأثيرًا في معلولاتها ومُسبباتها لكن بجعل الله ذلك فيها فهي ليست مُؤثِّرةً بنفسها بل بما أودعه الله تعالى فيها من الأمر الموجب للسَّبب أو للمعلول .. وهذا القول هو المُتعيِّن وهو الصَّواب .. بدليل أن الله تعالى قد يسلب هذه العلة أو هذا السَّبب .. قد يسلبه التأثير ولا يبقى له تأثيرٌ إطلاقًا .. وما قصة إبراهيم عليه السلام بغريبة حيثُ أُلقي في نار تتأجَّج فقال الله لهذه النار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء:٦٩). فكانت بردًا وسلامًا مع أنها هي سبب للإحراق ولكنها صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم .. وهذا يدلُّ على أن الأسباب والعلل إنما تُؤثِّر بإرادة الله - عزَّ وجلَّ - وجعل هذه العلة أو السَّبب مُؤثِّرًا.

ومن فوائد هذه الآية والتي قبلها أيضًا: إثبات الرَّحمة لله - عزَّ وجلَّ - وهي من صفاته الذَّاتية الفعلية:

الذاتية: لأنَّ الله لم يَزَل رحيمًا بعباده ولا يزال.

الفعلية: باعتبار تعلُّقها بالمرحوم فإنها تتجدَّد باعتبار المرحوم لا باعتبار أنَّها صفة من صفات الله .. فهذا الذي رحمه الله من البشر حادثٌ بعد أن لم يكن فتعلقت به الرحمة.

ولا يخفى عليكم ما ذهب إليه الأشاعرة من إنكارهم الرَّحـمة على وجه الحقيقة وادِّعائهم أنَّه يُراد بها الإحسان أو إرادة الإحسان . . فـفسروها بالإرادة؛ لأنهم يُثبتون لله الإرادة، أو بالإحسـان؛ لأنه مخلوق مُنفصل ليس من صـفات الله، وهذا بلاشك قول باطل وضـعيف وقد مـرَّ علينا بيان تعليلهم لإنكاره والرَّد عليـهم . . قالوا: إنَّ الرَّحمـة تقتضي رقَّـة وليـنًا وضعفًـا وهذا لا يليق بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقـالوا أيضًا: إنَّ الرحمة لا يـدلُّ عليها العقل ونحنُ لا نُثْـبت من الصفات إلا ما دَلَّ عليـه العقل . . وقد بيَّنا أن هذا القول ليس بصواب:

أولاً ـ أنَّ الرحمـة قـد تقع من إنسان قوي وذي سُلطان ويُوصف بالرَّحـمة حتَّى من البشر.

وثانيًا ـ ادِّعاؤهم أنَّ العقل لا يدُلُّ عليـها باطل فإن العقل يدل عليهـا أكثر دلالة وأوضح دلالة من دلالة التَّخصيص على الإرادة . . وقد مرَّ علينا هذا كثيرًا.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)﴾

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الضمير هنا يعود على المكذبين للرُّسل .. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ و﴿مِّنْ﴾ هُنا زائدة، زائدة لفظًا لكنَّها تزيدُ في المعنى، فهي زائدةٌ في اللَّفظ وزائدةٌ للمعنى .. أي تُعطيه معنى جديدًا .. ما هو المعنى الجديد؟

المعنى الجديد: تأكيد النَّفي والتنصيص على عمومه أيْ: أيُّ آية تأتيهم فإنهم لا يقبلونها بل يُعرضون عنها ويستكبرون.

والآيات التي تأتي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تنْقسم إلى قسمين:

آيات كوْنيَّة .. وآيات شرْعيَّة.

فالآيات الشرْعية ما جاءت به الرُّسُل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، والإعْراضُ عنها يكون بالتَّكْذيب والاستكْبار: التَّكْذيب بالأخبار، والاستكبار عن الأحكام.

وأما الآيات الكونية فالإعراضُ عنها أن لا يهتم الإنسان بها وأن لا تُحرِّك منه ساكنًا وأن لا يوجل منها قلبه، وأنْ يقول كالذين رأوا العذاب ينزل من السماء: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ (سورة الطور: ٤٤). أو كالذين يقولون: إن الكُسوف ليس أمرًا مُخيفًا؛ لأنه شيء طبيعي ولا ينبغي أن يُخيف ـ نسأل الله العافية ـ أو كالذين يرون الزلازل والغرق والدَّمار من الرِّياح العاتية وغيرها ثم يقولون هذا أمر طبيعي لا يُحرك لهم ساكنًا ولا ريب أنَّ هذا يدلُّ على قسوة القُلوب وموتها وإلا فإنَّ الواجب على الإنسان أن يتَّعظَ بهذه الآيات.

فالإعراض عن الآيات الكونية معناه عدمُ المُبالاة بها وعدم الاكتراث بها وأن لا تُحرك من الإنسان ساكنًا ولا تَهُزَّ له عاطفة .. هذا الإعراض عن الآيات الكونية فيقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ يعني: إلا

قابلوها بالإعراض ولا يتأملونها ولا يُفكِّرون فيها . . فإذا جاءت الآيات الشرعية بخبر كذَّبوها مُباشرة وقالوا: هذا كذب هذا سحر هذا شِعْر.

وإذا جاءت الأحكام الشرعية اسْتكبروا عنها ولمْ يُذعنوا لها ولم ينقادوا لها بدون أن يتأملوا فيها، وما فيها من المصالح، وكذلك في الآيات الكونية لا يكترثون بها ولا يهتمون.

ففي هذه الآية دليل على أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يذكر أو يُبيِّن لعباده من الآيات ما يُؤمن على مثله البشر وجهُ ذلك: أنَّه لولا هذا لم يكن في الآيات فائدة.

ومن فوائدها: أنَّ بني آدم قد يعتون عن الآيات فيُعرضون عنها بدون نظر . . والواجب على الإنسان أن ينظر أولاً ثم يحكم ثانيًا . . ولهذا يُقال الحُكم على الشيء فرْعٌ عن تصوره . . فأنت انظر أولاً للآيات وانظر هل هي آيات مُقْنعة مُوجبة للصلاح فلتكن صالحًا بها . . هل هي لا تنفع؟ فحينئذ تُعْذَر بالإعراض عنْها.

ومن فوائد هذه الآية: بيانُ قسوة قُلُوب هؤلاء؛ فإنهم لم يقبلوا آية من الآيات . . دليلهُ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الرُّبوبية العامَّة لقوله: ﴿آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فأثبت الله تعالى أنه ربُّ هؤلاء وهو ـ سُبحانه وتعالى ـ ربُّ كلِّ شيء . . ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ (سورة النمل:٩١). كل شيء فالله ربُّه . . حتى الكُفار . . لكن نقول: أحيانًا تكون الرُّبوبية خاصة . . أي أنَّهُ يُراد بها رُبُوبية خاصَّة فيها مَزيدُ عناية واعتناء مثلُ قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (سورة الشعراء:٤٨). فإن هذه الرُّبوبية غير الرُّبُوبية العامَّة.

ومن فوائد الآية الكريمة: تقبيح حال هؤلاء، والتحذير من فعلهم لقوله: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ مع أنها جاءت مِمَّن؟ مِنْ ربِّهم الذي هو مالكهم وخالقهم وأمرهم إليه ومع ذلك يُعرضون.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧)﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قال المؤلف: «أيْ قال فقراء الصحابة: ﴿أَنفِقُوا﴾ علينا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الأموال». . هكذا سار المؤلف في تفسير الآية . . فجعل القائل هُمُ الفقراء، وعلى هذا فتكون الآية في سؤال الفُقراء من الأغنياء أن يُنفقوا . . يعني: إذا جاء الفقراء يسألون الأغنياء أن يُنفقوا تهكَّمُوا بهم وقالوا: كيف نُطْعمكم والله تعالى لم يشأْ أنَّ نُطْعمكم ولو شاء أن نُطْعمكم لأعطيْناكم بدُون سؤال . . هذا توجيهُ الآية على ما مشى عليه المؤلِّف، ولكن الذي ينبغي أن نجعل الآية عامَّة؛ لأنه أُبهم فيها الفاعل وإبهام الفاعل يُرادُ به في بعض الأحيان . . يُرادُ به التَّعميم . . فـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: إذا قال لهم أحدٌ من الناس سواءٌ كانوا الفُقراء يسألونهم الإنفاق أو كانوا الأغنياء من الصَّحابة مثلاً يُنفقون فيحثُّون الأغنياء من الكفار على أن يُنفقوا أيضًا . . فالصواب أن نُبقي الآية على إبهامها ليكون أعمَّ.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ الإنفاق بمعنى: البذْل والإعطاء.

وقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي: ممَّا أعطاكم الله. وفي قوله: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ دون قولهم: «أنفقوا من أموالكم» فيها تنبيه على أنَّ هذا الذي بين أيديكم ليس من كسبكم في الواقع ولكنه من رزق الله، فكان عليكم أن تنفقوا من هذا الذي رزقكم الله لأنَّ الله يأمُركم به، فالذي أمركُم بالإنفاق هو الذي أعطاكم هذا المال . . فكيف تُنكرون فضله وتستكبرون عن أمره فلا تُنفقونه!! فهذا هو في قوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

الجواب: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اللام هذه الأصح أنها على بابها وأنَّ المُراد بهـا الصلة يعني: قالوا قـولاً يصلُ للذين آمنوا . . من الذين آمنوا؟ هُمُ الذين قـالوا لهم: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ قال المؤلف: «استهْزاءًا بِهِم» يـحتمل ما ذكر المؤلف أنَّ استهزاء ويحتمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر عنادًا وتحجُّجًا.

يقـولون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ ، ﴿مَن﴾ هُنا بمـعنى: الذي . . ويجوز أن تكون نكرةً موصوفة . . أي نُطعم أحدًا لو يشاء الله أطعمه من دُوننا . . أو: أنْطعمُ الذي لو يشاء الله أطعمه . . و﴿لَوْ﴾ هُنا حرْفُ امتناع لامتناع وشرطها قوله: ﴿يَشَاءُ﴾، وجوابها: ﴿أَطْعَمَهُ﴾ . . وقد أتت على خلاف الأكثر . . حيث حُذفت اللام من الجواب . . والأصل: منْ لو يشاء الله لأطعمه فإنَّ جواب ﴿لَوْ﴾ إذا كان مُثبتًا فالأكثرُ فـيه إثبات اللام . . وقد تُحذف اللام . . وقد اجتمع الأمران في قوله تـعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (سورة الواقعة: ٦٣-٦٥). ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الواقعة: ٦٨-٧٠). فأتت اللام في جواب «لوْ» في الآية السابقة وحُذفت من الآية الثانية.

هذه الآية التي معنا من باب محذوف اللام . . ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ قال المؤلف: إنهم يقـولون ذلك استـهزاءًا أو تهكمًا . . يـعني: أنطعم قومًـا لو شاء الله لأطعمهم . . فإطعامهم إلى الله . . ويحتـمل أنه من باب الاحتجاج بالقدر فرارًا من اللوم . . يعني: أنُطعم قومًـا لوْ يشاء الله أطعمهم فأطعـمناهم، ولكن الله تعالى لم يشأ أن نُطعمهم فلا نُطعمهم . . هذان وجـهان . . الوجه الثالث: يُحتمل أنهم قالوا هذا اعتراضًا على القـدر . . كما يقوله الاشتراكيون والشُّيـوعيُّون . . لماذا الله يجعل هذا فقيرًا ولا يُعْطيه؟! فكأنهم في جوابهم هذا يعترضون على الله . . يقولون: الذي

يُطعـمهم الله . . مـا نحن المسؤلين عـنهم . . المسؤول عنهم الله وكـان على الله أن يُطعمـهم، لكن لم يشأ ذلك . . فيكون هذا فـيه نوعٌ من الاعتـراض على القدر . . فهـذه ثلاثـة أوجـه: الاستهـزاء، والثاني ـ الاحتجـاج بالقدر، والثالث ـ الاعـتراض على القدر.

ثم قالوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في قولكم لنا ذلك مع مُـعتقدكم هذا ﴿إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن يعني· هؤلاء الكفار الذين أُمروا أن ينفقوا على الفقراء يقولون للذي أمرهم: أنت تعتقـد أن الله لو شاء لأطعمهم . . فيقول: نعم أعـتقد ذلك. يقولون: إذًا . . كيف تأمرنا أن نُطعـمهم والأمر بمشيئة الله؟! مـا أنت إلا في ضلال مبين . . وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ ، ﴿إِنْ﴾ هنا نافيـة . . وما الدَّليل على أنهـا نافيـة؟ لوجود إلاَّ بعدها وإذا جاءت إلا بعـد إن فهي دليل على أنَّ ﴿إِنْ﴾ نافية . . ومـرَّ علينا قبل أيَّام قليلة أنَّ ﴿إِنْ﴾ ترد في اللغة العربية على أربعة أوجه:

الأول ـ تأتي زائدة، ومثاله:

بنـى غُـــدانة مـــا إنْ أنْتُمُ ذَهَـبُ ❖❖❖ ولا صــريف ولـكن أنْتُمُ الخَــزَفُ

الثاني ـ وتأتي أيضًا: شرطيـة . . مثاله: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ (سورة النساء: ١٣٥) . . هذه إن شرطية.

ثالثًا ـ تأتي نافية . . مثاله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

رابعًا ـ وتأتي مُخففَّة من الثَّقيلة . . مثاله: قول الشاعر:

وإنْ مــالكٌ كـانت كـرام المعــادن

وقول المؤلف: ﴿مُّبِينٍ﴾؛ قال: «أيْ بيِّن» . . فـهي من بانَ الناقص أوْ منْ أَبَانَ المتعدِّي؟ أبان تأتي مُتعدِّيةً ولازمة . . فيُقال «أَبَانَ الشيء» بمعنى «أظهره» ويُقال: «أَبَانَ الصُّبْحُ» بمعنى: «ظَهَرَ».

إذًا . . «مُبين» مِنْ الـرُّباعي من أبان يُبين فهـو مُبين . . يحتـمل أن تكون بمعنى «بيِّن» على أنَّها من القاصر، ويحتمل فـي غير هذا السياق أن تكون بمعنى أبان مثل: ﴿وقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الحجر: ١).

قال المؤلف: «وللتصريح بكفرهم موقعٌ عظيم»، ﴿وإذَا قِيلَ لَهُمْ أنفقُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل «قالوا» ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ . . فله موقعٌ عظيم . . ما هذا الموقعُ العظيم؟ هذا الموقع الـعظيم أولاً التصـريح بكفـر هؤلاء لو قال «قـالوا» لقلنا: لعلهم قالوا ليس بسـبب الكفر، ولكن بسبب البُخل . . هذه فـائدة: أنَّ هذا الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتَّصريح بكفرهم.

الفائدة الثانية ـ أنَّ مثل هذه المقالة لا تصـدر إلا من كافر فيكون الكفر عامًا لكل من قال هذه المقـالة . . وقد مرَّ علينْا فـيما سـبق أنَّ الإظهار في موضع الإضـمار له ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى ـ التصْريح بالحُكم على هؤلاء الذين يرجعُ إليهم الضَّمير.

والثاني ـ أنَّ منْ قال بمثل هذا فهو كافر أو ظالم حسب السياق.

والثالث ـ العلة وأنَّ هذا القول سببهُ كذا وكذا حسب ما يُوصف.

اللام بمعنى عنْ؛ يعني: قـال الذين كفـروا عن الذين آمنوا . . يعني: قـالوا في حق الذين أُمروا بالإنفاق عليهم وهم المؤمنون: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾. معناه أنها للصلة يعني أن هذا القول واصل للذين قالوا: ﴿وإِذَا قِيلَ لَهُمْ أنفقُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ هـذا القـول ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين قيل لهم ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للقائلـين . . فتكون اللام للصلة أي أنها تصل هذا القول بالقائل الذي أورد على هؤلاء قوله: ﴿أنفقُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

لأنه يقـول: إذا كنتم تعتـقدون أنَّ الأمـور بيد الله فكيف تأمـروننا أن نُنفق على هؤلاء ولو شاء الله لأطعمهم من دوننا!! فأنتم بأمركم إيانا مع اعتقادكم أنَّ الأمر بيد الله يُعتبر هذا ضلال منكم.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ......﴾ إلى آخره.

يُستفاد من هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين كفروا يُوعظون ويُنَبَّهون ولكنهم يستكبرون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فالحجة قائمة عليهم.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الإنسان إذا أنفق بأمر الله فلا مِنَّة له على الله؛ لأنَّ الله تعالى هو الذي أعطاه لقوله: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمُتكلم الواعظ أن يُبين الأسباب التي تَحثُه على فعل ما وُعظ به لقوله: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء الذين قالوا هذا الكلام: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ إنهم كُفار لقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن فوائدها: أنَّ البُخل من صفات الكافرين لقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وإذا كان من صفات الكافرين فإنَّهُ لا ينْبغي للمؤمن أن يتَّصف به .. كل ما كان من صفات الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم فإنَّ اللائق بالمُسلم ألا يفعله لأنه إذا فعلهُ صار مُتشبِّهًا بالكافرين في هذه الخصلة.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يقول كلمة الحق يُريد بها الباطل ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ فنحن نؤمن بأنه لو شاء الله لأطعم هؤلاء، لكن حكمته - عزَّ وجلَّ - اقتضت أن يجعل هؤلاء فقراء وهؤلاء أغنياء.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن المشركين يقرون بمشيئة الله وأنها نافذة في كل شيء لقوله: ﴿مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ والمُشركون أو الكافرون لا يُنكرون الربُوبية أي لا يُنكرون رُبُوبية الله - عزَّ وجلَّ - بل يُقرون بها حتى الذين تظاهروا بإنكارها إنما يُنكرونها بألسنتهم لقوله تعالى عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (سورة النمل: ١٤). ولقول مُوسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ

بَصَائِرَ﴾ (سورة الإسراء:١٠٢). لكن يُنكرون الرُّبوبيـة استكبـارًا ومُكابرة وإلا فـإنَّ قرارة نُفُوسهم تشهد بها.

ومن فوائد الآية الكريمة: الأساليب الدعائية التي يستـعملها المُشركون من قديم الزمان .. حـيث قالوا لهؤلاء المؤمنين أو لهـؤلاء القائلين: ﴿**أنفقُوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**﴾ قالوا لهم: ﴿**إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ وهذا الوصف المُشين للمـؤمنين من الكافرين هذا لم يزل ولا يزال موجودًا إلى يومنا هذا فهم يصفُون أهل الخير بالأوصاف العديدة المُنفِّرة منهم أو التـي يقْصدون بها اسـتعداء الحُكام علـى هؤلاء المؤمنين .. يقولون: هؤلاء رجعيون، هؤلاء مُتخلِّفون، هؤلاء مُتـشدِّدون هؤلاء مُتزَمِّتُون!! وما أشبه ذلك من الكلمات الـتي يصفون بهـا أولياء الله عزَّ وجلَّ .. ونحنُ لا نُنْـكر أنَّه يُوجد في أهل الخيـرْ وأهل الدِّين من يغلو ويُبـالغ في عمله أو في وصـفه لغـيره من التكفـير والتَّفسيق حتى يُكفِّر منْ لم يُكفِّره الله ويُفسق منْ لم يُفسِّقه الله، نحن لا نُنكر أنَّ هذا موجود، ولكن يبدُو لي ـ والله أعلم ـ أنْ وُجُود مثل هؤلاء المتـشددين إنما جاء نتيجة لتطرف الآخرين في المعاصي والفُسوق فيريدون أن يُحدثُوا ردَّ فعل بالنِّسبة لهؤلاء ولو استقام الناس كلهم على الدين ما حـصل هذا التطرف، لكن إذا رأوا جانبًا مُتطرفًا في الفسـوق والعصـيان وأنه مسـتمـر على ذلك ومُقر على ذلـك من بعض وُلاة الأمور حصل ردُّ فعل مُـقابل لهؤلاء فتشدد هؤلاء في مـقابل تراخي هؤلاء، ولكن التَّوسط هو الخير .. ومع هذا فإن المتوسطين المُعتدلين لا يسلمون من ألسنة المُتطرفين الضالين ولا من ألسنة المُتطرفين الغـالين .. فالغالون مـثلاً: يقولون لهـؤلاء المُتوسطين: أنتم مُفرطون أنتم مُداهنون، أنتم تُقرُّون أهل الشَّر.

وأولئك يقـولون ـ أهل الشَّـر ـ: هؤلاء مُتـشـدِّدون هؤلاء يُريدون من الناس أن يكونوا على شاكلتهم وإلا فهم كافرون .. وما أشبه ذلك .. المهم: أنَّ ألقاب السُّوء التي يُلقب بها أعداء الله لأولياء الله لم تزل مـوجودة ولا تزال موجودة إلى يومنا هذا

.. حتَّى أهل البدع يُلقبون أهل السنة بألقاب السُّوء يقولون: هؤلاء المُشبهة ـ إذا أثبتوا الصِّفات على الحقيقة ـ وهؤلاء حشوية وهؤلاء نوابت .. وما أشبه ذلك من الكلمات التي تستوجب النُّفور منهم والحط والنيل من قدرهم .. ولكن هل هذا يضرُ أهل الخير؟ لا .. هو لا يضرُّهم .. لكن يُؤذيهم .. والأذية غيرُ الضَّرر .. قد يتأذَّى الإنسان بالشيء، ولكن لا يتضرَّرُ به .. فها هو الإنسان يتأذَّى من رائحة البصل والكُرَّاث والشيء المُستقذر ومع ذلك لا يتضرَّرُ به .. وقد أثبت الله لنفسه أنَّه يُؤذَى من المُنافقين وغيرهم ونفى عن نفسه التَّضرُّر فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ (سورة الأحزاب:٥٧). وقال في الحديث القُدسي: «يُؤذيني ابْن آدم يَسُبُّ الدَّهْر»، وقال في الحديث القُدْسي: «يا عبادي، إنَّكم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني».

المهم: أنَّ مثْل هذه الألقاب لاشكَّ أنها تُؤذي المُؤمنين ويتأذون منها وتضيقُ بها صُدُورهم لكنَّها لا تضرهم بل هي نافعةٌ لهم؛ لأنهم إذا صبرُوا عليها أجرُوا على الصَّبر.

وإذا تأذوا بدون صبر صارت كفارة لهم؛ لأنه لا يُصيب المُؤمن من همٍّ ولا أذى ولا غَم إلا كفَّر الله بها عنه حتَّى الشوكةُ يشاكها لاسيما وأنه يُؤذى هُنا في ذات الله عزَّ وجلَّ، فيكون هذ منقبةا له ويكون هذا الإنسان الذي أوذي في الله قد ناله ما نال أولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الأنبياء والشهداء والصِّدِّيقين .. وقد أخبر النبي ﷺ أنه يُبْتلى الصَّالحون الأمْثل فالأمثل .. فإذا كان فيه قُوَّة في دينه فإنَّه يُؤذى أكثر؛ ليكون أبلغ في الامتحان، وإذا كان دينه أقل فإن الله قد يرحمه فلا يحصل له من الأذيَّة ما يحصل للآخر .. وقد يبتليه الله عزَّ وجلَّ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ (سورة الحج:١١). نسأل الله السَّلامة.

ومن فوائد الآية الكريمة: المُبالغة من أعداء الله بما يصفون به أولياء الله لقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ كأنهم حصروا حالهم من كل وجه في الضَّلال المُبين . . كأنه لا هداية فيهم إطلاقًا . . ما أنتم إلا في ضلال، وهذا غاية ما يكون من العدوان من هؤلاء.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله . . وهي كثيرة في القرآن ولكن كل ما ذكر الله تعالى من المشيئة فهي مقرونة أو مقيدة بالحكمة إذ ليست مشيئة الله بمجرد مشيئة بل هي مقرونة بالحكمة.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)﴾

يقـوله مَنْ؟ يقـوله الكُفَّـار المُكذبُون بوعـد الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ ومنه القـيامـة .. و﴿مَتَىٰ﴾ هُنا استْفهام استبعاد وتحدٍّ، يعني يقـولون مستبعدين هذا الأمر متحدين من يقوله، يقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿مَتَىٰ﴾ هذه خبـر مقدم و﴿هَٰذَا﴾ مُبتدأ مؤخر. وذلك لأن ﴿مَتَىٰ﴾ واقعة موقع النَّكرة. و﴿هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ معرفة .. والمعروف أنَّ المعرفة هو المبتدأ والخبر يكون نكرة وقد يكون معرفة، لكن إذا وُجد نكرة ومـعرفة وأمكـن أن تكون المعرفـة هي المُبتـدأ فهي المُبـتدأ .. لماذا؟ لأن المُبـتدأ محكوم عليه فلابُدَّ أنْ يكون معرفة والمعرفة كما تعلمون تُعيِّن المدلول وتُخصصهُ فلابُد أن يكون المحكوم عليـه معلومًا ولهـذا قال العلمـاء بهذه القاعـدة: إذا وُجد كلمـتان إحداهما معـرفة والأُخرى نكرة وأمكن أن تكون المعرفة هي المبتـدأ فلتكن هي المُبتدأ، وتعليل ذلك أنَّ المُبتدأ محكوم عليه فلابُد أن يكون مـعلومًا مُتعينًا يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: «الوعد بالبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾». يقولون هذا استبعادًا وتحديًا، ولهذا قال: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كُنْتُم صادقين بأنَّنا نُبْعَث فمتى يكون؟ ولاشك أنَّ هذا شُبهـة داحضة؛ لأن الذين قالوا بالبعث لم يُعـينوه بيوم مُعين حتَّى يقولوا: أعطونا البعث.

وانظر إلى حُجتـهم في آية أخرى تكون أبين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة الجاثية:٢٥). وهل الذين قالوا: إنهم يُبعثون قالوا: إنكم تُبعثون في الدنيا حتَّى يقولوا اءتُوا بآبائنا؟! أبدًا ما قالوا هكذا .. إنَّما قال: سَتُبْعَثُـونَ يوْم القيامة .. فقولهم: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا﴾ يعني: ابعثوهم لنا!! هذا تحدٍّ في غـير مـحله؛ لأنهم ما قيل لهم: إنـكم سَتُبْـعَثُون في الدنـيا .. بلْ في يوم القيامـة .. هم يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ .. وما الجواب؟ ذكر الله هذا في القرآن: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (سورة الجاثية:٢٦). فالوعد لمْ يحن وقته بعد .. انتظروا .. انتظروا وسوف يأتي هذا الوعد.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)﴾

﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ هذا الجواب أيضًا في هذه الآية أجاب .. قال: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون. ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهي نفخة إسرافيل.

«نظر» تُستعمل مُتعدِّية في نفسها، وإذا كانت مُتعدية في نفسها فهي بمعنى الانتظار مثل: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ﴾ (سورة فاطر:٤٣). ولها أمثلة.

- وإن تعدَّت بـ «في» صار المراد بها نظر الفكر تقول: «نَظَرَ في كذا» أيْ: فكَّرَ فيه وتأمَّله.
- وإذا تعدت بـ «إلى» فهي النَّظر بالعين: تقول: «نَظَرْتُ إليْه» ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القيامة:٢٢-٢٣). ما ينتظر هؤلاء ﴿إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾. وهي نفخة إسْرافيل الأولى.

﴿صَيْحَةً﴾ يعني: يُصاح بهم .. وذلك في النَّفخة الأولى للصُّور .. لأن هذه النَّفخة يكون لها صوت عظيم مُزعج يفزعُ الخلائق .. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ (سورة النمل:٨٧). كل الخلائق تفزع إلا من شاء الله عزَّ وجلَّ فيفزعُون فزعًا شديدًا يُؤدي إلى الصَّعْق إلى الموت .. وحينئذ تكون النَّفخة واحدة فيها فَزَع وفيها صعق.

قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ﴾، تأخذهم كما يأخذ العدو عدوه بحيث لا تُمهلهم ولا تُنظرهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾. بالتشديد أصلهُ يختصمون نُقلت حركة التاء إلى الخاء وأُدْغمت في الصَّاد: أي: وهُم في غفلة عنها بتخاصُم وتبايع وأكلٍ وشُرْب وغير ذلك. أصل «يَخِصِّمُون» أصله: يختصمون .. يقول: «نُقلت حركة التاء إلى الخاء» والخاء في الأصل ساكنة فصارت «يَخَصِّمُون» والقراءة

التي في المُصحف: ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ وكأنها كُسرت الخاء مُراعاة لكسر الصَّاد ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ فيها القراءة الثالثة: «يَخْصِمُون» كـ: يَضْرِبون. والقراءة الرابعة التي أشار إليها المحشِّي: هو أن نجعل الخاء لا مفْتوحة خالصة ولا مكسورة خالصة، الفتحة فتكون بين الفتحة والكسْرة . . هذه قراءة رابعة ما أشار إليها المُفَسِّر.

القراءة الثالثة أيضًا ما أشار إليها وهي القراءة الموجودة في المُصحف ﴿يَخِصِّمُونَ﴾ . . والقراءة الموجودة في المصحف وجهها المحشِّي بأنَّ الحركة أُزيلت من التاء فصارت ساكنة . . فلما صارت ساكنة حُرِّكت الخاء بالكسر لالتقاء الساكنين على الأصل . . فالمهم المؤلف رحمه الله يقول: «أيْ: وهُمْ في غَفلَة عَنْها بتخاصُم وتبايُع وأكل وشُرب وغير ذلك». فالصَّيحة إذًا . . أخذتهم على غرَّة وهُم غافلون عنها لاهُون بأُمورهم ودُنياهم يتخاصم بعضهم مع بعض . . وهذا يدلُّ على عدم ائتلاف قُلُوبهم في تلك الساعة وأنهم من جنس البهائم . . ولهذا لا تقُوم الساعة إلا على شِرار الخلق.

ولم يذكر الله - عزَّ وجلَّ - سوى التَّخاصم كأنَّ أكثر ما هُمْ عليه في ذلك الوقت هو التَّخاصم والتَّباغُض والتَّدابر؛ لأنه ما عندهم إيمان . . هُم شرار الخلق في مُعاملة الله . . وشرار الخلق في التَّعامل فيما بيْنهم.

«وفي قراءة» «يَخْصِمُون» كيضْربون» أيْ يخْصِمُ بعْضهم بعضًا فيكون الظُّهور للغالب في الخُصومة لا للحق؛ لأنهم في هَرْج ومَرْج وليس عندهم إيمان ولا مروءة ولا خُلُق . . هُمْ شرار الخلق . . فكانت هذه والعياذ بالله حالهم عِنْدَ قيام الساعة.

تعنُّت هؤلاء ومُكابرتهم ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ فيُستفاد من ذلك: أنَّ بني آدم يصل إلى حد التَّحدي لربِّ العالمين ولمن بلَّغ رسالته في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾.

وفيه أيضًا من فوائدها: أنَّ الرسل بلغوا البلاغ المُبين وبيَّنوا للناس أنهم سيُبعثون ويُجازون وأنهم وُعِدُوا بذلك بقولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾.

ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين قالوا هذا القول تحدِّيًا واستبعادًا لم يُصدِّقوا الرسل بل كذَّبوهم . . وليْتهم نظروا في الأمر وفكَّروا، لقوله هُنا: ﴿إن كُنتُمْ صَادقينَ﴾.

ومن فوائد الآية التي بعدها: ﴿مَا يَنظُرُونَ إلاَّ صَيْحَةً﴾: إثبات علم الله عزَّ وجلَّ وسمعه لأن قوله: ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ جواب قولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾.

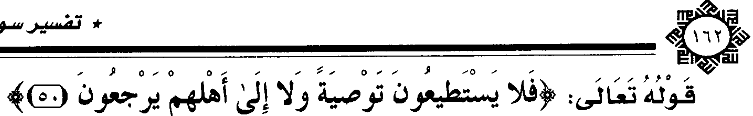
ومن فوائدها: تهديد هؤلاء المُكذبين بهذه الصَّيحة التي تأخذهم.

ومن فوائدها: بيانُ قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث يُؤخذُ هؤلاء كلهم بصيحة واحدة لقوله: ﴿إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وهنا أكَّد الصَّيحة بـ «واحدة» ليُبين أنَّه لا يُعيدها مرَّةً ثانية . . بل بأوَّل مرَّة يُؤخذون.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ هذه الصَّيحة تأتيهم بغتة لقوله: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ غافلون عنها.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: بيان حال هؤلاء الذين تقوم عليهم القيامة وتأخذهم الصَّيحة، وهي: الخُصُوم والتَّنازع . . مما يدل على سُوء أحوالهم وسوء أخلاقهم وأنَّهم لا همَّ لهم إلا هذا الأمر إلا المُخاصمة والمُنازعة شُحًا وطمعًا في الدنيا وغفلة عن الآخرة ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ الساعة لا تقوم إلا عَلَى شرار الخلْق» وهؤلاء من المعلوم أنهم يأكلون ويشربون لكن لم يذكر الله إلا هذا التخاصم؛ لبيان سوء حالهم في ذلك الزمن.





قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠)﴾

يعني: إذا أخذتهم لم يتجاوزوا مكانهم، بل ولا يستطيعون الكلام؛ لِشدَّة ما هم فيه من الفزع ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ يعني: لا يستطيعون أن يُوصُوا إلى أهليهم وإلى صِغارهم وإلى سُفهائهم؛ لأنَّ الأمر عظيم لا يتكلمون فيه.

﴿وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم لا يتجاوزون مكانهم، فلا هم الذين وصلوا إلى أهليهم وشاهدوهم ولا هم الذين استطاعوا أن يوصوا فيهم أحدًا .. وهذا يدل على أنَّ الأمر الذي يأخذهم أمر عظيم .. وهو كذلك .. لأن الله تعالى يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (سورة النمل: ٨٧). ﴿وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾. من أسواقهم وأشغالهم بل يموتُون فيها.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)﴾

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ ـ وهُوَ قَرْنٌ ـ النفخة الثانية للبعث، وبين النفختين أربعون سنة، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ . . النَّفخ في الصُّور يذكره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ دائمًا بالبناء للمجهول . . ﴿وَنُفِخَ﴾ لأنَّ الإبهام أبلغ في التهويل والتعظيم مما إذا ذُكر الفاعل . . ولهذا تجدون قول الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ (سورة طه:٧٨). أبلغ ممَّا لو بُين هذا الذي غشيهم . . فالإبهام أحيانًا يُفيد التَّهويل والتعظيم. هُنا أبهم النَّافخ، وفي كل الآيات مُبهمة، النَّفخ مُبهم لبيان عظم هذا الأمر. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنَّ الذي وكلِّ بنفخ الصور هو إسرافيل أحد حملة العرش.

قال المؤلف: «النَّفْخة الثانية للبعث، وبين النَّفختين أربعون سنة ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ إلى آخره.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث . . وقد ذكر الله تعالى النَّفخ في الصُّور في هذه الآية وفي سورة الزُّمر، وفي سورة النمل . . وكذلك في سورة الأنعام وغيرها. المهم أنَّ العلماء اختلفوا في النَّفخات: هل هُنَّ ثلاثة أو هُما اثنتان؟!

منهم من قال: إنهما اثنتان. ومنهم من قال: إنها ثلاثة . . والظاهر أنهما اثنتان فقط. لكن الأولى منهما فيها فزع وصعق، والثانية فيها بعث . . وهذا ظاهر ما ذهب إليه المؤلفُ حيث قال: «النَّفْخة الثانية للبعث» فتكون نفختان لكن الأولى منهما يحصل فيها فزع عظيم ثمَّ موت.

وقال بعض العلماء: إنها ثلاث: النفخة الأولى فزع . . والنفخة الثانية صعق وموت، والنفخة الثالثة بعث.

في سورة الزُّمر قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (سورة الزمر:٦٨). فذكر اثنتين. في

سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ (سورة النمل:٨٧). ثم ذكر يوم القيامة .. وطوى ذكر الثانية .. فيكون هذا الفزع قبل الموت، ثم الموت ثمَّ البعث.

قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ والصور قرنٌ عظيم واسع ورد في الحديث أنَّ سعته كما بين السماء والأرض .. يُنفخ فيه للبعث فتخرج الأرواح منه وتأوي كل روح إلى جسدها الذي تعمرُهُ في الدنيا لا تُخطئهُ على كثرة الأرواح الخارجة من هذا الصُّور لا تُخطئُ رُوح جسدها الذي كانت تعمره في الدنيا .. حتى لو قُدِّر أنَّ عشرات الناس دفنوا في مكان واحد فإنَّ روح كُلٍّ واحد لا تأوي إلا إلى جسدها .. تقدير العزيز العليم جلَّ وعلا.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي المقبورون. ﴿مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ القُبور. ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ يخرجون بسرعة.

قوله: ﴿فَإِذَا هُم﴾ الفاء: عاطفة .. و«إذا» حَرْفٌ دالٌ على المُفاجئة. و﴿هُم﴾ مُبتدأ. وجملة ﴿يَنسِلُونَ﴾ خبره. و﴿مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ و﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ مُتعلقة بـ ﴿يَنسِلُونَ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم﴾ يعني: بمُجرد ما يحصل النَّفخ لا يحصل وقتٌ بينهما - أي بين النَّفخ في الصُّور والخروج من القُبور - ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ من القبور يخرجون إلى الله تعالى مُسرعين.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ الضمير في ﴿هُم﴾ قال المؤلف: «أي المقبورون» .. من أين علمنا أن المراد المقبورون؟ لقوله: ﴿مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ لأن الأجداث هي القبور.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ﴾ هذا بناء على الأغلب الكثير .. لأن من الناس من لا يكون في جَدَث .. بل يُلقى في اليَمِّ أو يُلقى في الأرض على ظاهرها أو تأكله السِّباع أو يحترق وتذروه الرِّياح .. لكن الغالب والأكثر أنَّهم في القُبور. وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ فيها تقديم المعمول لإفادة الحصر .. يعني: لا ينسلون إلى دُنيا أو إلى قريب أو إلى صديق وإنَّما ينسلون إلى الله عزَّ وجلَّ.

والنَّسَلاَن معناه: السيْرُ بسرعة .. السيْرُ بسُرعة كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٦). أي يخرجون بسرعة.

ومن فوائد الآية الكريمة التي قبل هذه وهذه أيضًا: أن النَّفخ في الصُّور إذا وقع عامل الموصول موافق لعامل المحذوف لفظًا ومعنى، هذا هو المعروف عند النحويين .. ولكن الرَّاجح أنه يجوز حذف العائد سواء كان عامله من جنس عامل الموصول أو من غير جنسه .. وأنَّ القاعدة التي ذكرها ابن مالك بقوله: «وحذْفُ ما يُعْلَمُ جائز» هذه عامَّة في كل شيء ليْس في المُبتدأ أو الخبر .. بل في كل شيء.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢)﴾

وقوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾، ﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسمٌ من أسماء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ من الأسماء المُختصَّة به التي لا تُطلق على غيره فلا يُسمى أحد رحمن. وأمَّا «رحيم» فيُوصف بها الخلق.. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة:١٢٨). لكن «رحمن» لا يجوز أن يُوصف بها أحد، والفرق بينها وبين الرحيم أنَّ «الرحيم» باعتبار الفعل، «الرَّحمن» باعتبار الوصف.. فإذا قال: الرحمن يعني: ذُو الرحمة الواسعة، والرَّحيم الذي تصلُ رحمته إلى من شاء من عباده.. وهُنا ذكر ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ ولم يقُل: «ما وَعَدَ الله» لأنَّ رحمة الله يوم القيامة تتجلى تجلّيًا أكثر منها في الدنيا.. فإن لله تعالى مائة رحمة جعل منها رحمة في الأرض، فإذا كان يوم القيامة صار له مائة رحمة «التِّسعة والتسْعون الباقية والرحمة الأولى».

وهذا يدل على تجلي رحمة الله تعالى في ذلك اليوم، ولهذا قال هُنا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.

﴿الرَّحْمَنُ﴾ مُشتق يدل على صفة الرحمة.. ويجب علينا في أسماء الله تعالى أن نُؤمِنْ بالاسم وما دلَّ عليه من الصِّفة والآثار المُترتِّبة على ذلك.. يقول والحكم.

فهنا: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسمه، والرَّحمة صفتهُ، ويرْحَمُ من يشاء فعله.. فعله سبحانه وتعالى وهو أثر الرَّحمة.

قال: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ وعد الرحمن بأنه سيكون يوم يُبعث فيه الناس ويُجازى فيه المُحسنُ بإحسانه والمُسيء بإساءته.. ومُجازاة المُحسن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

قال: ﴿وَصَدَقَ﴾ فيه ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾ .. ﴿وَصَدَقَ﴾ بمعنى: أخبر بالصِّدق، و«صَدَّق» بمعنى: صدَّقَ القائل .. فالتصديق من المُخاطب والصِّدق من المُتكلم .. يُقال «صَدَقَ» ويُقال «صَدَّق».

«صَدَقَ» بمعنى أخبر بالصِّدق قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ (سورة آل عمران:١٥٢). وصدَّق القائل .. يعني: أقرَّ بقوله واعترف به .. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (سورة الزمر:٣٣). فهو صادق مصدق.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾. في هذا دليل على شدَّة المُكذبين الذين يُكذبون بالبعث إذا بُعثوا يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾. ودليل ذلك قولهم: ﴿وَيْلَنَا﴾ وهذه الكلمة دُعاء بالثُّبور والحسرة على من نطق بها.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ عذاب البرزخ بالنِّسبة لعذاب الآخرة هيِّن حتَّى إنَّه مثلُ النَّوم عند النائم.

ومن فوائد الآية الكريمة: توبيخ هؤلاء المُكذِّبين حين يُقال لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الله تعالى صادقُ الوعد لا يُخلفه .. وذلك لأنَّ إخلاف الموعد يكونُ من أحد أمرين إمَّا الكذب .. وإمَّا العجز وكلاهما مُنتف عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا كذب في وعده ولا عجز عن تنفيذه.. ولهذا فهو ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يُخلفُ الميعاد لكمال صدقه وقدرته.

ومن فوائد الآية الكريمة: صدق الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما أخبروا به من البعث وغيره .. لقوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

ومن فوائدها: أنَّ المُشركين كانوا يُقرُّون بالحق .. لكن متى؟ إذا شاهدوا الحق .. والإقرار بالحق بعد مُشاهدته لا ينفع؛ لأنَّ الإقرار بالحق إذا لم يكن غيبًا لم يكن الإنسان مؤمنًا بالغيب بل كان مؤمنًا بالشهادة، فإن قُلت: قال الله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ (سورة الأنعام:٢٣). فهنا أنكروا الشِّرك مع أنهم كانوا مُشركين .. بل إنهم يُقرون بشركهم كما قال تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا**﴾ (سورة النساء:٤٢).

فكيف الجمع بينهما أن يُقال: إنَّ يوم القيامة ليس لحظة ولا ساعة قليلة بل هو خمسون ألف سنة .. فهم يتقلَّبون .. أحيانًا يُقرون بكل ما عملوا وأحيانًا يُنكرون إذا رأوا نجاة المؤمنين ﴿**قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**﴾ لعلهم ينجون كما نجا غيرهم .. ولكن يُختمُ على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وأرجلهم .. وحينئذ يُقرون ولا يكتمون الله حديثًا.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَالْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة . . حين يُحضرُ الناس للفصل والقضاء . . فـ «الـ» هُنا للعهد الحُضوري . . يعني: ففي حضـرتهم لذلك اليوم حينما يُحضرون ﴿لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ وقوله: ﴿لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أي: لا تُنقص . . والنقص يكون بأحد أمرين . . إما بزيادة السَّيِّئات . . وإما بنقص الحسنات . . وكلا الأمرين مُنتف كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ (سورة طه:١١٢). أي: لا يخاف هضـمًا من حـقه في الحسنات ولا ظُلمًـا بزيادة السيئات. يقول: ﴿لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ و«نَفْس» نكرة في سياق النَّفي فتشمل كل نفس . . حتى الكافر يكون عذابه على حسب عمله . . ولهذا قال: ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني: لا تُكافئُون على أعمالكم إلا مـا كُنتم تعملون . . قال المؤلف رحمه الله: «إلا جَزاء ما كُنْتُم تَعْملون».

وإنما قدَّر جزاء لئلا يتسلط الفعل على نفس العمل . . والعمل قد مضى وانقضى والذي يُوجـد في يـوم القـيامـة هو الجزاء ولهـذا قال: «إلا جزاء مـا كُنْتُم» لا نفس العمل . . فإنَّ العمل كان في الدُّنيا ليس في يوم القيامة . . والذي في يوم القيامة هو الجزاء . . فلهذا قَدَّر المؤلِّف «إلا جزاء ما كُنتم تعملون».

فإن قال قائل: كلام المؤلف هنا أفلا يكون مُنتقدًا لأنه كالاستدراك على كلام الله عزَّ وجلَّ؟

فالجواب على هذا أن يُقال: لا . . ليس بمُنتقـد وليس مُقْتضاه الاسـتدراك على كلام الله . . لأن المؤلِّف أراد أن يُفـسر المعنى المُراد ولم يُرد أنَّ في الكلام نقـصًا . . وقد علم في البلاغة أنَّ الإيجاز نوعان: إيجاز حذف . . وإيجاز قصر . .

وإيجازُ الحذف معناه: أن تكون الجُملة فيها شيءٌ محذوف يُعلم من السِّياق . .

وإيجاز قصر: أن تكون الجملة ذات كلمات يسيرة ولها معان كثيرة.

فعلى كلام المؤلف يكون في الكلام إيجاز حذف . . فإذا قال قائل: إنَّ هذا التركيب الذي ذكره المؤلف فيه شيءٌ من الرَّكاكة «لا تُجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون» إذا قُورن بقوله: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فالجواب: نعم: القرآن أفصح بلاشك وأبين وأسد لأنَّ التعبير عن الجزاء بالعمل أبلغ في التأثير على النفس . . فإذا علم الإنسان أنه لا يُجزى يوم القيامة إلا عمله فإنه سوف يزدجر عن المُحرمات وسوف يقوى على فعل المأمورات . . لأنه يعلم أن عمله هذا نفسه هو الذي سيُجزاه يوم القيامة . . فالذي يظهرُ لي أنَّ الكلام لا يحتاج إلى هذا التقدير الذي ذكره المؤلف، لأن جعل الشيء الذي هو العمل هو الذي يُجزى به الإنسان أبلغ في إثارة النَّفس كما قرَّرْناه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا . . و﴿تَعْمَلُونَ﴾ هذه خبر كان، والجملة تحتاج إلى عائد يعود على الموصول . . على «ما» لأنه قد تقرَّر في علم النَّحو أن كل اسم موصول يحتاج إلى عائد يربطه بصلته . . كما أنَّ كل خبر للمبتدأ يكون جُملة يحتاج إلى رابط يربط بين الجملة الخبرية وبين المُبتدأ التي هي خبرٌ عنه.

هنا نقول: إنَّ العائد محذوف، أي: ما كُنْتُم تعملونه.

العمل: يُطلق بلاشك على الفعل، ويُطلق أيضًا على القول، ويُطلق على عمل القلب وهو الرُّكون إلى الشيء والاطمئنان به . . فإذا أُطلق العمل شمل هذه الثلاثة:

❖ عمل القلب: وهو ركونه إلى الشيء ورضاه به وطمأنينته به هذا يُسمى عمل القلب.

❖ قول: يعني: عمل اللسان.

❖ فِعْل: عمل الجوارح.

هذا إذا أُطلق العمل .. أما إذا قيل: عمل وقول .. أو: قولٌ واعتقاد وعمل .. فإنَّ العمل يُفسر هنا بالفعل الذي هو عمل الجوارح .. وهذا يكون كثيرًا في اللغة العربية وفي القرآن وهو أنَّ الشيء إذا أُفرد يكون شاملاً، وإذا قُرن بغيره صار خاصًا لأنه إذا قُرن بغيره صار الكلامُ على جهة التَّقسيم .. والتَّقْسيم لابُد فيه من مُقسم، المُقسَّم يكون كل قسم منه ضداً للقسيم الآخر.

والخلاصة الآن: أنَّ المُراد بالعمل هُنا عمل القلب، والجوارح، واللِّسان الذي هو القول. يشمل كل هذا .. لأنَّ هذا كُله يُجازى عليه الإنسان يوم القيامة.

فإذا قال قائل: هلْ يشمل العمل الكف. أي: إذا ترك الإنسان المعصية هلْ يُقال: إنَّ هذا عمل يُجزى عليه؟!

الجواب: نعم .. يُقال: إنه عمل يُجزى عليه .. ولهذا قال النبي ﷺ: «**مَنْ هَمَّ بالسَّيِّئة فَلَمْ يعْملها كَتَبَهَا الله حَسَنَةً كاملة**» لأنه تركها لله .. فما وجه كون التَّرك عملاً؟ لأن التَّرك كف النَّفس عن جماحها وإقدامها فهو عمل .. وحينئذ نقول: الكلمة - أعني يعملون - تشمل أربعة أشياء. ﴿**إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥)﴾

ثم قال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ لَمَّا ذكر الله - عزَّ وجلَّ - أنَّ ذلك اليوم يُجازي فيه العامل بعمله ذكر أصناف العاملين .. وهم صنفان:

الصنف الأول: أصحاب الجنة.

والصنف الثاني - المُجرمون .. والمجرم هو مُقترف الذنب كما سيأتي.

﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ لم يذكر عملهم لكنه ذُكر في آيات كثيرة عملهم الذي يكونُ سببًا لدخولهم الجنَّة.

قال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ ﴿أَصْحَابَ﴾ جمع صَحْب .. وصحب اسم جمع صاحب .. والصَّاحب: هو المُلازم لمصحوبه، ولا يُسمى الشيءُ صاحبًا للشيء إلا بعد المُلازمة حسب ما يقتضيه العُرف .. إلا شيئًا واحدًا استثناه العلماء وهو: صحابة رسول الله ﷺ فإنَّ صُحبته تثبُت بمجرد اللقاء ولو لحظة .. فكل من اجتمع بالنَّبي ﷺ مُؤمنًا به ومات على ذلك ولو لحظة فهو صحابي لهُ .. ﴿الْجَنَّةِ﴾ مرَّ علينا أنها في اللغة العربية اسم للبُستان الكثير الأشجار .. وسُمِّي بذلك لأنه - لكثرة أشجاره - يُجنُّ من فيه .. وما فيه أيضًا، يُجنُّ بمعنى: يستر .. لأن هذه المادة - أي الجيم والنُّون - كُلها تدُور على هذا المعنى وهو الاستتار ومنهُ سُمِّي الجنين لاستتاره في بطن أمه ..

وسُمِّيَ الجِنُّ لاستتارهم عن الأعْين وسُميت الجُنَّة؛ لأن المُقاتل يستترُ بها عن السِّهام.

فالجنة إذن في اللغة: كُلُّ بُستان كثير الأشجار سُمِّيَ بذلك؛ لأنه يُجنُّ من فيه وما فيه .. من فيه من السَّاكن وما فيه من الأشجار الصغيرة التي تكون تحت الأشجار الكبيرة .. هذا هو أصل معنى هذه الكلمة في اللغة.

لكن معناها شرعًا: هي الدار التي أعدها الله ـ سُبحانه وتعالى ـ للمُتقين .. ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٣٣). الجنَّة هي الدار التي أعدَّها الله تعالى للمُتقين، فيها ما لا عين رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولا يصح أن نقول: إنَّ الجنَّة في الآخرة هي البُستان الكثير الأشجار، ولو قلت هكذا لنزَّلت من قيمتها في نُفُوس الناس. لكن إذا قُلتْ: هي الدار التي أعدَّها الله للمُتقين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. صار ذلك حافزًا للعمل لها.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة و«الـ» هُنا للعهد الذِّكري .. للعهد الذكري لأنه سبق ذِكرهُ .. و«الـ» تكون للعهد الذِّكري إذا سبق ذكرُ مدخولها .. ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً﴾ (سورة المزمل:١٥-١٦). فإذا كان مدخول «الـ» سبق ذكره فهي للعهد الذِّكري.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾، الجار والمجرور هو خبر «إنَّ»، ﴿فِي شُغُلٍ﴾ يقول المؤلف: «بسكون الغين وضمها، ﴿شُغُلٍ﴾ و«شُغْل» .. القراءتان سبعيَّتان؛ لأن المؤلف ـ رحمه الله ـ من طريقته أنَّه إذا قال: «في قراءة وفي قراءة» فهما مُتساويتان أي كلتاهما قراءة سبعية.

أما إذا قال: «وقُرِئَ» فإنَّ هذه القراءة تكون شاذة .. فليُعلم اصطلاحه حتى لا يشتبه .. فإذا رأيت في كلام المؤلف هذا «وفي قراءة» فاعْلم أنَّ هذه القراءة سبعيَّة يعني: أنَّها من القراءات الصَّحيحة التي إن شئت فاقرأ بها وإن شئتَ فاقْرأ بالقراءة الثانية .. فيجوز لنا الآن أن نقول: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ ، ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ وهل الأفضل أن نقتصر على قراءة واحدة أم أن نقرأ تارةً بهذه وتارة بهذه؟ الصَّحيح أنَّ الأفضل أن نقرأ بهذه تارة، وبهذه تارة ..

لأنَّ الكل ثبت عن النبي ﷺ ونحنُ إذا بقينا على قراءة واحدة هجرنا بقية القراءات مع أنها شرعية ثابتة عن الرسول ﷺ فالأولى أن تقرأ مرة بهذه ومرة بهذه إلا أمام العامَّة فلا تفعل . . لأنك إذا قرأت بقراءة مُخالفة عمَّا بيْن أيديهم من المصاحف فسوف يكون في ذلك فتنة ويكون في ذلك زعزعة للثقة في كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، لكن إذا كُنت تقرأ لنفسك أو تقرأ بين طلبة العلم فالأفضل أن تقرأ أحيانًا بهذا وأحيانًا بهذا.

قال المؤلف رحمه الله: «﴿فِي شُغُلٍ﴾ بسكون الغين وضمها عمَّا فيه أهل النار مما يتلذذون به».

إذًا . . هم مُنْشغلون عما فيه أهل النار . . ولو أنَّ المؤلف جعلها مُطلقة على إطلاقها لكان أولى . . هم في شُغل عن كل شيء بما يتلذذون به . . يعني: كأنهم لا يُفكرون في أي شيء آخر . . لأنَّ هذا الذي هُم فيه من النَّعيم قد شغلهم وانشغلوا به عن غيره، وهذا كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ (سورة الكهف:١٠٨). أي: لا يبغون تحولاً أو نُزُولاً عن ما هم فيه . . بل ولا صُعُودًا . . حتى النَّازل منهم يرى أنه أكمل الناس نعيمًا.

فالأولى أن نُطلق ونقول: ﴿فِي شُغُلٍ﴾ أي أنهم مُشتغلون بما هم فيه من النَّعيم عن كل شيء . . لا ينتظرُ أحدهم نعيمًا أرقى مِمَّا هو فيه بحيث يرى أنَّ نعيمه ناقص ولا يلتفت إلى شيء أبدًا.

﴿فِي شُغُلٍ﴾ قال المؤلف: «كافْتضاض الأبْكار» الكاف هُنا للتَّشبيه وليست للحصر . . يعني: من جُملة ما ينشغلون به التلذذ بافتضاض الأبكار . . يعني: النِّساء من نساء الدُّنيا وكذلك الحور العين.

وإنما مثَّل المؤلف بذلك لقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ﴾.

قال: «كافْتضاض الأبكار لا شُغْلٌ يَتْعَـبُون فيه؛ لأنَّ الجنَّة لا نَصَبَ فيها» يعني لا تعب فيها، معلوم أنَّ الشُّـغل ليس شُغلاً يتعبون فيه، ولكنه شُغل يسـتريحون فيه . . لأنه شُغل فيما يسُر وفيما يحصل به التنعم.

قال: ﴿**فَاكِهُونَ**﴾ ناعمون . . خبرٌ ثان لـ «إنَّ» والأوَّل ﴿**فِي شُغُلٍ**﴾. ﴿**فَاكِهُونَ**﴾ خبـر ثان لـ «إنَّ» . . أين الأول؟ ﴿**فِي شُغُلٍ**﴾ الجار والمجـرور فتكون «إنَّ» هنـا لها خبران . . وهل يجوز أن يتعدد الخبر؟

الجواب: نعم . . يجوز أن يتـعدد الخبر . . قـال الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ (سورة البروج: ١٤-١٦). هذه خمس خبرات . . فالخبر يجوز أن يتعدد . . لكن تعدُّد الخبـر قد يكون لكل كلمة منه معنى مُستقل وقد تكون الكلمـتان فـي معنى كلمـة واحـدة . . فمـثلاً إذا قلـت: «هذا البرتقـال حلو حامض» «حلو حامض» هاتان كلمـتان، لكنَّهما بمعنى كلمة واحـدة: أي: مُز، مُز: يعني جامع بين الحلاوة والحُموضة.

لكن لو قُلت: «فُـلانٌ قائمٌ مَسْـرُورٌ» هلْ الخبـران بمعنى خبـر واحد؟ لا . . كل واحد منهما له معنى مُستقل . . بدليل أنَّ أحدهما ينفرد عن الآخر بمعنى مُستقل.

الخُلاصة الآن: أننا فهـمنا من كلام المؤلف أنَّ الخبـر يجوز أن يتعدَّد سـواء كان منسوخًا كما في الآية أو غير منسوخ.

❋ ❋ ❋

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾

قال: «﴿هُمْ﴾ مُبتدأ. ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ معطوف عليه. ﴿فِي ظِلالٍ﴾ خبر مبتدأ». ﴿هُمْ﴾ أي أصحاب الجنة .. ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ جمع زوج وتُطلق على الذَّكر والأنثى فيُقال: «هذا زوج فلانة»، ويُقال: «هذه زوج فُلان»، لكن أهل العلم قالوا: يجب التَّفريق - وإن كان لُغة ضعيفة في باب الفرائض - فيُقال: زوجة للأنثى، ويُقال زوج للرَّجل .. لماذا؟ لئلا يشتبه على المُتعلم كونُ المسألة المُتوفَّى فيها زوج ذكر أو زوج أُنثى .. وإلا فاللغة العربية الفُصحى حذفُ التاء من زوج سواءٌ كان للأُنثى أو للذَّكر ..

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ﴾ جمع ظُلَّة أو ظِل، خبر، يعني: أنَّ ﴿فِي ظِلالٍ﴾ خبر للمبتدأ ﴿هُمْ﴾ وظلال جمع ظُلة، أو جمع ظِل .. والمعنى لا يختلف كثيرًا .. فهم في ظلال: ليس عندهم شمس تصحرهم أو تُسخِّن الجوَّ وإنَّما هُو أنوار .. قال بعض أهل العلم: كالنُّور الذي يكون بيْن طُلوع الفجر وطلوع الشَّمس .. نُور ساطع ولكنَّه لطيف .. لأنَّ ألطف ما يكون هو مثل ذلك الوقت، فهو: ظلٌّ ظليل.

﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهو السَّريرُ في الحَجَلة أو الفُرُش فيها. ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ خبر مُقدم. و﴿مُتَّكِئُونَ﴾ مُبتدأ مؤخَّر .. ويجوز ما ذكره المؤلف فيما بعد. قال: «﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة» .. الأريكة هي السَّرير في الحجلة .. أوْ: الفراش فيها .. ولكن الأكثر أنَّها السَّرير .. والحجلة عبارة عن بيت صغير في وسط البيت الكبير يعني: أنَّها بمنزلة الحُجرة الخاصَّة بالمنام فيما نعرفه بيننا .. فالدار مثلاً تشمل حُجرًا كثيرة مُتعددة، والحجرة الخاصة بالنَّوم هي مثل الحجلة .. خيمة صغيرة تكون خاصَّة بالرجل وأهله .. أو بالرجل وحده، وبالمرأة وحدها.

﴿مُتَّكِئُونَ﴾ خبرٌ ثان مُتعلِّق ﴿عَلَى﴾ يعني ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ مُتعلِّقة بـ ﴿مُتَّكِئُونَ﴾.

وعلى كلام المؤلف يكون المُبتدأ ﴿هُمْ﴾ و﴿فِي ظِلالٍ﴾ خبر، ﴿مُتَّكِئُونَ﴾. خبر ثان .. فالجملة على كلامه واحدة «هُمْ في ظلال مُتَّكِئُون» الجملة واحدة لكنَّها مُتعددة الخبر.

﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ على كلام المؤلف مُتعلقة بـ ﴿مُتَّكِئُونَ﴾ .. ومُناسبة تقديمها على عاملها مُراعاة الفواصل - فواصل الآي - وأنتم تعلمون أنَّ القرآن الكريم يكون في مُراعاة الفواصل حتى وإن أدَّى إلى تقديم المفضول على الفاضل .. كما في قوله تعالى في سورة طه: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ (سورة طه: ٧٠). فقدم هارون على موسى مع أنَّ موسى أفضل مُراعاة للفواصل؛ لأنَّ الفواصل إذا كانت مُتَّفقة كان لها تأثيرٌ في الاستماع والإصغاء والقُرآن أبلغ الكلام، هذا ما ذهب إليه المؤلف .. ولنا رأيٌ ثانٍ في الإعراب: أن تكون ﴿عَلَى الأَرَائِكِ﴾ خبرٌ مُقدم، و﴿مُتَّكِئُونَ﴾ مُبتدأ مؤخر .. وعلى هذا فيكون لدينا جُملتان .. جملة ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ﴾ والثانية: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ .. وما ذكرناه أعم؛ لأن ما ذكرناه يشمل أن يكونوا متكئين على الأرائك مع زوجاتهم أو بدون زوجاتهم .. وعلى كلام المؤلف يقتضي أن يكونوا على الأرائك مع الزَّوجات.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧)﴾

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم﴾ فيها ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ إلى آخره.

﴿لَهُمْ﴾ أي لأصحاب الجنة ﴿فِيهَا﴾ أي في الجنة. ﴿فَاكِهَةٌ﴾ أي ما يتفكهون به .. وكل أكل أهل الجنة فاكهة لأنهم يأكلونه على سبيل التَّفكُّه، لا على سبيل الحاجة والضرورة .. نحن في الدنيا نأكل أحيانًا تفكُّهًا .. وأحيانًا للحاجة .. وأحيانًا للضرورة .. أما في الجنة فكل ما نأكله للتَّفكه .. لأنَّه ليس هناك حاجة ولا ضرورة ولهذا يأكل الإنسان الأكل ويخرج هذا الأكل رشحًا .. يعني: مثل العرق أطيب من ريح المسك .. وليس فيها بول وليس فيها غائط.

فإذا قال قائل: أنت إذا جعلت الفاكهة اسمًا لكل ما يأكلون لأنهم يأكلونه على سبيل التفكه .. فكيف تُجيب عن قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ (سورة الرحمن:٦٨). والأصل في العطف أن يكون للمغايرة؟ والنخل والرُّمان يُؤكل .. فالجواب يعلم مما ذكرنا آنفًا .. وهو: أن الشيء إذا أُفرد صار له معنى عامًا وإذا قُرن بغيره صار له معنىً خاصًا مقابل لما قرن معه لأن التقسيم يقتضي هكذا أن يكون المُقسم إليه من الفاكهة .. ويكون هذا من جنس عطف الخاص على العام .. وعطف الخاص على العام في اللغة العربية كثير مثل: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ (سورة القدر:٤). والروح جبْريل وهو منَ الملائكة.

قال: «﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم﴾ قال المُفسِّر: فيها ﴿مَّا يَدَّعُونَ﴾ يتمنَّون» كل ما يتمنونه فإنَّه حاصل .. بل إن الله يُعطيهم أكثر ممَّا يتمنَّون .. لأن أُمنية الإنسان محدودة قد يرى أن هذا أكبر شيء وفيه شيء آخر أكبر منه ولكنه لا يُدركه.

كنا نقول ونحن صغار: «المليُون أكبر شيء» «وأين الذي عنده مليُون»!! وصار المليون فوقه أشياء .. فوقه بلايين .. وفوق البلايين أشياء ثانية.

فالمهم أن الإنسان في الآخرة يُعطى كل ما يتمنى بل يُزاد على ما يتمنى.

فإذا قال قائل: هل . . ؟

فالجواب: أن هذا أمرٌ مُحتـمل . . يحتمل أن الإنسان إذا اشْتهى شـيئًا حصل له ويحتمـل أنه لابُدَّ أن يدَّعيه . . والدعوى بمعنى الطلب . . لابُد أن يطلـبه . . وفائدة الطلب إظهار صدق الإرادة كما أن الفعل يدلُّ على صدق الإرادة . . فلو أنَّ أحدًا من الناس قال: «أنا أريد أن أزور فُلانًا» فـإنَّ هذه الإرادة لا تظهر إلا إذا زاره بالفعل . . وإلا فمـا دام لم يقُم بالفعل فـإنَّ الإرادة قد تكون غيـر صادقـة . . على كل حال: يكفـينا أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يقـول: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ (سورة الزخرف: ٧١). فإنَّ ظاهر الآية أن كل ما تشتهيه وإن لم تطلبه يحصل لك.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)﴾

﴿سَلامٌ﴾ قال المؤلف: مُبتدأ. ﴿قَوْلاً﴾ أي بالقول. خبرهُ ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ بهم. أي يقول لهم: سلام عليكم. معنى كلام المؤلف: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لهم: ﴿سَلامٌ﴾ .. و﴿قَوْلاً﴾ هُنا منصوبة على كلامه بنزع الخافض لأنَّه قال: «أيْ بالقوْل» .. والنَّصب بنزع الخافض في غير أنَّ وأن ليس بمُطرد بل هو سماعي يعني: إن سُمع عن العرب النَّصب عُمل به وإن لم يُسمع فإنه لا يُعمل به.

وقاعدة ذلك: أنَّه قد يُحذف الجار .. يعني حرف الجر .. فإذا حُذف حرف الجر صار مدخوله منصوبًا .. ويُقال فيه: منصوب بنزع الخافض .. ولكنه كما قال ابن مالك:

فـي أنَّ وأنْ يـطـرد *** مَعْ أَمْنِ لَبْسٍ كَعَجِبْتُ أنْ يَدُ

في أنَّ وأنْ يطرد لكن بشرط أيضًا أن يُؤمن اللبس كعجبت أنْ يدُ.

على كل حال المؤلف مشى على أنَّ قولاً منصوب بنزع الخافض .. أي يُقال لهم: سلام عليكم .. وهذا القول صادر من ربٍ رحيمٍ.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ يُؤخذ **من هذه الآية فوائد:**

منها: دُعاء هؤلاء الكُفار على أنفسهم بالويْل إذا شاهدُوا الحساب يوم القيامة لقولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

ومن فوائدها: أنَّ البقاء في القُبور ما هو إلا كيوم النائم ينامُ ثم يستيقظ ويُغادر المكان لقولهم: ﴿مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

ومن فوائد الآية: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُبين لهم توبيخًا بأنَّ هذا ما وعدَ الرحمن به من البعث والجزاء.

وفيه أيضًا: أنهم يُقرون على الاحتمال الثاني، يُقرُّون على أنفسهم بأنَّ ما وعد الله به فسيقع بناءًا على أنَّ قوله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ من كلامهم.

ومن فوائدها أيضًا: أنَّ الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ صادقُون فيما يُخبرون به عن الله ـ سُبحانه وتعالى ـ وعن غيره لقوله: ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾. ثم قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ في هذه الآية دليلٌ على كمال قدرة الله سُبحانه وتعالى وأنَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ يصيح بأصحاب القبور صيْحة واحدة فيقول مثلاً: اخرجوا .. فيخرُجُون جميعًا لا يتخَلَّف منهم أحد، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

ومن فوائدها أيضًا: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إذا أمر بشيء لا يُعيد الأمر مرَّةً ثانية .. بل يكون الشيء بأوَّل أمرْ .. ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (سورة القمر: ٥٠). الذي يُعيد الأمر أو الكلام هو العاجز .. وأما القادر فلا يُعيدهُ.

ومن فوائدها أيضًا: الإشارة إلى أنَّ الله تعالى ينزل للقضاء بين عباده .. تؤخذ من قوله: ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ أي: عندنا، والعند يدل على القُرب .. فقد ثبت بالنصوص أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ينزل للقضاء بيْن عباده فيقْضي بينهم.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة: انتفاءُ الظُّلم مُطلقًا في يوم القيامة؛ لأنه يوم العدل كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (سورة الأنبياء: ٤٧).

ومن فوائدها: أن الإنسان لا يُظلم لا بقليل ولا بكثير .. لأنَّ ﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النَّفي فتكون للعموم.

فإذا قال قائل: وفي غير هذا اليوم هل يُظلم أحد؟

فالجواب: لا . . لا يُظلم . . لكن ذكر هذا اليوم لبيان الواقع . . لأنَّ هذا اليوم هو يوْم الجزاء . . فكأنه قال: هذا اليوم الذي هو يوم الجـزاء ليس فيه ظُلم . . ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ (سورة غافر:١٧).

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ الجـزاء من جنس العـمل لقوله: ﴿وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيُـستفاد منه كـمال عدل الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ، وهذه فائدة مُتفـرِّعة على الفائدة التي قبلها.

فإن قال قائل: أليس الإنسان العاملُ الحسنة يُجزى بعشر حسنات؟

فالجـواب: بلى . . لكن هذا من الجـزاء الذي وعد الله به . . فـلا يكونُ مُنافـيًا لظاهر الآية لأنَّ الله تعالى وعد من جاء بالحسنة أن يجعل له عـشر أمثالها . . فتكون داخلة في قوله: ﴿إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: جواز التَّـعبيـر بالسَّبب عن المُسـبب لقوله: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فالعمل سبب للجزاء، فيكون فيه التعبير بالسَّبب عن المُسبب.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ إلى آخر الآية. في هذا دليل على أنَّ الناس ينقسمون في ذلك اليوم إلى قسمين:

قسمٌ هُم أصحابُ الجنَّة . . وقسمٌ هم أصحاب النَّار . .

أصحاب الجنَّة هذا جزاؤهم: ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾.

ويستفاد من قوله: ﴿فَاكِهُونَ﴾ كمالُ نعيمهم؛ لأنَّ كُلَّما كَمُلَ النَّعيم كَمُلَ التَّفكُّه بهذه النِّعمة التي يتنعَّمُ بها الإنسان.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: أنَّ لأهل الجنة زوجات لقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ﴾، وقد وصف الله هؤلاء الزوجـات بصفات كـثيرة . . فقـال ـ عزَّ وجلَّ ـ في سورة الرحمن: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ (سورة الرحمن:٥٦).

وقال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (سورة الرحمن: ٧٠). فقاصرات الطرف يعني: أنها تقصر طرفها على زوجها لا تنظر إلى غيره .. لأنها ترى أنَّ زوجها أكمل الأزواج فلا يمتدُّ نظرها إلى غيره وهي أيضًا قاصرة لطرف زوجها عليها، فزوجها لا يمتد بصرُهُ إلى غيرها، فكلٌّ منهما راض بصاحبه.

وهن أيضًا خيراتٌ حسان: خيرات الطِّباع، حسان الوجُوه والأجسام .. وصفاتهن كثيرة في القُرآن الكريم.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الجنَّة ليس فيها شمس لقوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ﴾.

ومن فوائدها: كمال راحة أهل الجنة لقوله: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾، فإن المُتَّكئ عادةً يكون مُستريحًا مُطمئنًا .. وكُلما اطمئنَّ الإنسان ازْدادت راحته .. والاتِّكاء على الأرائك لاشكَّ أنه دليل على راحة البال وعدم الانشغال.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن لأهل الجنة فيها الفاكهة، وهي كلُّ ما يتفكه به، وقد ذكرنا أنَّ جميع طعامهم فاكهة يتفكَّهُون به.

ومن فوائدها أيضًا: أنَّ لأهل الجنَّة كلَّ ما يتمنون بل يُعطون أكثر ممَّا يتمنَّون .. وفيها ما لا عيْنٌ رأت ولا أُذُن سمعت ولا خطر على قلْب بشر.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا القرآن الكريم مثاني تُثَنَّى فيه المعاني فيُذكرُ الشيء ويُذكر ضِدُّهُ .. لأنه لو ذُكر ما يكونُ به الرجاء دون ما يكون به الخوف لغلب جانبُ الرجاء على جانب الخوف ووقع الإنسان في الأمن من مكر الله .. ولو ذُكر فيه جانب الخوف دُون جانب الرَّجاء لوقع الإنسان في القُنُوط من رحمة الله .. فكان الله عزَّ وجلَّ إذا ذكر النَّعيم ذكر ضِدَّه وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار .. وهكذا .. وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ (سورة الزمر: ٢٣).

يعني أنه تُثَنَّى فيه المعاني حتَّى يكمل السَّيرُ إلى الله ـ سُبحانه وتعالى ـ على الوجه المطلوب.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ سبق لنا أن المؤلف أعرب ﴿سَلَامٌ﴾ على أنها مُبتدأ وأنَّ خبرهُ ﴿قَوْلًا﴾ على أنه منصوب بنزع الخافض: أي سلامٌ بالقول من ربٍّ رحيم، وهذا أحد الوجوه في الآية الكريمة.

ويجوز أن يكون ﴿سَلَامٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هي سلامٌ .. يعني الجنَّة سلام كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (سورة يونس: ٢٥).

ويجوز أيضًا أن يكون الخبر قوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي سلام بالقول من الله .. واقعٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهذه الوجوه لا يُنافي بعضها بعضًا من حيثُ المعنى .. فإنَّ المعنى كُله واحد وهو أنَّ الله تعالى يُسلِّم عليهم بالقول ويقول: سلام، عليْكم لأهْل الجنَّة.

وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ الرَّب في اللُّغة العربية يُطلق على عدة معان، فيُطلق على رب العالمين ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو بهذا المعنى يشمل الخلق والمُلك والتَّدبير .. فالرَّبُّ هو الخالق المالك المُدبِّر، ويُطلق الرب على الصَّاحب مثل قولهم: ربُّ البيت .. أي: صاحب البيت، ومثل قوله ﷺ في ضالة الإبل: «مَعَها سقاؤها وحذاؤها تَرِدُ وتَأْكُلُ الشَّجر حتَّى يجدها ربُّها» أي صاحبها.

وقوله: ﴿مِّن رَّبٍّ﴾ المراد به المعنى الأوَّل يعني: الله عزَّ وجلَّ .. فالله تعالى هو الرب يعني: الخالق المالك المُدبر. و﴿رَّحِيمٍ﴾ من الرَّحمة وهي صفة ذاتية لم يزل الله سبحانه وتعالى ولا يزالُ مُتَّصفًا بها .. لكن أفرادها تتجدَّد باعتبار المرحوم .. فالله عزَّ وجلَّ يرحم من يشاء .. ومعلوم أنَّ المرحوم يتجدَّد .. فرحمة الله لهذا المرحوم تتجدَّد .. أما أصل المعنى فإن الله لم يزل ولا يزالُ رحيمًا.

أهلُ السنة والجماعـة وهم السَّلف يُفسرون الرحمـة بمعنى يليق بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأهل التَّحْريف يُفسرون الرَّحمة إمَّا بالإحـسان وإمَّا بإرادة الإحسان . . فيقول: معنى ﴿رَّحِيمٍ﴾ أي: مُحسن أو مُريد للإحسان . . لماذا؟

قالوا: لأنَّ الله لا يُمكن أن يتَّصف بالرَّحمـة، فإنَّ الرَّحمة تدُلُّ على الضَّعف وعلى الرِّقَّـة واللـين، وهذا لا يليقُ بالله ـ سُبـحانه وتعـالى ـ وفسَّـروها بالإرادة لأنَّهم يُثبتـون الإرادة، أو بالإحسان؛ لأنَّ الإحسان مُـنفصل عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو مخلوق.

ولاشك أنَّ هذا تحريف، والرَّحـمة إن كان يلزم منها الرِّقَّـة واللِّين فهذا باعـتبار رحمة المخلوق، وأما باعتبار رحـمة الخالق فلا يلزم منها هذا المعنى، على أنَّنا نمنع أن يكون من لازمها الدِّقَّة واللِّين . . لماذا؟ لأنَّنا نجد الملك القوي الشُّجاع يكون فيه رحمة ولا ينقُص ذلك من قُوته وسلطانه شيئًا.

لكن لو سلَّمنا جدلاً أنَّها تستلزم الرِّقَّة واللِّين فإنَّـما ذلك باعتبار رحمة المخلوق، ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ بهم، أي يقول لهم: سلام عليكم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)﴾

قوله: «ويقول» يعني: الله - عزَّ وجلَّ - وفـي الجزم في ذلك نظر . . فقد يكون الله - عزَّ وجلَّ - هو الذي يقـول للمُجرمين: ﴿وَامْتَازُوا﴾ وقد يكون القائلُ ملكًا من الملائكة . . المهم: أنه يُقـال للمُجـرمين: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾، ولهذا لو قـال المؤلِّف: «ويُقـال» لكان أولى لأنَّ الجزم بأنَّ الـقائل هو الله يحتاج إلـى توقيف يعني إلى نص من الشَّارع.

يقول: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ المراد باليوم: يوم القيامة . . و«الـ» هُنا فيه للعـهد الذِّكـري. ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ قـال المؤلف: «أيْ انفـردوا عن المؤمنين عند اختلاطهم بهم» يعني: يُقـال يوم القيامة: امتازوا أيُّها المجـرمون: تَمَيَّزوا عن المؤمنين انفردوا عنهم . . لأنَّ طريق المُجـرمين غير طريق الأبرار، فـالأبرار طريقُهم إلى الجنَّة وهؤلاء طريقهم إلى النار كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (سورة مريم: ٨٥، ٨٦).

فيمتاز هؤلاء عن هؤلاء . . يُقال لهم هذا على سبيل التوبيخ والإهانة؛ لأنك إذا رأيت مُجتـمعًا تقول مثلاً: أيهـا الطائفة الفُلانية، امتازوا ابتـعدوا، صار في هذا من إذلالهم وإهانتهم ما هو ظاهر.

وقوله: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ من المُجرم؟ المُجرم فاعلُ الإجرام، والإجرام هُو الذَّنب والإثم . . أي: أيها الآثمون المُذنبون، امتازوا عن المؤمنين المُطيعين.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ آمركم. ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ على لسان رُسُلي. ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لا تُطيعوه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ العداوة. ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ وحدوني وأطيعون. ﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾ طريق. ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ الاستفهام هنا للتَّقرير.. والغالب أنَّه إذا وقع بعد الاستفهام ما يدلُّ على النَّفي فالاستفهام للتقرير.. مثل ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (سورة الشرح:١). هذا للتَّقْرير، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ للتقرير، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ (سورة الزمر:٧١). للتَّقرير، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (سورة الزمر:٣٦). للتقرير ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة التين:٨). للتقرير، وهكذا كُلَّما جاء ما يدل على النَّفي بعد أداة الاستفهام فإنَّ الاستفهام يكون فيه غالبًا للتقرير.. هُنا تقرير: يُقرر الله - عزَّ جلَّ - أنَّه عهد إليهم.. ولهذا يصح أن يُحول في غير القرآن إلى فعل ماضٍ فيُقال: «قد عهدتُ إليْكم».

فإذا قال قائل: ما المراد بهذا التَّقرير. المراد به التوبيخ.. يعني: يُقرر الله هذا الأمر توبيخًا لهم وإقامة للحُجَّة عليهم أنَّ الله عهد إليهم أن لا يعبدوا الشيطان.. والعهد إلى الشيء فسَّرهُ المؤلف بأنَّهُ الأمر، يعني: ألم آمركم، ولكنَّهُ في الحقيقة أبلغ من الأمر.. لأن العهد إليه كأنَّهُ مُتضمن للعهد والميثاق.. وهو كذلك فإنَّ الله قدْ أخذ علينا الميثاق أن لا نعبد إلا إيَّاه.. وأن لا نعبد الشَّيطان لأنَّه عدُو.

وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ هذه تشمل الذَّكر والأُنثَى.. وإن كان الابن يُقال في الأصل للذَّكر والبَنُون تُقال في الأصل للذُّكور.. لكن إذا كان المراد به القبيلة أو الجنس فإنه يشتمل الذَّكر والأُنثى.. حتَّى إنَّ الفقهاء رحمهم الله قالوا: إذا

وَقَّف على بني تميم شمل ذُكُورهم وإناثهم . . لكن إذا وَقَّف على بني فُلان . . واحد من الناس ما هو قبيلة فإنه يختص بالذكور فقط . . فبنو آدم هُنا قبيلة بل شامل لكلِّ القبائل فيشمل الذكور والإناث.

وقوله: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ فسر المؤلف العبادة هُنا بالطاعة لأنَّ طاعة الغير في محارم الله نوعٌ من العبادة . . كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ (سورة التوبة: ٣١). لا أن نعبُد أربابًا كثيرة . . قال عدي بن حاتم: يا رسول الله . . إنَّ لسْنا نعبدهم . . يعني: لسنا نُصلي أو نركع أو نسجُدُ لهم . . قال: «أَلَيْسَ يُحِلُّونَ ما حَرَّمَ الله فَتُحِلُّونه ويُحَرِّمُون ما أحَلَّ الله فَتُحَرِّمُونه؟!» قال: نعم . . قال: «فَتِلْكَ عبادتهم» . . وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا لكن الواقع أنَّ هذا هو الحقيقة . . أنَّ طاعة غير الله في مُخالفة أمر الله نوعٌ من العبادة؛ لأن العبادة في الأصل هي التَّذَلُّل والخضوع . . وطاعة الأمر تذلُّل وخضوع.

وقوله: ﴿الشَّيْطَانَ﴾ هل المراد بذلك: الجنس أو المراد: الشَّيطان المُعين؟ الظاهر أنَّ المُراد به الجنْس . . فيشمل شياطين الإنس وشياطين الجنِّ . . فكما أنَّ للجن شياطين فللإنس أيضًا شياطين . . يُوجد من الإنس شياطين يأمُرون الناس بالإثم والعدوان وينهونهم عن البرِّ والإحْسان.

وقوله: « ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّن العداوة » . . ﴿إِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ كل أحدٍ يأمرك بمُخالفة أمر الله فهو عدوٌّ لك شعُرَ بذلك أو لمْ يشعر . . وعلى رأسهم الشيْطان الأوَّل الذي يقُود كلَّ شيْطان.

قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ العدو ضدُّ الولي والوليُّ من يتولاك ويحوطك ويعتني بك . . فالعدو ضده . . هو الذي لا يُريد لك الخير وإنَّما يُريد لك الشَّرَّ. وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ قال: «بيِّن العدَاوة» كيف فَسَّر مُبين ببيِّن؟

نقول: لأنهـا من أبان . . وأبان تأتي بمعنى أظهر . . وتأتي بمعنى ظهـر . . فإن كانت بمعنى أظهر فهي مُتعـدية . . وإن كانت بمعنى ظهر فهي لازمة . . ولا يمكن أن نقول: إنَّها من المتعدي أو اللازم إلا بقـرينة من السِّياق . . فهنا: نقول: ﴿مُّبِينٌ﴾ إذا فسـرناها بما فسَّر به المؤلف: بيِّن العـداوة . . صارت من اللازم . . مع أنَّه يُمكن أن نجـعلها من المُتـعدِّي ونقـول: ﴿مُّبِينٌ﴾ مُظهـر للعداوة لأنَّه يـأمُرك بالشَّـر لكن هذا ضـعيف: إذْ لوْ أبان عـداوته ما تبـعه أحـد . . وإنما يغُـرُّ الناس كمـا قال تعـالى: ﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (سورة الأعراف:٢٢). إذًا . . نجعل ﴿مُّبِينٌ﴾ هُنا من باب اللازم من أبان بمعنى ظهر.

﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا تعبدوا الشيطان وأن اعْبدوني . . هذا نفي وإثبات . . وهو حقيـقة التَّوحيد ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ «أنْ» هُنا مصدريَّة ويصحُّ أن تكون مُفَسِّرة لأن ﴿أَعْهَدْ﴾ مُتضمِّنة معنى القول . . وإذا سـبق «أنْ» ما يتضمن معنى القول دون حُرُوفـه صارت تفسـيريَّة مثْل قـوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ (سورة المؤمنون:٢٧). على كُلِّ حال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ يعني: أنَّ الله عَهِدَ إلينا أن نعبده وحدهُ: أيْ تذلَّلُوا لي بالطاعة.

والمؤلف قال: «وَحِّدُوني وأطيـعون» وهذا معنى صحيح . . فالعـبادة توحيد الله عزَّ وجلَّ بالطاعة والتَّذلُّل له بامْتثال أمْره واجْتناب نَهْيه.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا المُشار إليـه: تركُ عبادة الشيطان وإفـراد الله بالعبادة ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الصِّراط فسَّرهُ المؤلف بـالطريق . . ولكنَّ الصحيح أنه ليس مُطلقُ الطريق صِـراطًا . . بل الصِّـراط هو الطريق الواسع المُتسـاوي . . لأنَّهُ مأخـوذ من الصَّـرْط أو من الزَّرْط، والزَّرْطُ كـما نعلم هـو ابتلاع الشيء بـسُرعـة . . ولا يكونُ الطريقُ طريقًا ذا سرعة إلا إذا كان واسعًا وكان سهلاً.

وأما قوله: ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ فهـذا وصف لهُ . . والاستقامـة تشمل اعتدال السَّـيرْ وتشمل أيضًـا انْبساط الأرْض، فـإذا قُدِّر أنَّ الطريق يذهب يمينًا وشـمالاً لمْ يصح أنْ نقول: إنَّه مُستقـيم . . وإذا كان فيه مُرتفعات ومُنْخفضات فليس بمُسـتقيم لأنَّ بعضه مُرتفع وبعضـه نازل فالاستقامـة معناه أنَّه خالٍ من الانحراف يمينًا وشـمالاً وخالٍ من الاختلاف في ارتفاعه وانخفاضه.

وقوله: ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إلى مَنْ؟ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والله سبُـحانه وتعالى أضاف الصِّراط إلى نفسه وأضاف الصِّراط إلى خلقـه . . فقال ـ سبحانه وتعالى ـ في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ (سورة الفاتحة: ٦-٧). فأضاف الصِّراط إلى الذين أنعم الله عليهم.

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (سورة الشورى: ٥٢-٥٣). فكيف نجمع بين الإضافتين؟

نقول: أضاف الله الصِّراط إلى الذين أنعم الله عليهم لأنهم هُمُ السَّالكون لهُ . . وأضافه إلى نفـسه؛ لأنه هو الذي وضعه لعـباده وهو مُوصل إليه، كـما تقول: «هذا طريقُ مكة»، أي: المُوصل إلى مكة . . وتقـول: «هذا طريقُ فلان» إذا كـان هو الذي وضعه للناس وشقَّهُ لهم . . أو هُو الذي سلكه ومشى عليه.

على كل حـال: إضافـة الصِّراط إلى الذين أنـعم الله عليهم لأنهم سـالكوه . . وإضافة الصراط إلى الله؛ لأنه هو الذي وضعـه لعباده وسنَّهُ لهم وهو ـ أي الصِّراط ـ مُوصلٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾

﴿وَلَقَدْ﴾ هذه الجُملة مُؤكَّدة بثلاث مُؤكِّدات، فالتَّقدير: والله لقد أضل. إذا قال قائل: كيف يُقسمُ الله عزَّ وجلَّ وهو الصادق القول بلا قسم؟

نقول في الجواب على ذلك وجوه:

الوجه الأول ـ الإشارة إلى أنَّ هذا أمرٌ هام يحتـاج إلى القسم عليه . . لأنَّهُ لولا أهميَّته ما أقسم.

ثانيًا ـ أن القرآن نزل باللغة العربية . . ومن أسـاليب اللغة العربيةَّ أنَّ الشيء إذا أُريد إثباته وتحقيقه فإنه يُقسم عليه . . فالقرآن كما نعلم نزل بلسان عربي مُبين.

الثالث ـ أنَّ المُقسم به إذا كان صريحًا: أي: مُصرَّحًا به فإن الإقسام به يدُلُّ على عظمته . . فإنَّ الله لا يُقـسمُ بشيء إلا لعظمة ذلك الشيء . . مثل قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ (سورة الشمس:١-٢). إلى آخره . . وما أشبه ذلك ممَّا أقْسم الله به . . فإنَّه يدُلُّ على عظمة المُقْسَم به.

﴿سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ في هذه الآية الكريمة دليلٌ على ما يتمتَّعُ به أهل الجنَّة من السـلامة من كلِّ الآفـات لا من الأمراض ولا من التَّـعب ولا من الموت ولا من غيرها . . السَّلامة . . لأنَّ الله تعالى يقول لهم: «سلامٌ عليكم»، وهذا اللَّفْظ الصَّادر من الله عزَّ وجلَّ ليس دُعـاءً ولكنَّه خبرٌ من الله . . إنما يكون مـثل هذا دُعاءً إذا وقع من المخلوق . . أمَّا إذا كـان من الخالق فهو خـبر . . أي أنَّ الله تعالى يُخـبرهم بأنَّهُ سيُسلِّمهم من كل آفة.

ومن فـوائدها: إثبـات الرُّبوبية وهي هـنا فيـما يظهـر من الرُّبوبيَّـة الخاصَّـة . . والرُّبوبيَّة تنقسم إلى قسمين: خاصَّة . . وعامَّـة . . فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق

.. فإنَّ جـميع الخلق مربوبون لله ـ عـزَّ وجلَّ ـ هو خالقهم ومـالكهم ومُدبِّرهم .. ومنها: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الفاتحة: ٢).

أما الربوبيـة الخاصة فهي المُختـصة بعباد الله المخْلَصين من عـباد الله المؤمنين من الرُّسل وأتباعـهم .. وهي أخصُّ من الأولى لأنها تقتضي عنايةً خـاصَّة بالمربُوب .. وتوفيقًا له وإصلاحًا لحاله، ومنها قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٤٨). فإن مـوسى وهارون من عباد الله المُخلصـين .. فكانت الرُّبوبية في حقـهما خـاصَّة ومنهُ: دُعاء المـؤمنين لله عزَّ وجلَّ بهـذا الاسم مثل: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ (سورة آل عمران: ١٦). فإنَّ المراد به الرُّبوبية الخاصـة .. لأن التَّوسُّل بالأخص أخصُّ بالدُّعاء من التَّوسُّل بالأعم.

وقد اجـتمع القِـسْمـان في قوله تعـالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٤٧-٤٨). الأولى عامة والثـانية خاصة .. الفـرق بينهما أن هذه العامَّة للتَّدبير العام الشامل كالخلق والمُـلك والتَّدبير .. وهذه الربوبية الخاصة تقتضي عنايةً خاصَّة .. هذه الآية: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أقول: ـ إنَّ الظاهر والله أعلم ـ أنها من الرُّبوبية الخاصَّة لأنَّ الذي يُخاطَبُ به من القوم المُخلصين.

وفي هذه الآية الكريمة إثبـات الرَّحمـة لله عزَّ وجلَّ لقـوله: ﴿رَّحِيمٍ﴾، وإثبات الرُّبوبية في قوله: ﴿رَّبٍّ﴾ .. وهل الرَّبُّ من أسماء الله؟ نـعم .. الرَّب من أسماء الله .. دلَّ على ذلك قـوله ﷺ: **«أمـَّا الرُّكـوع فـعظِّمُـوا فـيـه الرَّب»**. وقـوله ﷺ في السواك: **«مَطْهرةٌ للفم مَرْضاةٌ للرَّب»**.

وأما الرَّحيم: فكونه من أسماء الله لا يخفى.

وفي هذه الآية: إشارة إلـى أنهم إنَّما وصلوا إلى هذه المنزلة برحـمة الله لقـوله: ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ .. وقـد ثبت عن النبي ﷺ أنه قـال: **«لَنْ يدْخُلَ احـد منكم الجنَّة بعَمله»** أو قال: **«لَنْ يدْخُل احد الجنَّة بعمله»** قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا**

أنا إلاَّ أن يتغمَّدني الله برحْمته» اللهم تغمَّدنا برحمتك .. فالرسول أخبر أنَّ أحدًا لا يدخل الجنة إلا أن يتغَّمده الله برحمته: أي: يُسبغْ عليه الرحْمة .. فحينئذ يدْخُل.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ في الآية الكريمة من الفوائد: أنَّ المُجرمين يُهانُون يوم القيامة بحيثُ يُميزون من المؤمنين بلفظ الطَّرْد. ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾ يعني انفردُوا وأبعدوا.

ومن فوائدها: أنَّ الله سبحانه وتعالى يُميِّز بين المجرمين والأبرار يوم القيامة كما ميَّزَ بينهم في الدُّنيا فإن طريق هؤلاء غير طريق هؤلاء.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّه ينبغي لمن قام بعمل أن يذكر الوصف المُناسب لهذا العمل، فهنا لَمَّا أُمروا بالانفراد وطُردُوا ناسب أن يُذكر سبب ذلك حيث قال: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ كأنَّما قال: امتازوا لإجرامكم .. ولاشك أنَّ ذكر سبب الحُكم يُزيلُ الشُّبهة واللَّبس والاعتراض.

فإذن هذه فائدة مبنية على الفائدة التي قبلها؛ إن تعليق الحكم بوصف يدل على عليَّته ذلك الوصف أي على أنَّ هذا الوصف هو علَّةُ هذا الحكم .. فإذا قُلت مثلاً: «أكرِم المُجْتهد من الطَّلَبة» فهنا عُلِّقَ الإكرام بالاجتهاد .. يُفيدُ أنَّ علَّة الإكرام هو الاجتهاد .. وهذه القاعدة مُفيدة لطالب العلم .. وهو أنَّ تعليق الحُكم بوصف يدل على علِّيَّته أيْ أنَّه علَّةُ ذلك الحُكم.

وقوله: ﴿أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ حُجبت منها ياءُ النداء فلماذا يُمكن أنْ يدَّعي علماءُ البلاغة أنها حُذفت من باب الإهانة لهم حتَّى لا يطول الكلام؟ .. لأنَّ طول الكلام مع المُخاطب منْ باب التَّبسُّط إليْه والانشراح لمُخاطبته .. فإذا اخْتُصِرَ فهو نوعٌ من الإهانة ..وليس هذا على إطلاقه بل هذا على حسب السِّياق .. قدْ يكون من الإكرام أن تختصر الكلام، وقد يكون من الإكرام أن يبسط الكلام لكن المقام في هذا لا يقتضي ذلك، بل يقتضى اختصار الكلام وعدم تطويله من باب الإهانة لهم.

ثم قال عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ الله سبحانه وتعالى يُحبُّ الإعذار من نفسه: أي يحب أن يقيم العذر لنفسه لتقوم الحُجَّة على خلقه لقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ فإنَّ من عهد إلينا ألا نعبد الشيْطان وأن نعبد الله قدْ أقام علينا الحُجَّة وأقام العُذر لنفسه وهذا كقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥).

ومن فوائدها: إثبات رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالخلق حيثُ لم يجعل إخلاصهم له موكولاً إلى عُقولهم بل عهد بذلك إليهم على ألسنة الرُّسل .. لأن الله لوْ جعل الإخلاص موكولاً إلى العقول لاختلفت العُقُول في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأن الأهواء لا تنْضبط .. فجعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك ممَّا تكفَّل به هو نفسه لعباده ففيه إثبات رحمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهذا العهد الذي عهد به إلى عباده.

من فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي التَّصفية قبل التَّحلية أو بعض الناس يقول: التَّخلية قبل التَّحلية .. لأنَّهُ قال: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ هذا تخلية .. ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ تحلية .. يعني نفي وإثبات .. وهذا هو التَّوحيد .. التَّوحيد مبني على نفي وإثبات .. لأن النَّفي المُجرد تعطيل محض وعدم .. والإثبات المُجرد لا يمنعُ المشاركة .. إذًا لا يكون التَّوحيد إلا بنفي وإثبات .. وأضرب مثلاً لهذا: لو قُلت: «لا قائم في البيت» هذا نفيٌ مُجرد معناه العدم .. عدم وُجُود قائم في البيت .. وإذا قُلت: «زَيْدٌ قائمٌ في البيت» هذا إثبات مُجرد .. لا يمنع المُشاركة .. أيْ: قدْ يكون رجل آخر في البيت قائم .. فإذا قُلت: «لا قائم في البيْت إلا زيْدٌ» حينئذ تحقَّق الانفراد وتحقَّق التَّوحيد .. وصار لا يُوجد قائم في هذا البيت إلا زيْد.

إذًا: التَّوحيـد لابُد فيه منْ هذين الأمرين: النَّفي والإثبـات . . ولكن بماذا يُبدأ؟ يُبدأ أولاً بالنَّفي ليـرد الإثبات على مكان خالٍ من الشـوائب خالص صالح لاستـقرار الإثبات فيه . . ولهـذا يُبدأ بالنَّفي ثمَّ بالإثبات . . وهذا في القرآن كثـير: استمع إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الزخرف:٢٦-٢٧). فتبـرَّأ أولاً من كل معبود ثُمَّ أثبت العـبادة لله وحده الذي فطرهُ ﴿إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ طاعة الشـيطان في معصيـة الله ـ ولا تكون طاعة الشيْطان إلا في مـعصيـة الله ـ نوعٌ من العبـادة لقوله: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لأنَّ الطاعة فيها نوعٌ من التَّذلُّل، والعبادة هي الـتَّذلُّل، فمن أطاع الشَّيطان في معصية الله فقد عبدهُ.

ومن فوائدها: أنَّ العبادة لا تخـتصُّ بالرُّكوع والسُّجُود والذَّبح والنَّذْر ومـا أشبه ذلك . . بل هي عامَّة شاملة لكل طاعة يكون فيها كمالُ التَّذلُّل فهي عبادة.

ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الحـذر من طاعة الشيطان . . حـيثُ سمَّى الله تعالى طاعتهُ عـبادة . . وكل إنسان يحذَر منْ أن يعبد مع الله غيره . . فـفيه التَّحذير من طاعة الشيطان في معصية الله عزَّ وجلَّ.

ومن فوائد الآية الكريمة: وُجوب عبادة الله وحده لقوله: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ والعبادة تُطلق على معنيين:

أحدهما ـ التعبُّـد.

والثاني ـ المُتعبَّـد به.

التَّعبُّد يعني: التذلل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي بهذا المعنى: فعل العبْد: يعني صلاته . . صيامه . . حجَّهُ . . زكاته . . وما أشبه ذلك.

وتُطلق العـبادة على المُـتَعـبَّد به . . وهي بهـذا المعنى اسم جـامع لما يُحبُّـه الله ويرضـاه من الأقـوال والأفـعـال . . يعني: الـعبـادة اسم جـامع لكل مـا يُحبـه الله ويرضاه من الأقوال والأعـمال الباطنة والظاهرة القلبية والجـوارحية . . إذن . . تُطلق العبادة على:

الأول ـ التَّعبُّد وهو فِعل العابد.

والثاني ـ المُتعبَّد به وهي العبادات.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصراط هو التوحيد لقوله: ﴿**هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾، ﴿**هَذَا**﴾، أي: ترك عبادة الشيطـان والالتزام بعبادة الله ﴿**صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ أي: طريق مُستقيم لا عِوَجَ فيه . . وإنَّما كان كذلك؛ لأنه مُوصل إلى رضا الله تعالى وَجَنَّته . . فهو صراط مُستقيم.

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ الصِّراط قد يكون مُستقيـمًا، وقد يكون مُعوجًا. قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ (سورة الأنعام:١٥٣). كل واحد من البشـر له طريق . . فإن كان على شرْع الله فهو مـستقيم وإن كان على خلافه فهو مُعْوج.

و﴿**سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾ فيها فائدة وهي إثبات أنَّ الله يقول ويتكلم . . وهذا حقٌ . . وقدْ اختلف أهلُ القِبلة في كلام الله عزَّ وجلَّ.

فمنهم من قال: إنه يتكلم بحـرف وصوت . . على وجهٍ يليقُ به . . ولا يُشـبهُ صوْته أصوات المخلوقين.

ومنهم من قال: إنه لا يتكلم ولكن يخلقُ كلامًا ينسُبُهُ إليه تشريفًا وتكريمًا.

ومنهم من قال: إنه يتكلـم لكـن كـلامـه ما يُقـدره فـي نفسـه، وأما مـا يُسمع فهو مخلوق.

فالأول ـ مذهب أهل السُّنة والجماعة.

والثاني ـ مذهب المُعتزلة ومن وافقهم.

والثالث ـ مذهب الأشاعرة.

وحقيقة الأمر أن مذهب الأشاعرة هو مذهب المعتزلة . . لأنَّ الكُلَّ منهُم مُتَّفقون على أنَّ ما بين أيدينا من المُصحف مخلوق . . لكن الجهميَّة والمُعتزلة قالوا: «هو كلام الله»، وأولئك قالوا: «عبارةٌ عن كلام الله» فهم أسوأُ منهم من هـذه الناحية . . لأنَّ المعتزلة والجهمية يقولون: إنَّ القُرآن كلام الله كما قال الله عنه إنَّهُ كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة: ٦). لكن هم يقولون: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾، أي: الكلام الذي هو عبارةٌ عن كلام الله . . فأيهما أقرب إلى الحقيقة؟

الجهمية والمعتزلة . . ولكن كلٌّ منهم في ضلال مُبين . . الصواب أنَّه كلام الله تكلَّم به بنفسه وسُمِعَ منه ـ سمعهُ جبريل ـ وألقاه إلى محمَّد ﷺ . . هذه فائدة مُهمَّة وطيِّبة.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ﴾، ﴿أَضَلَّ﴾ بمعنى: أضاع وأتاه . . يعني: قادكم إلى ضلال ليس فيه هُدىً. ﴿أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا﴾، ﴿جِبِلًّا﴾ قال المؤلف: «خَلْقًا جَمْعُ جبيل كقديم، وفي قراءة بضمِّ الباء «جُبُلاً»، والقراءة هذه سبعية، إذًا . . فيها قراءتان سبعيتان: جِبْلاً وجُبُلاً، وفيها قراءة ثالثة ما ذكرها المؤلِّف: ﴿جِبِلًّا كَثِيرًا﴾. وفيها قراءة رابعة: «جِبِلاً» بدُون تشْديد اللام.

ولكن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليس تفسيره جمعًا للقراءات إنَّما ما رأى أن المصلحة تقتضي ذكره . . ولكن على كل حال لاشك أنَّه لو ذكرها لكان أحسن لأنَّه أحيانًا يذكر قراءة مُتعددة في صفة الحرف كما يذكر قراءة مُتعددة التي تبلغ إلى ست قراءات في مثل: ﴿أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ من التسهيل والتَّحقيق والحذف وما أشبه ذلك . . ولكن الإنسان بشر . . أحيانًا يغفل ويُهمل ما ينفع أن يُذكر أو يذكر ما لا يحتاج أن يُذكر.

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ﴾ أي: خلقًا ﴿كَثِيرًا﴾ ولا يعْني ذلك أن الأكثر لم يُضلَّل من قبل الشَّيطان بل هو أضل أكثر الخلق . . أكثر الخلق أضلهم الشيطان؛ لأنه ثبت في الحديث الصحيح أنَّ الله يوم القيامة يقول: «يا آدم» فيقول: لبَّيْك وسَعْدَيْك . . فيقول: «أَخْرج من ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إلى النَّار» يقول: يارَبِّ وما بعْثُ النَّار؟ قال: «مِنْ كُلِّ ألف تِسْعُمَائة وتِسْعة وتِسعُون» هؤلاء كلهم في النار من بني آدم . . وواحد في الجنة . . فشق ذلك على الصَّحابة وعظُم ذلك وقالوا: أينا ذلك الواحد يا رسول الله؟! قال: «أَبْشِرُوا فإنَّكُم في أُمَّتَيْن ما كانتا في شيء إلا كَثَّرتاه: يأجُوج ومأجُوج» وهو كذلك . . منْ شاهد الخلق الآن ونحن في جُزْءٍ بسيط من العصور وجد أن تسعمائة وتسعة وتسعين كُلُّهم على ضلال . . حتى المُنتسبُون منهم للدِّين الإسْلامي عندهم ضلالٌ عظيم يبلُغ بهم الكفر وإن كانوا مُنتسبين إلى الإسلام. إذًا . . المراد بالكثير هُنا: الأكثر . .

قال: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ . . الهمزة هُنا للاستفهام والمراد بالاستفهام التَّوبيخ . . يُوبِّخهم على عدم العقل، و«الفاء» هُنا عاطفة . . والمعطوف عليْه إمَّا ما سبق وإمَّا جُملةٌ مُقدرة مُناسبة للمقام . . رأيان لأهل العلم.

فمنهم من يقول: إنَّ حرْف العطف يعطف ما بعده على ما قبله . . ولكن في الكلمة تقديم وتأخير بيْن حرْف العطف والهمزة . . ولوْ جُعل كل واحد مكانه لكان اللَّفظ: «فَأَلَمْ تكونوا تعْقلون».

ومنهم من قال: إنَّ الهمزة في محلها . . وإنَّ الفاء عاطفة على مُقدر يُفهم من المقام أو مِنْ السِّياق . . هذا في الحقيقة قد يكون أقعد - يعني: أقرب إلى القواعد - لكنه أصعب . . إذ أنَّك في بعض المواضع لا تستطيع أن تُقدِّر شيئًا . . ولا تعلم أي شيء يُناسب وحينئذ فيكون الثاني الأيسر . . والقاعدة عندي فيما إذا اخْتلف النَّحْويُّون في مسألة أنَّ الرَّاجح هو الأيسر . . ما لم يلزم منه اختلاف معنى ويكون المعنى التابع للأيسر غير صحيح فحينئذ لا ندفعُ الأيسر؛ لأنه يُخلُّ بالمعنى ويؤدِّي إلى

معنى غير صحيح .. لكن ما دام المعنى مُستقيمًا على الوجهين فالأيسر هو الرَّاجح .. يسروا ألفاظكم.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: أنَّه وبَّخهم على عدم عقلهم .. والعقل نوعان: عقل بمعنى الإدراك: وهو الذي يترتب عليه التَّكليف .. وعقل بمعنى التَّصرُّف: وهو الذي يترتب عليه المدح أو الذَّم .. العقل عقلان:

عقل بمعنى الإدراك: وهو الذي يترتَّب عليه التكليف وإن شئتَ فقل: وهو مناطُ التكليف .. والذي يقول فيه الفقهاء: من شُروط العبادة العقل.

عقل آخر بمعنى التصرُّف: وهو الذي يترتَّبُ عليه المدح والذَّم .. أيهما المُراد هُنا؟

المراد الثاني قطعًا .. لأنه لو انتفى عنهم عقل الإدراك لم يكونوا مُكلَّفين ولا يتوجه إليهم اللَّوم .. لكنهم انتفى عنهم عقل التَّصرُّف فلم يحسنوا التصرف فصاروا عُقلاء غير عُقلاء .. عقلاء: باعتبار الإدراك المترتب عليه التَّكليف، غير عُقلاء: باعتبار التَّصرف المُترتب عليه المدح أو الذَّم .. فهم في الحقيقة وإن أُعْطُوا عُقُولاً.

أو بعبارة ثانية ـ أُعْطوا .. لم يُعطوا عقلاً .. وما أحسن عبارة شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله في المُتكلمين .. حيثُ قال في وصفهم: «إنَّهم أُوتُوا ذكاءً وما أوتوا ذكاءً .. وأوتُوا فُهومًا ولم يُؤتوا عُلومًا .. وأوتوا سمعًا وأبْصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء؛ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون».

انظر: أوتوا ذكاءً وما أوتوا ذكاءً .. نسأل الله العافية .. فكان ذكاؤُهم حُجَّة عليهم .. وأُوتوا فُهُومًا .. عندهم فهم .. لكن ما عندهم علم .. والإنسان إذا تكلم بفهمه لا بعلم ضلَّ .. ضلَّ وضاع .. فلابُد من علم .. لابُد من علم تبني عليه عقيدتك وعبادتك .. المهم: أنَّ هؤلاء أوتوا عُقُلاء تقوم بها عليهم الحُجَّة، ولكنهم حُرموا من العقول التي يترتب عليها المدح والذَّم التي هي الرُّشد وحُسن

التَّصرُّف . . فما استعملوا عُقولهم التي أنعم الله بها عليهم ما استعملوها فيما ينفعهم . . ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يقول رحمه الله: «أفلم تكونوا تعقلون عداوته وإضلاله أو ما حل بهم من العذاب فتؤمنون؟» . . يعني: لوْ أنَّكم عَقَلْتُم عداوته وإضْلاله أوْ عقلْتُم ما حَلَّ بالمُتَّبعين له مِنَ العذاب والنكال . . لكُنْتُم تُخالفونه ولا تعبدونه ولآمنْتُم بالله وحْدَهُ . . ولكنَّ الهَوَى غطَّ الهُدى . . كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة فصلت: ١٧) .

ثم قال سُبحانه وتعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ﴾ قال المؤلف في تقدير الكلام: ويُقال لهم في الآخرة: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ﴾ .

﴿هَٰذِهِ﴾ الإشارة هُنا إلى قريب؛ لأنه إشارة البعيد للواحد «تلك» أوْ «ذلك» هُنا يقول: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ﴾ إشارة إلى قُربها منهم لأنَّه يُؤتى بها يوم القيامة تُقاد بسبعين ألف زمام، كلُّ زمام يقوده سبعون ألف ملك . . تُقاد ويُؤتى بها ويُشاهدُها الناس ويلْحقهم من الرُّعب العظيم ما لا يقْدر الواصفون على وصفه.



ويقال لهؤلاء المجرمين: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣)﴾ بها ...

وفي آية أخرى قال الله فيها: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الطور: ١٣-١٦).

كانوا في الأوَّل قبل أن يُدعون إليها كانوا يُقال لهم: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإذا دُعُّوا إليها، والدَّعُّ يدُلُّ على أنهم يتراجعون على أعقابهم خوفًا منها ولكنهم يُدفعون دفعًا بقوة والعياذ بالله إليها ويُقال: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ التكذيب عُنف في ردِّ الحقِّ، والدَّع عُنف .. فصار الجزاء من جنس العمل.

أما حين عُرِضت عليهم وقُرِّبت منهم فقيل لهم: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهنا إشكال: وهو أنَّه قيل: إنَّ الوعد في الخير .. والإبعاد في الشَّر وعليه قول الشاعر:

وإنِّي وإنْ أوْعدتُهُ أو وعدتُهُ ❖❖❖ لَمُخْلِفُ إبعادي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

وهنا قال: ﴿تُوعَدُونَ﴾؟! نقول: نعم .. الأمر كما قال المُفسِّر على حذف معلوم وهو قوله: «بها» .. لا «تُوعدونها». لو قال: «توعدونها» لصار للإشكال محل كما الجنَّة قال الله فيها: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ (سورة مريم: ٦١).، ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة السجدة: ١٩). لكن هؤلاء وُعدوا بها، يعني: أنه قيل لهم: إنكم سوف تُلاقُونها .. وهذا هو الواقع.

قال الله تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أي: تُوعدون بها .. ولكنهم كانوا بها مُكذبين .. كما قال الله تعالى في سورة الطُّور: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة الطور: ١٤). فهم وُعدوا بها أي توعِّدوا بها ولكنَّهم كذَّبُوا والعياذ بالله .. ويوم القيامة يُوبَّخُون على هذا التكذيب ويُقال: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾. و﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾

يعني يُقال لهم: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الأمر أمرٌ كوني إن كان من الله . . وإن كان مِمَّن أمرهم الله أن يقولوا ذلك من الملائكة فهو أيضًا أمر كوني . . والمراد به: الإهانة والإذلال . . ومن المعلوم أنَّهم لن يستطيعوا أن يصلوها . . لكن يُقال ذلك: على سبيل الإهانة والإذلال.

﴿الْيَوْمَ﴾ . . «الـ» هُنا للعهد الذِّكري . . وقد يكون بالنِّسبة لمخاطبة هؤلاء الكُفار للعهد الحضوري . . يعني هذا اليوم الحاضر اصْلَوْا النار فيه.

يتردد علينا كثيرًا العهد الذكري والحضوري والذِّهني . . فما هو الفرق بينهم؟

العهد الحُضوري: ما كان معهودًا لحضوره، والذِّكري: ما كان معهودًا لذكره . . والذهني: ما كان معهودًا في الأذهان . . فمثلاً: إذا قلنا: «اذْهَب إلى القاضي». وأنت مثلاً في بلد . . إلى أي قاضٍ تذهب؟ إلى قاضي البلد نفسه . . لأن هذا معلوم في الذهن الحضوري، وإذا قُلت مثلاً: «اليوْم نُكْرِمُكَ» فهذا حُضوري . . كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (سورة المائدة:٣).

العهد الذكري: ما سبق ذكره مثل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ (سورة المزمل:١٥-١٦). يعني: الرسول المذكور . . ما هو رسول آخر، هنا: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الذي يظهر أنه عهد حضوري، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، «ما» مصدرية . . أي: بكونكم تكفرون والباء: للسببية أي: بسبب . . وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي تكفرون به في الدنيا . . فقد كفروا بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وبكل ما أخبر الله به . . ولهذا لم يقوموا بطاعته لأنه ليس عندهم إيمان، وإنما يُقال لهم: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لإقامة الحُجة عليهم وبيان أنهم لم يُظلموا، ولهذا: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾ (سورة الملك:٨-٩).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي الكفار لقولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣). ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وغيرها. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فكل عُضو ينطق بما صدر منه ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ الختم على الشيء بمعنى إغلاقه وعدم الوصول إليه .. ومنه: «خَتَمْت الكيس» إذا أحْكمت شَدَّه وحكمت عليه بالشمع ونحوه .. ومعنى ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: نسُدها فلا تتكلم .. وذلك أنَّ المشركين يوم القيامة إذا رأوا الموحدين قد نجوا تكلموا وتبرؤوا من الشرك .. وقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ لأننا غير مُشركين لعلنا ننجو كما نجى أهل التوحيد .. وحينئذ يُختم على أفواههم؛ لأن أفواههم صارت تتكلم بالكذب فيُختم على أفواههم وتنطق الجوارح والجلود:

الجوارح بما عملت، والجلود بما مست فإنَّ الجلد يمسُّ المحرَّمات كمس المرأة لشهوة مثلاً فتشهد عليهم الجوارح .. ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ نفس اليد تتكلم تقول: عملتُ كذا، عملتُ كذا، عملتُ كذا، ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ نفس الأرجل تشهد تقول: أشهد أنه عمل كذا وكذا، وتأمل الفرق بين اليد والرجل .. في اليد قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ﴾ في الأرجل قال: ﴿وَتَشْهَدُ﴾ لأنَّ اليَد تُخبرُ عمَّا فعلت والرِّجل تُخبر عمَّا فعل غيرها. قالوا: لأنَّ الأصل في المُباشرة اليد .. ولهذا دائمًا يُعلق الكسب باليد فيُقال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠). أو ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (سورة الروم: ٤١). أو ﴿كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة البقرة: ٧٩).

ولهذا كانت الأيدي مُباشرة والأرجل شاهدة .. لأن الشاهد هو الذي يُخبر عمَّا فعل غيرهُ .. والفاعل هو الذي يُخبر عما فعله هو بنفسه .. هكذا قال بعض أهل العلم .. وهو فرق لا بأس به مع أن الإنسان قد يشهد على نفسه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ (سورة النساء: ١٣٥). فإقرار

الإنسان على نفسه شهادة عليها . . لكن الفرق الذي أشار إليه بعض العلماء ونقلناه لكم فرق لا بأس به. ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ قال: ﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وغيرها . . المؤلف قال: «وغيرها» ولا يعني ذلك أنه يستدرك على القرآن لكنه يُنبِّه على موضع آخر من القرآن . . ففي آية أخرى بيَّن الله تعالى أنه تشهد عليهم الجُلود ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة فصلت: ٢٠). ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ (سورة فصلت:٢٢). السَّمْع والبصر هنا ما ذُكر . . هنا ذُكرت الأيدي والأرجل . . السمع والبصر والجلود ما ذُكروا . . ولهذا قال المؤلف: «وغيرها» إشارة إلى أنَّ هُناك أعضاء تشهد غير الأيدي والأرجل. ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾، السَّمع بما سمع، والبصر بما رأى، والجلد بما مسَّ.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ (سورة فصلت:٢١). ولم يقل: «وقالوا لأبصارهم وسمعهم لم شهدتم» لأنَّ عذاب الجلد عام يشمل الجسد كله لكن عذاب السَّمع والبصر خاصٌّ بالسَّمع والبصر . . فلهذا قالوا لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ لأن العذاب سيكون على الجلود . . كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (سورة النساء:٥٦).

الحاصل: أنه يشهد غير الأيدي والأرجل فيكون الشهداء خمسة: الأيدي والأرجل والسَّمع والبصر والجلود.

ويقول: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ . . قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تنازعه علامان:

الأول ـ «تُكلِّم».

والثاني ـ «تَشْهد».

والتنازع أن يتوارد عاملان على معمول واحد . . مثل أن تقول: «أكْرمتُ ورأيْتُ زيْدًا» فإنَّ «أكْرمت» و«رأيْت» عاملان على معمول واحد وهو «زيد» . . أما أيُّهما يعمل هل هو الأول أم الثاني؟ فالعلماء اختلفوا في ذلك.

يقول ابن مالك:

والثاني أولَى عند أهل البصرة ❖❖❖ واختار عكسا غيرُهم ذا أسره

«الثاني» العامل الثاني هو الذي يعمل عند البصريين، وعند الكوفيين الذي يعمل هو الأول.

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، ولم يقُلْ «بما كانوا يعملون»، لأن العمل قد لا يكون من كسب الإنسان .. قد يكون العمل خطأ فلا يُؤاخذُ به الإنسان فلا يكون من كسبه .. بل الذي يكون من الكسب هو العمل الذي يترتَّب عليه الثواب أو العقاب .. ولهذا قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (سورة البقرة:٢٨٦)، ولم يقل: «لها ما عملت وعليها ما عملت» فالكسب أخص من العمل، لأنه لا يلزم من كل عمل أن يكون كسبًا .. قد يكون وقع عن سهو أو عن جهل فلا يُؤاخذ به الإنسان .. وقد يكون عن غير قصد فلا يُؤاخذ به الإنسان .. لكن مع ذلك أحيانًا يُطلق العمل ويُراد به العمل الذي هو كسب .. مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة الجاثية:١٥). يقول: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فكل عضو ينطق بما صدر منه» .. اليد تنطق بما بطشت، والرِّجل بما مشت، والعين بما رأت، والأُذن بما سمعت، والجلد بما مسَّ.

في سورة النُّور ذكر الله أن الألْسُن تشهد: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور:٢٤).

إذًا .. نُضيف هذا إلى الخمسة تكون ستَّة .. اللسان أيضًا يشهد عليهم .. لأن اللسان هو أعظم الجوارح خطرًا .. لقول النَّبي ﷺ لمعاذ: «**ألا أدُلُّك عَلَى مِلاك ذلك كُلِّه**، قُلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا» قلت: يا رسول الله إنَّا لمؤاخذون بما نتكلَّم به؟ قال: «**ثكلتك أُمُّك يا مُعاذ .. وهل يكب الناس في النار على وُجُوههم - أوْ قال: عَلَى مَناخِرِهم - إلاَّ حَصَائد ألْسنتهم**».

وكلّ صباح تُكفِّر الجوارح اللّسان . . يعني: أنَّها تجعل الأمر منوطًا به . . ولهذا قال في سورة النُّور: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ ونصَّ على الألسن في سورة النُّور؛ لأنه ذكر فيها ما يتعلق بذلك من الأمور العظيمة . . كالقذف مثلاً وأعظمه قذف عائشة ﵂ . . فلهذا ذُكرت في سورة النور الألسن؛ لأن القذف قول . . فقال: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فكل عضو ينطق بما صدر منه.

❁ ❁ ❁

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)﴾

قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ لأعميناها طمسًا. ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ ابتدروا. ﴿الصِّرَاطَ﴾ الطريق ذاهبين كعادتهم. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ فكيف يُبصرون حينئذ، أي: لا يُبصرون. ﴿لَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قردةً وخنازير أو حجارة. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ وفي قراءة «مكاناتهم» جمعُ مكانة، بمعنى: مكان، أي: في منازلهم. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي لم يقدروا على ذهاب ولا مجيء.

قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ «لوْ» هذه حرف امتناع لامتناع .. الذي امْتنع الطَّمس .. لامْتناع المشيئة .. فإذن .. هي حرف امتناع لامتناع .. «لوْ جاء زيدٌ لأكرمْتُهُ» امْتنع المجيء والإكرام لكن «لوْلا» حرف امتناع لوجود .. و«لَمَّا» حرفُ وجود لوجود .. فهذه الثلاثة الأدوات: تنازعت الوجود والعدم .. «لو جاء زيد لأكرمته» امْتناع لامتناع، «لولا زيدٌ لأكرمتُك» امتناع لوجود .. وإن شئت فقل: لولا مجيء زيد لأكرمتك.

هنا: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ إذًا ... حرف امتناع لامتناع امتنع الطَّمس لامتناع المشيئة .. فقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ ﴿نشَاءُ﴾ هذه جمع: و﴿نَشَاءُ﴾ الضمير ضمير الجمع .. يعني: لو نشاءُ نحن .. وهذا من المشتَبِه .. لأن النَّصراني ادَّعى تعدد الآلهة بمثل هذا الضمير .. قال: الله عزَّ وجلَّ يُعبِّر عن نفسه بنحن ونشاء ونُريد وما أشبه ذلك.

إذًا .. فهو مُتعدد .. ولكننا نردُّ عليه بأنَّ الجمع هنا للتَّعظيم .. وليس للتعدد؛ لأنك عميت عينك وعميت بصيرتُك عن الآيات الصريحة المُحكمة الدَّالَّة على أنَّ الله إلهٌ واحد .. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (سورة النساء: ١٧١). ولكن كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ (سورة آل عمران: ٧).

إذًا . . الضمير ﴿نَشَاءُ﴾ وضمير جمع نحن هذا للتعظيم وليس للجمع قطعًا . . لأن الله واحد.

﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ قال: «أعْمَيْناهم طمسًا، والطَّمْس أبلغ من الإعماء؛ لأن الطَّمس إزالة العيْن مرَّةً واحدة ليس لها أثر . . والعمى: يكون مع بقاء العيْن . . لكن قد تكون قائمة بصورتها وقد تختلف . . المهم: أنَّ الطمس إزالة العين ومعالمها نهائيًا . . ولو شاء الله تعالى لفعل ذلك: حتَّى بعد وجود العين وإلا لن يخلق بهم أعينًا؟ نقول: بعد وجود العين . . لأنه قال: ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ والله عزَّ وجلَّ على كل شيء قدير . . فكما كان قادرًا على شق العين فهو قادر على طمس ذلك الشَّق . . وإذا كان البشر ربُما يخيط الشَّق حتَّى يتلائم، فما بالك بالخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يقول للشيء ﴿كُنْ﴾ فيكون.

﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾، يعني طُمس على أعينهم فصاروا يتسابقون لعلهم يُدركون الطريق الذي يُوصلهم إلى مقصودهم . . كأنك تتصورهم الآن يتنافرون تنافر الحمر لعلهم يهتدون إلى الطريق . . وهل هذا مُمْكن؟ هل يُمكن للأعمى أن يدل الطريق؟! لا . . من حيث الدلالة البصرية لا يُمكن . . ولهذا قال: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ يعني: كيف يُبصرون الطريق وقد طمس الله أعينهم . . والمقصود بهذه الآية . . المقصود أنَّ الله ـ سُبحانه وتعالى ـ طمس قُلُوب هؤلاء ولو شاء لطمس أعينهم فصار الطَّمسُ حسيًّا معلومًا.

وكما أنَّ المطموسة عينه لا يُبصر . . فكذلك المطموسة بصيرته لا يُبصر الحق . . كيف يُمكن لإنسان طمس الله بصيرته أن يُبصر الحق ويهتدي؟! هذا شيءٌ مُتعذر . . كما أنَّ من طمس الله بصرهُ لا يمكن أن يهتدي إلى الطريق.

قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، الأول ـ ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ انتفاء الدلالة، والثاني ـ انتفاءُ السير.

﴿ولَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾، ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قيل: المرادُ بالمسخ: ما قال المؤلف: قردة وخنازير . . حجارة . . وقيل: المراد بالمسخ: الإبقاء على ما هم عليه، يعني: يُمسخون على مكانتهم فلا يستطيعون التَّحرك . . وهو آدمي لكن ممسوخ لا يستطيع الحراك.

وأيًا كان فالله على كل شيء قدير، وقد قلب الله تعالى بني آدم قردة وخنازير، ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (سورة البقرة: ٦٥). ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (سورة المائدة: ٦٠).

فالله سُبحانه وتعالى على كل شيء قدير . . والنبي ﷺ قال: «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يُحوِّل الله رأسه رأس حمار أو يجعل صورته صورة حمار» . . والأمر هيِّن على الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول: ﴿كُنْ﴾ فيكون.

فيقول: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: حوَّلنا صورهم إلى صور أخرى من القردة والخنازير أو جعلناهم حجارة أو أنَّنا أبقيناهم ماكثين كالجماد . . المهم: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لو شاء لمسخهم وأبقاهم في مكانهم لا يتحركون . . ولهذا قال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾، يعني: فما استطاعوا أن يمضوا؛ لأنهم مُسخُوا على مكانتهم وبقوا ثابتين . . ولا يستطيعون أن يرجعوا . . والذي لا يستطيع أن يمضي ولا يرجع معناه ثابت كالعمود لا يتقدَّم أمامًا ولا يتأخَّر خلفًا . . لو شاء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لمسخهم على هذا حتَّى ظهر أمرهم محسوسًا . . أما بالنسبة للخير والتقدم المعنوي فهم لم يتقدَّموا إلى الخير ولكن تأخروا عنه إلى الشر . . ولهذا كان سيرهم الذين يسيرون عليه في العمل عكس الاتِّجاه الصحيح . . بل مُضاد له تمامًا. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. يُستفاد من هذه الآية الكريمة فوائد:

أولاً ـ بيان عداوة الشيْطان لبني آدم حيْث أضلَّ منهم جبلاً كثيرًا: أي خلقًا كثيرًا عظيمًا.

ومنها: الحذر . . بل: التَّحذير من الشَّيطان وإغوائه؛ لأنه لا يُمكن أن يسعى لهداية الخلق أو لهداية بني آدم وإنَّما يسعى لإضلالهم.

ومنها: أنَّ من اتبع الشيطان في إغوائه وإضلاله فهو غير عاقل لقوله: **﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾**.

ومنها: أنَّ ما ساء تصرُّفه صحَّ أن يُنفى عنه العقل وإن كان عاقلاً عقل إدراك . . لقوله هنا: **﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾**، وقد مرَّ علينا أنَّ العقْل عقْلان: عقل هو مناط التَّكليف . . وهو عقْل الإدراك، وعقلٌ هو مناط المدْح والذَّم . . وهو عقل التَّصرُّف الذي يكون به الرُّشْد.

ومنها: توبيخ ولوم من تبع الشَّيطان من إضلاله لكونه غير عاقل لقوله: **﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾**. ثم قال عزَّ وجلَّ: **﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**.

في هذا إثبات نار جهنم وأنَّها تُشاهد عيانًا يوم القيامة لقوله: **﴿هَذِهِ﴾**، والإشارة تكون إلى مُشارٍ إليه محسوس.

ومنها: بيان صفة النار وأنَّها ـ والعياذ بالله ـ كُلها ظُلمة وكلها سواد لقوله: **﴿جَهَنَّمُ﴾** لأنها من الجُهمة: أي الظُّلمة والسَّواد.

ومنها أيضًا: تقرير هؤلاء وإظهار خطئهم في تكذيبهم لقوله: **﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**.

ومن فوائد الآية: صدق وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث صدق وعده فيما وعد به هؤلاء المُكذبين حتى شاهدوا ما وعدوا به عيانًا . . ثم قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾**.

من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أنَّ هؤلاء المُكذبين يُؤمرون أمر إهانة وإذلال ليَصلَوا النار لقوله: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ﴾.

ومن فوائدها: إثبات الأسباب لقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .. وإثبات الأسباب أمرٌ معلومٌ بالشرع والعقل والحس .. ولا يُنكر إثبات الأسباب إلا جاهلٌ بحقيقة الواقع .. فإنه لا أحد يُنكر أنَّك إذا رميْت الزُّجاجة بحجر انكسرت به .. وإذا ألقيت الخِرق في النار احترقت بها .. لا يُنكرُ هذا إلا شخص مُكابر في الواقع.

ومع هذا .. فهل الأسباب تفعل بذاتها أو تؤثِّر بذاتها؟ لا .. بل بخلق الله سبحانه وتعالى التَّأثير فيها .. وحينئذ لا يكون في إثبات الأسباب شيءٌ من الشِّرك. خلافًا لمن زعم أنَّ إثبات تأثير الأسباب نوعٌ من الشِّرك .. لأننا نقول: هذه الأسباب إنَّما تُؤثِّر بخلق الله عزَّ وجلَّ التَّأثير فيها .. ولهذا إذا شاء الله ألا تُؤثِّر لم تؤثر .. فإنَّ النار طبيعتها الإحْراق ومع ذلك لم تُحرق إبراهيم عليه الصلاة والسلام بل كانت بردًا وسلامًا عليه؛ لأنَّ الله قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٦٩).

ومنها: كمال عدل الله سبحانه وتعالى لقوله: ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، أي: فلم تُظلموا .. بل أنتم الذين فعلتُم ذلك بأنفسكم .. ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ الله - سبحانه وتعالى - يختم على أفواه المُكذبين يوم القيامة فلا يتكلَّمون وقد سبق لنا الجمع بين هذه الآية وبيْن قوله تعالى عنهم: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٣). فللقيامة أحوال: حال يُكذِّبون وحال يُقرِّون، لكن بعد أن تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قُدرة الله - سبحانه وتعالى - لقوله: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾، فإنه خلاف العادة .. أن تكلم الأيدي والأرْجل، ولكن الله

على كل شيء قدير .. ولهذا لَّما ذكر الله عنهم أنَّهم قالوا لجلودهم: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة فصلت: ٢١).

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الإنسان يمكن أن يشهد بعضه على بعض .. لأنَّ هذا الرَّجل الواحد تشهد عليه أعضاؤه بما عملت .. فهل يتفرَّع على هذا أنَّ الإنسان في الدُّنيا يُمكن أن يشهد على نفسه؟ نعم .. يُمكن .. وشهادته على نفسه هو إقراره على نفسه.

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ العبرة في العمل بما كان فيه من كسب .. لا مُجرد العمل .. لقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وذكرنا في التفسير الفرق بين قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور: ٢٤). و﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن مُجرد العمل قد لا يكون كسبًا كما لو صدر من جاهل أو صدر من ساه أو نائم أو ما أشبه ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الآيتان.

من فوائد الآية الكريمة: إثبات مشيئة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾، ولكن كل شيء مُعلق بمشيئة الله فإنه مقرون أيضًا بالحكمة .. لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يشاءُ مشيئة مُجردة بل مشيئته تابعةٌ لحكمته .. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة الإنسان: ٣٠). فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. يدلُّ على أنَّ مشيئته مقرونة بالعلم والحكمة.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: بيان تمام قدرة الله .. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾. هذه الأعين المُبصرة لو شاء الله لطمسها وصارت كأن لم تكن.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: ضرب المثل عن الأشياء المعقولة بالأشياء المحسوسة .. فإن هؤلاء لو طُمست أعينهم ما استطاعوا أن يهتدوا إلى السبيل ..

فكذلك إذا طمس الله بصيرة القلب والعياذ بالله لم يستطع الوصول إلى الحق ولم يعرف الحق.

من فوائد الآية الكريمة أيضًا: كمالُ بلاغة القُرآن؛ لأن الله لو شاء لقال: «ولوْ نشاء لطمسْنا على أعْيُنهم فما اسْتطاعُوا أنْ يذهبوا ولا يرجعوا»، لكن أتى به على هذا السياق المُبسَّط .. يعني الذي فيه توسع لأنَّه أبلغ في التأثير .. ولأنه يكون له نغمةٌ جيِّدة تهفو إليها الأسماع وتلتذُّ بسماعها .. ثمَّ قال: ﴿**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾. أيضًا فيها إثبات المشيئة وكمال قُدرة الله - عزَّ وجلَّ -.

ومن فوائدها أيضًا: أنَّ الله - سبحانه وتعالى - لو شاء لأثبتهم في مكانهم بحيث لا يسْتطيعون الذَّهاب ولا الرُّجوع .. ﴿**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ**﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾

الجملة هذه شرطية: فعل شرط هو قوله: ﴿نُّعَمِّرْهُ﴾ وجوابه. ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾، أي: نجعل عُمره طويلاً.. ولهذا قال المؤلف: «بإطالة أجله». ﴿نُنَكِّسْهُ﴾، وفي قراءة بالتَّشديد من التَّنْكيس والقراءة التي جعلها المؤلف أصلاً: من الإنْكاس، والإنكاس والتَّنْكيس بمعنى الرَّد من حال كاملة إلى حالٍ ناقصة.

وقوله: ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ أو ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ يقول المؤلف في تفسيرها: «أيْ خَلْقه.. فيكون بعد قُوَّته وشبابه ضعيفًا وهرِمًا». كُلَّما طال العُمر بالإنسان فإنه يرجع إلى الوراء.. ليس في القوة البدنية فحسب بل في القوة البدنية والقوة العقلية والقوة الفكرية فيضعف ويعود إلى أرذل العمر.. كما قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والغرض من هذا التَّنبيه وإن كان أمرًا واقعًا كل يعرفه.. الغرض من هذا أن يُبادر الإنسان عُمره.. مادام في قُوته وشبابه؛ لأنه سيأتيه اليوم الذي لا يكون عنده تلك القدرة البدنية ولا القدرة الفكرية ولا القدرة العقلية.. يكون تفكيره محدودًا كتفكير الصَّبي لا يُفكر إلا فيما يُحيطُ به جدران بيته.. ويكون عقله كذلك محدودًا لا يستطيع أن ينظر ويعقل ويُفكر في الأمور ويُوازن بينها ويحكم عليها.

كذلك أيضًا: يكون حفظه للأشياء محدودًا فيمرُّ به الشيء الصَّباح ولا يستطيع التعبير عنه في المساء.. كل هذا أمرٌ واقع وظاهر.. بل من الناس من يُسلبُ عقله نهائيًا وربُما يصل إلى حد يُشبه الجُنون.. يؤذي أهله بالصُّراخ والعويل والأناشيد.. وما أشبه ذلك.. حسب ما كان عليه حين الصِّغر.. حتَّى الإنسان إذا كان مثلاً جمالاً وكان يُنشد الأشعار تجده إذا كبر وهرم يُنشد هذه الأشعار. كل هذا أمرٌ لابُد منه.. ولهذا قال الشاعر:

لا طيب في العيْش مادامت مُنَغَصَّةً ❖❖❖ لذاَّته بادِّكار الموْت والهَرَم

كل إنسان عاقل إذا تذكر أنَّ مآله إمَّا موت عاجل وإمَّا هرم فإنَّه لا يطيبُ له العيش . . ولكن ليس معنى لا يطيبُ له العيش أنَّه يبقى ندمان في حُزن . . لا . . بل يسعى ويستعد لهذه الحال التي لابد منها.

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّ القادر على ذلك المعلوم عندهم قادرٌ على البعث فيؤمنون به، وفي قراءة بالتاء «أفلا تعْقلون».

وهي سبعية كما هو معروف . . هكذا قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: أنَّ المراد الاستدلال بتغيير حال الإنسان إلى هذه الحال الدامية على أن الله تعالى قادرٌ على أن يبعثهم . . وهذا الذي قاله مُمكن، لكن أحسن منه أن يُقال: إنَّ معنى قوله: ﴿أَفَلا يَعْقِلُونَ﴾: أفلا يكون لكم عقل فتبادروا أعماركم قبل أن تصلوا إلى هذه الحال . . تبادرونها بالإيمان والعمل الصالح ما استطعتم حتَّى إذا وصلتم إلى هذه الحالة وإذا أنتم على أتم استعداد لها.

وغالبًا أنَّ الإنسان الذي يمضي وقته بطاعة الله ـ سُبحانه وتعالى ـ أنَّه إذا هرم تجده لا يهتم إلا بالطَّاعات . . كثيرٌ من المُسلمين إذا هرموا تجد أحدهم يقول: أين الماء؟ أريد أن أتوضأ . . أو تجده يُصلي دائمًا . . أو تجده يقرأ القرآن دائمًا . . أو يذكر الله دائمًا . . وهذه من نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّ الإنسان يهرم على الحال التي يكون عليها . . وعكس ذلك: سيكون بالعكس . . من كان في حال قوته وشبابه على غير هذا العمل الصالح سوف يكون هذيانه إذا كبر بهذا العمل السيئ.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾

قال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي النبي. ﴿الشِّعْرَ﴾ ردٌ لقولهم إنَّ ما أتى به من القرآن شعر. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ما يسهل له الشعر. ﴿إِنْ هُوَ﴾ ليس الذي أتى به. ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ عظة. ﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ مُظهرٌ للأحكام وغيرها.

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، أمَّا «علَّمنا» فهي تعود «نا» إلى الله - سُبحانه وتعالى - وأما الضمير الهاء فتعود إلى النبي ﷺ .. فإذا قال قائل: أين مرجع الضَّمير؛ لأن كل الآيات السابقة ليس فيها ذكرُ للنبي ﷺ.

قلنا: إنَّ الضمير يُعلم مرجعه من السياق السابق أو السياق اللاحق .. وهذا يُشبه العهد الذِّكري في «ال» .. أو من الفهم بحيث يكون الأمر مفهومًا عند المُخاطب .. وهذا كالعهد الذِّهني .. هنا يعلم مرجع الضَّمير في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ ومعلوم أنَّ الذي جاء بهذا الذكر والقرآن المبين هو محمد ﷺ.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: ما علمنا النبي ﷺ الشِّعر؛ لأن الشِّعر في الواقع لو علَّمه الله النبيَّ ﷺ لكان في ذلك حُجة للمُبطلين المُكذِّبين ولقالوا: إنَّ هذا القرآن من جملة الشِّعر الذي عُلم إيَّاهُ.

ولهذا لم يُعلم الشِّعر ولم يُعلم الكتابة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت:٤٨). يقول ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ فالنبي ﷺ لم يقل شعرًا أبدًا، وإذا قُدِّر أنْ جرى على لسانه كلامٌ موزون وزْنَ الشِّعر فإنَّه ليس عن قصد وإرادة .. وإنَّما جاء عفوًا .. والذي يأتي عفوًا ليس مقصودًا .. فلا يكونُ معلومًا .. مثل قوله ﷺ: «انا النبيُّ لا كَذِب انا ابْن عبد المطلب» فإن هذا رجز ولكنه ليس عن قصد فلا يكون ذلك تعليمًا .. أما الشعر فإنه الكلام الموزون المُقفى .. وسُمي شعرًا لأنه يأخذ بالشُّعور .. ولهذا تجد أنَّ النَّظم يأخذ

باللب أكثر مما يأخذ النثر . . يعني: رُبما تسمع خُطبة بليغة جيِّدة جدًا وتجد ما يُماثلها في المعاني من النظم ولكنَّك ترى أنَّ تأثير النَّظم أشد وأخـذه بالشعور أكثر . . ولهذا سُمي شعرًا . . وبه نعرف أنَّ ما يُسمى الآن بالشـعر المنثور ليس بشعر؛ لأنه لا يأخذ بالمشاعر . . ليس بشعـر وليس بنثر . . وإنما هو كالمُنافق لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . . لا يطرب إليه من يطربون إلى النثر والخُطب ولا من يطربون إلى الشِّعر والقصائد . . فـهو في الحـقيـقـة ليس بشيء، ولكن لكل امـرئ من دهره ما تعـود . . الذين أحدثوه يطربون له ويرون أنه أشدُّ شاعرية من شعر امرئ القيس.

فنحن نقول: إنَّ الشِّعر هو الذي يأخذ بالمشاعر . . بأن يكون كلامًا موزونًا مُقفى يأخذ باللُّب.

يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾، قال المؤلف ردًا لقولهم: إنَّ مـا أتى به من القُرآن شعر، والمكذبون والذين يقومون ضد أي إنسان لابد أن يصفوا قوله بالمعائب . . من أجل أن يُنفـروا الناس عنه . . ولكن كـمـا قال الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (سورة التوبة: ٣٢).

قال الله ـ سبحـانه وتعالى ـ في سورة الذاريات: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ (سورة الذاريات: ٥٢). كل الرسل وصفوا بهذين الوصفين من أعدائهم: السِّحر والجنون . . ومحمـد ﷺ أيضًا وصف بذلك وصفوه بأنَّه ساحر وشاعر ومجنون وكاهن وكذاب . . كل ذلك من أجل أن يُنفروا الناس عنه . . ولكن هل نفر النـاس؟ أبدًا . . لأنَّ الحق ـ والحمـد لله ـ سيعلو مهما قُـوبل به من صدمات فإنَّ العاقبة له.

فإذا قال قائل: هذا الوصف للرسول ﷺ هل يتعدَّى إلى أتباعه؟

الجواب: نعم . . كل ما وُصفت به الرسل يُوصف بمثله أتبـاعهم . . ألم تعلموا أنَّ المجرمين إذا رأوا المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٣). يصفونهم

بالضلال . . وفي عصرنا يصفونهم بالرَّجعية والتأخر وما أشبه ذلك من الكلمات التي يُنفروا الناس بها عن الحق . . وأهل البدع يصفـون أهل السنة والجماعة بألقاب السوء . . يقولون: إنهم نوابت . . غُثاء . . حشو . . حشوية . . مُـجسمة . . مشبِّهة . . وما أشبه ذلك . . كل هذا من أجل التنفير عن ما هم عليه، ولكن الحمد لله أنَّ الأمر يكون ثوابًا لهؤلاء الذين يُوصفون بهذه العيـوب . . وامتحانًا لهم بالصَّبر على ما هم عليه من الحق ثمَّ العاقبة تكون لهم.

﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ المؤلف ـ رحمـه الله ـ قال: «وما يسْهُل له الشِّـعْر» يعني: ليس سهلاً له بل هو صعب عليه إنشاءً، وصـعب عليه إنشادًا . . يعني هو ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا أنشد شـعر غيره يُنشـده أحيانًا على غيـر الوزن المعروف، لأنه ليس له عناية بالشِّـعر أو تحفظ له . . أمـا بنفسه فـلا يُنشد . . ولكن الأولى أن نُفـسر هنا: ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ أي: ما يمكن ولا يصلح له ولا يليق به . . لأنها كلما جاءت في القرآن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فالمراد بها الممـتنع غاية الامتناع . . كمـا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ (سورة مريم: ٩٢). ليس معنى ﴿وَمَا يَنبَغِي﴾ يعني أنه ما هو طيب، ولكن يُمكن . . لكنه مُستـحيل غاية الاستحـالة ومثل قوله: ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ (سورة يس: ٤٠). يعني: هذا شيء مسـتحيل أن تدرك القمـر وهذا حسب العادة فيما يتعلق بالشمس. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: ما يمكن ولا يليق به ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يكون شاعرًا. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ قال المؤلف: «ليس الذي أتى به إلا ذكر». فأفـادنا بأنَّ «إن» هنا نافية . . يعني: ما هـو إلا ذكر . . «إنْ» مكسورة الهمزة تأتي لعدة معانٍ:

الأول ـ نافية . . كما هنا وعلامتها غالبًا أن يأتي بعدها «إلا».

الثاني ـ شرطية: مثل: «إنْ تُذاكر تَنْجح».

الثالث ـ وتأتي زائدة . . مثل.

بني غُـدانة مـا أنْتُمْ ذَهَبُ ❖❖❖ ولا صـريف ولكن أَنْتُمُ الخَـزَفُ

الرابع - مخففة من الثقيلة مثل: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ (سورة طه:٦٣). و«إنْ مالكٌ كانت كرام المعادن». والذي يُعين المعاني المُتعددة في الكلمة الواحدة هو السِّياق وقرينة الحال.

قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يعني: ما علمنا محمدًا ﷺ الشعر ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: لا يصح ولا يُمكن أن يتعلم الشعر .. لأن تعلمه الشعر يوجب احتجاجًا من المبطلين .. كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت:٤٨). فلو تعلم النبي ﷺ الشعر لقالوا: إنَّ هذا القرآن شعرٌ مما تعلمه .. كما أنه لو كان يكتب لقالوا إنَّ هذا شيءٌ مما كتبه.

قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ قال: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما هو .. أي الذي علَّمناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾.

فقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ ضمير يعود على المصدر المفهوم من «عَلَّمناه» .. وكون مرجع الضمير مصدرًا معلومًا من الفعل السابق أمرٌ لا يُستغرب .. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (سورة المائدة:٨). هو: أي: العدل المفهوم من كلمة اعدلوا.

فهنا: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ﴾ أي الذي علمناه ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما الذي علمناه إلا ذكر وقرآن مبين .. قوله: ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ قال المؤلف: «عظَة» يعني: موعظة يتذكرُ بها من تذكر .. ومن الذي يتذكر؟ الذي يتذكر بهذا القرآن بينه الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (سورة ق:٣٧). وهذا باعتبار الاستعداد والقبول ..

وقال تعالى في آيات أخرى ما يدل على أن كل المتقين يتعظون بهذا القرآن فيكون فيه بيان للذين يتعظون به من حيث السلوك، ففي سورة «ق» بيان للذين يتعظون به من حيث القبول والاستعداد بالتذكر وفي الآيات الأخرى التي تربط التذكر

بالقرآن بالإيمان والتقوى وما أشبه ذلك دليل على من يتعظ به من حيث السلوك والعمل وكلما ازداد الإنسان عملاً بالقرآن ازداد تذكرًا به.

وهذا الذي ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ في معنى الذكر هو أحد المعاني لأنَّ الذكر الذي وصف به القرآن يتضمن عدة معان:

المعنى الأول ـ ما ذكره المؤلف وهو العظة والتذكر به.

المعنى الثاني ـ أنه ذكر يُذكر به الله وهو أشرف أنواع الذكر .. كيف ذلك؟ لأن القرآن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فبمجرد ما تتلوه وأنت تشعر أنه كلام الله سوف تذكر عظمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ولأن القرآن يشتمل على أخبار هي أصدق الأخبار وأنفعها للقلوب .. ولأنه يشتمل على قصص هي أحسن القصص وأجملها وأتمها .. ولأنه يشتمل على أحكام من لدن حكيم خبير .. هي أعدل الأحكام وأقومها لمصالح العباد .. ولأنه يشتمل على أوصاف الله تعالى وأسمائه التي هي أفضل الأسماء وأشرف الأوصاف .. كل هذا في الواقع ذكر .. فالقرآن نفسه ذكرٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ لأنه يشتمل على كل هذه المعاني التي بينها الله تعالى في كتابه.

المعنى الثالث للذكر ـ أنه رفعة وشرف لمن يقوم به ويعمل به .. لقوله تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾** (سورة الزخرف:٤٤) .. والذكر بمعنى الرفعة والشرف موجود في القرآن كما في الآية التي تلوتها الآن، وكما في قوله تعالى: **﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾** (سورة الشرح:٤). أي: ذكرك بالشرف والتبجيل والتعظيم .. فصار معنى الذكر هنا التذكر الذي هو الموعظة والذكر الذي هو ذكرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما يشتمل عليه القرآن مما أشرنا إلى شيء منه.

والثالث ـ الشرف لأنه لاشك أنَّ من تمسك بهذا القرآن فإن له الشرف والسيادة على جميع الخلق .. ولهذا فإني أحثكم على أن تتمسكوا بهذا القرآن .. وأنتم إذا تمسكتم به عقيدة وعملاً وهديًا فستكون العاقبة لكم .. ولا تظنوا أنكم قليلون .. لو

كنتم قليلين فإنَّ الاهتـداء بالقرآن يستلزم أن ينجـذب الناس للمهتدي به حـتَّى يكثروا شيئًا فشيئًا كالحجر تُلقيه في اليم ثم تتسع الدائرة حتى يشمل اليمَّ كُله.

فالحـاصل أن المهم: أنَّ الإنســان إذا تمسك بهذا القـرآن الكريم فسـوق يكون له الشرف والسيادة والظهـور على جميع الخلق. قال: ﴿إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَقُرْآنٌ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى المفعول وأن يكون بمعنى فاعل .. لأن ﴿وَقُرْآنٌ﴾ مصدر مثل: الشكران والغفـران والنُّكران وما أشبـهها .. والمصدر يأتي بمـعنى اسم الفاعل ويأتي بمعنى اسم المفعول .. وعلى هذا فهو القرآن قـارئ ومقروء .. أما كونه قارئًا: فلأنه من القَرْء: يعني الجـمع: فهو جـامع أيضًا للأحكام والأخـلاق والآداب الموجودة في الكتب السابقـة قبله .. كما قـال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (سورة المائدة: ٤٨). هو جامع لكل ما تقـوم به أمور الدنيا وأمور الآخرة .. هو أيضًا مقروء، أي: متلو .. لأنه يُتلى والقراءة بمعنى التلاوة.

إذًا .. ﴿وَقُرْآنٌ﴾ نقول: إنه مصدر بمعنى اسم الفاعل واسم المفعول .. وهل له نظير: أعني إتيان المصدر على وزن فُعلان؟

نعم له نظير .. قلنا: الغُفران والشُّكران والنُّكران وما أشبهها.

قال: ﴿مُّبِينٌ﴾ قال المؤلف رحمه الله: مظهـر للأحكام وغيرها. فـ ﴿مُّبِينٌ﴾ هنا من أبان بمعنى أظهر .. وقد سبق لنا مرارًا أن أبان يكون لازمًا ويكون متعديًا: يكون لازمًا بمعنى ظهـر .. وهو كثير في القـرآن مثل: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة الجمعة: ٢). أي بيِّن ظاهر.

وتأتي ﴿مُّبِينٌ﴾ من أبان بمعنى أظهـر أي المتـعـدي .. كـمـا في هذه الآية .. ﴿مُّبِينٌ﴾ أي مظهر .. مظهر للأحكام وغير الأحكام .. كما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (سورة النحل: ٨٩). فما من شيء يحتاج الناس إليه إلا وجد في القـرآن .. كل شيء يحتـاج الناس إليه موجـود في القرآن .. لكـن وجوده في

القرآن إمـا أن يكون على وجه صريح . أو على وجـه ظاهر . . أو على وجه الإيماء والإشارة . . أو على وجـه الشمول والعمـوم . . أو على وجه اللزوم . . المهم: أنَّ القرآن مُـبينٌ لكل شيء: تارة يذكـر الدليل على المسألة . . وتارة يذكـر التوجـيه إلى الدليل على المسألة. فمثلاً: فيه مسائل كثيرة لا توجد في القرآن وهي من أهم أحكام الإسلام كعدد الرَّكـعات في الصلوات . . وتقدير الأنصبة للزكاة وما يجب فـيها وما أشبه ذلك . . لكن في القرآن ما يُشير إليه مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ (سورة الحشر:٧). هذه الآية إذا وجهتهـا إلى السنة شملت جميع السنة . . وشرعُنا كله لا يعدو الكتاب والسنة.

إذًا . . فالقـرآن مُبين لكل شيء . . ولهذا قـال: «مُبين للأحْكام وغـيرها»، هو أيضًا مُـبين لكل ما سـبقنا من الحوادث التـي يكونُ في بيانها مـصلحة . . كـقصص الأنبياء وقصص الأولياء، وقـصص المكذِّبين للرُّسل وغير ذلك . . كل ما سبق مما في ذكره مصلحة لنا فهـو مذكور . . أما ما ليس لنا فيه مصلحـة فإنه لا حاجة إلى ذكره . . وقد يكون هذا الشيء الذي لم يُذكر موكولاً إلى عـقول الناس وتجاربهم . . كما في كثير مـن طبائع الأشياء . . والأمور الطبيـعية سواء كانت فلكية أو جـيولوجية أو غير ذلك نجـد أن القرآن لم يُفصِّلها ولم يبيـنها . . لأنه ليس فيها فـائدة . . فائدتها تكمن في أن الناس يطلبونها وينظرون في آيات الله ويتحركون . . حتى يُدركوها . . ولهذا تجـد بعض المسائل التي يتنازع فيـها الناس كمـسألة دوران الأرض . . هل هي موجودة في القـرآن على وجه صريح؟ . . ليست موجـودة . . لو كان هذا مما يتعين علينا اعتقاده إثبـاتًا أو نفيًا؛ لكان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُبيِّنه بيانًا واضحـًا كما بيَّن الأمور التي لابُد لنا من الاعتقاد فيها على وجه صريح . . إذًا . . هذه موكولة إلى الناس.

استخـراج ما في الأرض من المعادن وغيرها من المصالح الـعظيمة التي لم يُطلع عليها إلا أخيرًا . . هذا أيضًا لم يذكـر في القرآن . . وإن كان في القرآن الإشارة إليه

لكنه لم يذكر على وجه التفصيل . . بل قال الله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ (سورة الرعد:٤). و﴿قِطَعٌ﴾. هذه من صيغ جـموع التكثـير . . لو تقول: إنهـا ملايين القطع . . لم يخرج عن دلالتها . . هذه القطع لولا أنها تخـتلف في منافعها وذواتها وكل ما يتعلق بها ما قال الله تعالى: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾. إذًا . . هي متباينة.

في هذه الآية مثـلاً تستطيع أن تقول: إن الله أرشـدنا إلى استخـراج المعادن من الأرض؛ لأن الله بين أنها قطع . . ما هي القطع التي فوق التراب هذا فقط . . هناك أشيـاء كثيـرة ما تعلم . . وربما تعلم في المسـتقل وربما بعضـها عُلم الآن . . المهم: القرآن مُبين لكل شيء . . وأنت إذا تدبرت الـقرآن مرَّة بعد أخرى لا تُعيـد التدبر مرة ثانية إلا ظهر لك معنى جديدًا غيـر الأول . . ولا يمكن لأحد أن يُحيط بمعاني القرآن . . لكن كُلما تدبره الإنسان طالبًا الحق مُريدًا للصواب، فإنه يهتدي إلى معانٍ كثيرة.

سُئل علي بن أبي طالـب رضي الله عنه: «هل عهد إليكم رسـول الله ﷺ بشيء؟» لأنه كان يُروج في ذلك الوقت ـ من وقت علي والشيعة يُروجون ـ بأن النبي ﷺ عهد بالخلافة لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . . فسُئل: «هل عـهد إليكم رسـول الله ﷺ بشيء؟» يعني: من الخلافة أو من العلوم التي كتمها عن الناس . . فقال: «لا والذي بَرَأَ النَّسْمة وفَلَقَ الحبَّة إلا فَهمًا يُؤْتيه الله تعالى مَنْ شاء في كتابه وما في هذه الصحيفة» والذي في هذه الصَّحيفة: «العقْل وفكاك الأسير وألاَّ يُقتَلَ مُسْلمٌ بكافرٍ».

الشاهد: كلامه الأول ـ «إلا فـهمًا يُؤتيه الله تعالى مَنْ شاء في كـتابه» هذا الفهم يختلف فـيه الناس اخـتلافًا كـثيرًا جـدًا جدًا . . ترى بعض العلمـاء يتكلم على آية يستخرج منها فـوائد محدودة معدودة، وترى آخر يتكلم عليها يستخـرج منها أضعافًا مُضـاعفة بالنسـبة لما استـخرجه الأول، كل ذلك بحـسب استعـداد الإنسان وفهـمه وبصيـرته . . وكلما ازداد الإنسـان إيمانًا وتقوى ازداد هُدى بـالقرآن: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (سورة محمد:١٧).

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)﴾

قال عزَّ وجلَّ: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ «بالياء والتاء» ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء .. فالضمير يعود على القرآن، ﴿لِّيُنذِرَ﴾ الضمير يعود على رسول الله ﷺ لكن على قراءة التاء قدَّر المؤلِّف «به» ﴿لِّيُنذِرَ﴾ به .. ولهذا قال: «بالياء والتاء به» كلمة «به» تعود على القراءة الثانية وهي: «تنْذِر» أمَّا القراءة الأولى فلا تحتاج إلى هذا التقدير.

ولاشك أنَّ القرآن نفسه مُنذر وأنَّ النَّبي ﷺ مُنذر به .. فالقرآن فيه وعيد وفيه أوصاف لمن يستحق هذا الوعيد .. وهذا هو الإنذار .كما أنَّ فيه أيضًا بشارة وأوصافًا للمُبشرين .. وهذا هو التَّبشير .. فالقرآن فيه بشارة وفيه إنذار . والنبي ﷺ جاء بالقرآن وأنذر به وخوَّف به ورغَّب به.

﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ قال المؤلف: يعقل ما يُخاطبُ به، وهم المؤمنون.

﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ : هل المراد بالحياة هُنا الحياة المعنوية التي هي حياةُ القلب أو الحياة الحسِّية التي هي حياة الجسم؟

الظاهر أنَّه يشمل الأمرين .. ولهذا قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ على وجه الأرض يعني: من كان حيًا حياة جسميَّة؛ لأن رسالة الرسول ﷺ رسالة عامَّة لجميع الخلق .. فهو يُنذر من كان حيًا .. يعني: يُنذر كل حي أو من كان حيًا حياة معنوية يعني حياة القلب .. حيث يُرادُ به من يعقل ويتبصر ويؤمن .. وعكسُهُ الميِّت: ميِّتُ الجسم وميِّت القلب .. أما ميِّتُ الجسم: فلا يُمكن إنذاره بالقرآن؛ لأنه انتقل إلى دار الجزاء ولا يُمكن أن يفهم ولا أن يعلم وأما ميتُ القلب: فلأنه قد طُبع على قلبه ـ والعياذ بالله ـ فلا يصلُ إليه النُّور ولا يصلُ إليه الحق.

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وهم كالميِّتين لا يعقلون ما يُخاطبون به. هنا قال: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ فينتفع بالإنذار ويتعظ ويتجنب المحرمات ويأتي بالواجبات.

﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ﴾ ماذا تتوقع أن يُقال؟ أتوقع أن يُقال: «ويحق القول على من كان ميِّتا» أوْ «على الأموات» لأن هذا مقتضى المقابلة .. لكن عُدل عن هذا إلى ذكر الكافرين ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وفائدة العدول عن ذكر المقابل بلفظه أمران:

الأمر الأول ـ أنَّ المراد بالميت الكافر وأنَّ الكافر لا يُمكن أن ينْتفع بالقرآن.

الثاني ـ على أنَّ من لم ينْتفع بالقرآن فهو كافر .. ومن انتفع به في شيء دُون آخر ففيه خصلة من خصال الكفر .. ولهذا كل معصية فهي من خصال الكفر لكنها قد تكون قليلة وقد تكون كثيرة .. فلهذا عدل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن هذا إلى قوله: ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ دون قوله: «ويحقَّ القولُ على الميِّتين» بل قال: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ومن هذه الأمثلة ـ وهي كثيرة في القرآن ـ قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ (سورة غافر: ٢٠). ولم يقل: «لا يقضون بالباطل» بل قال: ﴿لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ ليشمل الباطل وغير الباطل .. يعني: ليس لهم قضاء إطلاقًا؛ لأنهم مربوبون مملوكون فلا يقضون بشيء. ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)﴾

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ الاستقامة هنا للتقرير .. لأنه كلما دخل الاستفهام على نفي فهو للتقرير سواء كانت أداة النفي حرفًا مثل «لمْ» أو فعلاً مثل «ليْس» .. المهمُّ: أنَّ الاستفهام هنا: للتقرير .. والواو حرف عطف .. والمعطوف عليه ما سبق، أو أنَّ المعطوف عليه مقدَّر بين الهمزة والواو بحسب ما يقتضيه السِّياق.

يقول: ﴿يَرَوْا﴾ قال: يعلموا ففسر الرؤية هنا برؤية العلم .. ويمكن أن يراد بها رؤية البصر .. ورؤية البصر أشد في التقرير أو أقوى في التقرير من رؤية العلم .. لأن رؤية العلم قد يُنكر الإنسان ويقول: أنا ما أعلم بهذا .. لكن رؤية البصر إذا كان الشيء أمامه .. انظر الإبل مثلاً .. لا يُمكنه أن يُنكر .. والحقيقة أنَّها مُحتملة لهذا وهذا.

فباعتبار أن الله خلق هذه الأشياء لاشك أنَّها رؤية علم؛ لأننا لم نشهد خلق هذه الأشياء كما قال تعالى: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الكهف:٥١). وباعتبار المخلوق رؤية بصر؛ لأنه يُشاهد ويعلم ولا يُمكن إنكاره. قال المؤلف: «والاستفهام للتقرير والواو الداخلة عليها للعطف». الآن: هل الواو داخلة أو مدخولة؟ .. ما هو الداخل؟ هل السابق أم اللاحق؟.

السابق .. الداخل على الشيء هو السابق، ﴿أَوَ لَمْ﴾ عندنا الآن الهمزة والواو .. الهمزة دخلت على الواو أو الواو دخلت على الهمزة؟ نقول: دخلت الهمزة على الواو .. إذا قلت: «سوْفَ يقُوم» هل «يقوم» دخلت على «سوْف» أوْ «سوْف» دخلت على «يقُوم»؟ «سوف» دخلت على «يقُوم» .. فالداخل هو الأول .. والمؤلف يقول: «الواو الداخلة عليها» يُشير إلى القول الثاني في مثل هذا الترتيب .. وهو أنَّ

التقدير: «وألَم يَرَوْا أنَّا خلـقْنا لهم» . . وهذا أحدُ القولين كما هو مـعروف . . فهنا المؤلف ـ رحـمه الله ـ جعل الواو داخـلة على الهمـزة . . والواقع أن الهمـزة حسب الترتيب داخلـة على الواو . . لكنه ـ رحمه الله ـ يرى أنَّ في المسـألة تقديمًا وتأخـيرًا وأنَّ الواو داخلة على الهمزة في الأصل فأصله: «وألَم يَرَوْا».

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ في جملة الناس. ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: عملنـاه بلا شريك ولا معين. ﴿أَنْعَامًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم.

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي: أوجدنا لهم من العـدم أنعامًا . . والله ـ سبحـانه وتعالى ـ مُخـتص بالخلق . . لا خالق إلا الله ـ سبـحانه وتعالى ـ وإضـافة الخلق إلى المخلوق يعني أن يكون للمخلوق خلق ليس على سبيل الإضـافة بالنسبة إلى الله . . لأن خلق الله للأشـياء إيجاد مـن عدم . . خلق المخلوق للأشـياء ليس خلق إيجـاد . . ولكنه خلق تغيير من حال إلى حال أو وصف إلى وصف.

إذا نجرت الخشبـة بابًا فقد خلقتها بابًا . . لكن: هل أنت أوجـدت هذه الخشبة؟ الجواب: لا . لكن صيـرتها إلى هيئة مُعيـنة . . وهذا نوعٌ من الخلق . . ولهذا يُقال للمُصوِّرين يوم القيامة: «أحْيُوا ما خَلَقْتُم» مع أنهم لم يُوجِدُوا الصُّورة من عدم، لكن غيَّـروا ونقلوا من حال إلـى حال . . فالخلق الخـاص بالله هو خلق الإيجـاد . . أما الخلق الذي يكون من المخلوق فما هو إلا تغيير وتحويل فقط.

﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ . . اللام هنا للاستحقاق . . ويصح أن تكون للمُلك كما سيأتي في الآية نفسها.

﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ أي: مما عملنا، وليس المعنى أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق هذه الأنعام بيـده . . لو كان أراد ذلك ـ سبُـحانه ـ وتعالى وكـان الواقع كذلك لقال: «ممَا عملْنا بأيْدينا» كما قال تعالى في آدم يُخاطب إبْليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (سورة ص:٧٥). فهنا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد . . أما

هنا فأضاف العمل إلى اليد ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (سورة الشورى: ٣٠). وما أشبهها مما يُضاف فيه الفعل إلى اليد والمراد الإنسان .. كذلك هنا أضاف الله تعالى العمل إلى يده، والمراد نفسه أي: «مما عَمِلْنا». وهنا قال: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ بالجمع فهل الله عزَّ وجلَّ له أكثر من يدين؟

الجواب: لا .. ليس لله أكثر من يدين .. ليس له إلا يدان اثنتان .. فلماذا جُمع هُنا؟ جُمع من أجل المُناسبة؛ لأن الأفصح في المثنى إذا أُضيف إلى جمع، الأفصح فيه الجمع .. ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (سورة التحريم: ٤). مع أنه ليس للإنسان إلا قلبٌ واحد فهنا لمَّا أضافه إلى الضَّمير المُفيد للجمع، وهنا للتعظيم بلاشك ناسب الجمع.

وأيضًا: فإن الجمع أبلغ في التعظيم .. فلهذا جمعت .. وأيضًا: فإن هذه الأنعام لا يُحصيها إلا الله - عزَّ وجلَّ - فهي جموع كثيرة كل واحدة منها تحتاج إلى فعل خاص؛ لأن لكل واحدة خلقًا خاصًا .. فجمع أيضًا باعتبار المعمول الذي هو هذه الأنعام .. على كل حال: هذه الآية لاشك أنها تُفيد إثبات اليد لله - عزَّ وجلَّ -، ولكنها لا تُفيد أن له أكثر من يدين لما علمتم من وجه الجمع.

فإذا قال قائل: ما هو الدليل على أنه ليس لله إلا يدان اثنتان؟

قلنا: الدليل أنَّ الله تعالى تمدَّح بهما في مقام المدح والعطاء والرِّزق ولو كان له أكثر من ذلك لذكرهُ لاقتضاء المقام إيَّاه .. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (سورة المائدة: ٦٤). ولو كان له أكثر من اثنتين لقال: «بلْ أيْديه» لأنه بلاشك كلما كثرت الأيدي كثر العطاء .. وهذا باعتبار المخلوق .. أما الخالق عزَّ وجلَّ فعطاؤه لا ينفد ولا يعد وليس له إلا يدان اثنتان .. هذا ما عليه أهل السنة والجماعة.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ في الآية التي بعدها فائدة خـمسة: وهي إثبات العلة وإن شئت فقل: الحكمة لقوله: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ اللام .. وكلما رأيت اللام - لام التعليل - في كتاب الله - عزَّ وجلَّ - فهي مُثبتة للحكمة في أفعال الله تعالى وفي مشروعاته.

ثم قال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ إلى آخره.

من فوائد هذه الآية: تقرير نعـمة الله عزَّ وجلَّ على عـباده بهذه الأنعـام لقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾.

ومن فوائدها: أن هذه الأنعام مـلكٌ لنا ننتفع بهـا في جميع وجـوه الانتفـاعات لقوله: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ فكل وجوه الانتفاعات فإنه يجوز لنا أن ننتفع بها، لأنها مادامت لنا فنحن فيـها أحرار إلا ما قـام الدليل على منعه .. ويتفـرَّع على هذه الفائدة: أنه يجوز أن نركب ما لم تجر العادةُ بركوبه مثل: أن نركب البـقر .. ولهذا قال الفقهاء: «يجوز الانتفاع بهذه الحيوانات في غير ما خُلقت له».

فإن قلت: ما الجـواب عن الحديث الصـحيح: **«بَيْنما رجلٌ راكبٌ بقرة يسُوقُها إذ التفتت إليه، فقالت لَهُ: إنَّا لمْ نُخْلَق لهذا»** قال النبي ﷺ: **«فأنا أُوْمِنُ بذلك وأبو بكْر وعُمر»**؟

فالجواب على هذا أن نقول: إنَّ هذا الرجل قد ركبها ركـوبًا يشق عليها، وهي ما خُلقت لتُعذب .. وهو كذلك .. حتى لـو أنَّ الإنسان ركب الإبل على وجه يُعذبها قلنا له: إنها لم تُخلق لهذا.

من فوائد الآية الكريمة: صحَّة نسبـة العمل إلى الله لقوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لكـن هـل يُسـمى الله بالعامـل؟ لا .. كمـا لا يُسمَّى بالصَّـانع .. أخذًا من قـوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (سورة النمل:٨٨). وذلك لأنَّ باب الخبر أوسع من باب الإنشاء والتَّسـمية .. يجوز أن نشتق من كل اسم صفـة ولا يجوز أن نشتق من كل صفة اسمًا.

ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء: يعني: باب الصفات - صفات الله - أوسع من باب الأسماء .. لأن كل اسم مُتضمن لصفة وليس كل صفة تتضمن اسمًا.

من فوائد الآية الكريمة: إثبات اليد لله - عزَّ وجلَّ - لقوله: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ وهذه اليد التي وصف الله بها نفسه أو أضافها إلى نفسه يد حقيقية ثابتة .. لكن بدون أن تكون مماثلة لأيدي المخلوقين؛ لأن مماثلة الخالق للمخلوق ممتنعة غاية الامتناع عقلاً وسمعًا .. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (سورة الشورى: ١١). وقال تعالى: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ (سورة النحل: ٧٤).

وأما العقل: فإن كل عاقل يُدرك الفرق بين الخالق والمخلوق في الذَّات والصِّفات، فالواجب علينا نحن أن نؤمن بكل ما وصف الله به نفسه من غير تمثيل.

ثم اعلم أنَّ ما وصف الله به نفسه ينقسم إلى: صفات لازمة، وصفات غير لازمة، وإلى ما نظيره أجزاء وأبعاض لنا.

فمثلاً: السَّمع والعلم والقدرة والحياة .. هذه صفات لازمة ... ويسمِّيها أهل العلم الصفات الذاتية.

ومثل: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والخلق، وما أشبه ذلك صفات غير لازمة .. الله لم يزل ولا يزال خالقًا لكن المخلوق يتجدد .. فكل خلق يتعلق بهذا المخلوق فإنه يكون حادثًا بعد أن لم يكن، ولكن هذا حدوث نوع وليس حدوث جنس؛ لأن الله لم يزل ولا يزال خالقًا.

لكن الاستواء على العرش .. هذا لاشك أنه حادث، لأنه قبل العرش ليس بمستو عليه.

الذي نظيره أبعاض وأجزاء مثل: اليد والوجه والقدم والعين .. هذا نظيره بالنسبة لنا جُزء من الذات أو بعض منها .. ولا يصحُّ أن نقول إنه جُزءٌ من الله أو

بعض من الله، لأن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يتجزأ ولا يتبعض؛ إذ أنَّ الجُزء ما جاز وجود أصله بعدمه.

بالنسبة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يُمكن أن يكون هكذا .. يعني لا يُمكن أن تنفصل اليد مثلاً ـ وحاشًا لله عزَّ وجلَّ ـ أو الوجه أو ما أشبه ذلك.

بالنسبة للمخلوق يُمكن أن تنفصل، ولهذا يجب أن نقول: «ما نظيره أجزاءٌ وأبعاض لنا» ولا نقول: «ما هو أجزاءٌ وأبعاضٌ لله» لأنَّ هذا منكر غاية الإنكار.

اليد نقول: إنها حقيقية يد حقيقية ثابتة لله على الوجه اللائق به، ولكن لا تُماثل أيدي المخلوقين .. وهذا مذهب السلف وعليه جرى أئمَّة المسلمين .. لكن ابتُلي قوم بالتَّحريف .. تحريف اليد، وقالوا: إنها النِّعمة أو القُوَّة .. بناء على أن عقولهم تُحيل أن يتَّصف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ باليد الحقيقية!! ولاشك أنَّ هذا ضلال وجناية على النصوص.

أما كونه ضلالاً: فلأنهم حكموا على الخالق بعقولهم القاصرة .. وهذا لاشك أنه ضلال .. كيف تحكم على الخالق بعقلك؟!! الخالق ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (سورة المائدة: ٦٤). ويقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (سورة ص: ٧٥). ويقول: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وأنت تقول: ليس له يد؟!! سُبحان الله!! لولا التأويل لكان تكذيبًا .. لولا تأويلهم لها وقولهم نحن نُثبت اليد لكن المراد كذا؛ لكان هذا تكذيبًا للنُّصوص ونحن نعلم أن المُكذب للنصوص كافر.

جناية على النصوص: جناية على النُّصوص من وجهين: لأنهم يقولون: رن الله لم يُرد كذا وأراد كذا .. فنفوا ما أراد الله وأثبتوا ما لم يُرده .. فكان جناية على النُّصوص من الوجهين السَّلبي والإيجابي:

السلبي: حيث نفوا ما أثبت الله.

والإيجابي: أثبتوا ما لم يُرده الله.

إذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(سورة ص: ٧٥). ، فقال: أراد باليدين النِّعمة أو القوة!!

نقول: سُبحان الله!! ما الذي أعلمك؟! الله يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ وأنت تقول: ليس له يد بل هي نعمة!!

من الذي قال لك هذا؟! فنفيُك قول على الله بلا علم وإثباتك لما أثبت قول على الله بلا علم .. فكان جناية على النصوص من وجهين.

والحقيقة أن الإنسان يعجب غاية العجب أن يسلك هذا المسلك أئمة مشهودٌ لهم بالخير والصلاح ونفع الأمة!! ولكنه يعرف بذلك تمام حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنَّ الإنسان مهما كان فهو ضعيف وقاصر .. وإلا سُبحان الله!! الله ـ سُبحانه وتعالى ـ يتحدث عن نفسه بحديث هو أصدق الحديث وأحسن الحديث وصادرٌ ممن أعلم بما يقول .. ثم نقول: والله ما أراد هكذا.

إذًا .. يجب أن نؤمن بأن الله له يد حقيقية لائقة به لا تُماثل أيدي المخلوقين بأي حال من الأحوال، وهكذا يجب علينا أن نُجري جميع آيات الصفات وأحاديثها.

بقي علينا أن نقول: ما تقولون في تفسير بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ (سورة الذاريات: ٤٧). قال: أي: بقوة؟!

الجواب: أن نقول: هذا صحيح .. «أيْد» هنا بمعنى قوة لأنَّ «أيْد» مصدر آدَ يَئِيدُ أيْدًا .. ولا يجوز أن نقول هي كقوله: ﴿أَيْدِينَا﴾ .. هذا حرام علينا أن نقول إنَّها كقوله: ﴿أَيْدِينَا﴾ لأنَّ الله لم ينسبها إلى نفسه ما قال: «والسماء بنيْناها بأيْدينا» وإذا لم ينسُب الله ذلك إلى نفسه حرم علينا أن ننسبه إلى الله.. فكان يتعين أن نُفسر قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ أي: بقوة .. و﴿بِأَيْدٍ﴾ هنا مصدر آد يئيد .. كباعَ يبيع بيعًا .. وكال يكيل كيلاً .. هذا معناها.

وإذا لم يُضف الله الشيء إلى نفسه حرم أن نُضيفه إليه؛ لأننا لو أضفناه إليه وهو لم يُضف إليه لـكنَّا نقول على الله بلا علم . . ألم تر إلى قـوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (سورة القلم:٤٢). اختلف السَّلف في قوله: ﴿عَن سَاقٍ﴾ هل المراد: عن شدة أو المراد: عن ساقه - عزَّ وجلَّ -.

ونحن إذا أخذنا القاعدة التي قررناها الآن: بأن مـا لم يُضفه الله إلى نفسه يحرم علينا أن نُضيفه إليه . قلنا: إنَّ المراد بالساق هنا: الشدة ولابُد . . ولا يمكن أن نُفسره بساق الله؛ لأنَّ الله لم يُضفه إلى نفسه . . ما قال: «يوم نكشف عن ساقنا» بل قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ . . ولكن إذا تأملت سـيـاق الآيـات الكريمة ومـا جـاء في الصحيـحين من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ وجـدت أن ذلك يقتضي أن يكون المراد به: ساق الله . . فـإنَّ في حديث أبي سـعيـد الطويل المشهـور: «أنَّ الله يكشف عن ساقه فـيسجد له كل من كان يسـجد لله تعالى في الدنيا ويعجـز عن السجود من لم يسجد لله في الدنيا» فهنا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ (سورة القلم:٤٢-٤٣). نجد أنَّ سياق الآية مـوافق لسياق الحديث وحينئذ نقـول: إنَّ كلام الله يُفسر بكلام الله ويُفسر بكلام رسوله ﷺ . . فإذا دلَّ سياق حديث أبـي سعيد على ما دل عليه سياق الآية؛ فإن الآية تُفسر به وحينئـذ يكون القول الراجح أنَّ المراد بالساق الذي جاء على وجه النكرة المراد به: سـاق الله - عزَّ وجلَّ - ولكنه نُكِّر للتعظيم . . لأن التنكيـر قد يُراد به التعظيم . . فإذا قال قـائل: الآية التي معنا في سورة «يس» ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ فهل تصفون الله بأنَّ له أيد كثيرة أم ماذا؟!

نقول: الذي عليـه أهل السنة أنه ليس لله إلا يدان اثنتان . .وحينئذ نـحتاج إلى الجمع بين هذا القول الذي دل عليـه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (سورة ص:٧٥). ، وقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (سورة المائدة:٦٤) . . نحتاج إلى الجمع بين هذا وبين هذه الآية: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ

أيْدينَا أَنْعَامًا﴾، وإلى الجمع بينه وبين الإفراد الذي جاء في قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الملك: ١). وما أشبه ذلك.

قالوا أهل العلم: الجمع بينهما مُتيسِّر ولله الحمد: لأنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت . . ولا في كلامه من تفاوت أيضًا لا يتفاوت كلامه ولا يتناقض كما لا يتناقض خلقه أيضًا . . الخلق مُنسجم بعضه مع بعض وكذلك الشرع مُنسجم بعضه مع بعض . . كيف ذلك؟!

قال: إنَّ المفرد المضاف يشمل لأنه للعموم . . ألم تر إلى قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ (سورة إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨). كم من نعم؟ لا تُحصى مع أنه قال: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ واحدة لكن المفرد المُضاف يكون للعموم يشمل كل ما يثبت لهذا المفرد من معنى وإن كثر.

إذًا . . ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ لو فرض أنَّ هناك أيد كثيرة يدخل في ذلك . . واليدان تدخل . . إذًا . . لا منافاة بين المفرد وبين العدد: جمعًا كان أو مُثنى. بقي لنا الجمع بين اليدين الثنتين والجمع الذي هو ﴿أَيْدِينَا﴾ . . كيف نجمع بينهما؟ والجواب على هذا من وجهين:

الوجه الأول ـ أن كثيرًا من علماء اللغة يقولون: إن أقل الجمع اثنان . . واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (سورة التحريم: ٤). فهنا جمع مع أنَّ المراد اثنان . . وبقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ (سورة النساء: ١١). ﴿إِخْوَةٌ﴾ مع أنَّ الأم تُحجب باثنين تُحجب من الثلث إلى السدس باثنين . . وبقول النبي ﷺ: «**الاثنان فما فوقهما جماعة**» في الصلاة.

ولكن أكثر علماء اللغة يقولون: إنَّ أقل الجمع ثلاثة . . وحينئذ يُمكن الجمع بالوجه الثاني وهو أن نقول: إنَّ المراد بالجمع في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ المراد به التعظيم . . لأن الجمع يدل على التعظيم، ولهذا يأتي ضمير الجمع «نا» في

مقام التعظيم . . كل ضمير أضافه الله إلى نفسه وهو «نا» فليس المراد به الجمع . . المراد به التعظيم.

فهنا الجمع للتعظيم . . وللمناسبة أيضًا . . لأنه أُضيف إلى ما يُفيد الجمع فكان الأنسب أن يكون مجموعًا . . فهذه المُناسبة لفظية وإرادة التعظيم مُناسبة معنوية . . وبهذا يزول الإشكال . .

فإذا قال قائل: لماذا لا تقولون إن لله أيدٍ كثيرة؟!.

فالجواب: أن هذا يمنعه المعنى: لأن الله تعالى لما تمدح وأثنى على نفسه بالعطاء لم يذكر إلا يدين اثنتين . . ولو كان له أكثر لكان يذكر الأكثر . . لأنه أبلغ في المدح، فلما قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عُلم أنه ليس له إلا يدان اثنتان.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (سورة الزمر:٦٧). فأثبت القبضة بيد، و﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ باليد الأخرى . . والنصوص في هذا كثيرة ولهذا نعتقد نحن أن الله سبحانه وتعالى ليس له إلا يدان اثنتان فقط.

ومثل ذلك نقول في صفة العين . . العين وردت مجموعة ووردت مفردة.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (سورة طه:٣٩). ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة القمر:١٤). فنقول: «عين» مُفرد مُضاف فَيَعُمُّ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ للتعظيم . . إما أن نقول للتعظيم أو بأن أقل الجمع اثنان . . وليس لله تعالى أكثر من عينين اثنتين.

ودليل ذلك حديثُ الدجال: حينما تحدَّث النبي ﷺ عنه وبيَّن تمويهاته قال: «**إنَّه أعْور وإنَّ ربَّكم ليْس بأعْور**»، فبين العلامة الحسية الظاهرة وهي: عَوَرُ عيْن الدَّجَّال . . ومن العجب أنَّ بعض الناس قال: المراد بالعور هنا: العيب!! يُريد أن يُثبت أنَّ لله تعالى أعيُنا كثيرة بناءً على الجمع في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، ولكن هذا عورٌ منه

.. عور من هذا القـائل؛ لأن الحديث صـريح في أنَّ المراد: عور العين حـيث قال: «أعْوَرُ العيْن اليُمْنَى» ولم يقل: «أعْور» فـقط، ولو قالوا: «أعور» فقط ربما يحـتمل ما قاله مع أنه ضعـيف؛ لأن اللغة العربية تُعبر بالعـور عن العين .. الرسول ﷺ قال: «أربعٌ لا تجوز في الأضاحي، المريضة، والعجْفاء، والعَوْراء، والعَرْجاء». فجعل العـور غير العيب .. كل الثلاثة الأخرى كلها عيوب لكن جعل العور في العين .. فنحن نقول لهم: أصل العور في العين .. ثمَّ إذا جـاء الحديث «أعْوَرُ العيْن اليُمْنَى» صار قـاطعًا للاحتمال قطعًا نهائيًا .. لا يمكن أن يُراد به العيب .. فإذا قال قائل ما وجههُ؟!

قلنا: وجهه لـو كان لله أكثر من عين لكان الرسـول ﷺ يذكره .. لأنه أدل على تعظيم الله وأبين في التمـييز .. أدل على التـعظيم: إذا كان له أعين كثـيرة وأبين في التمييز: أبين من أن يُقال: إن الفرق هو أنَّ هذا أعور، والرب عزَّ وجلَّ ليس بأعور.

وبهذا تبين أنَّ دلالة حـديث الدجال وهو صحيح دلالة واضـحة ظاهرة .. على أنه رُوي في حديث عن الرسول ﷺ ذكـره ابن القيم في مختـصر الصواعق المرسلة: «إذا قام أحـدكم يُصلي فإنَّهُ بيْن عَـيْني الرحمن» .. «بيْن عَـيْني» وهذا الحديث فـيه ضعف .. لكنَّنا في الحقيقة لسنا بحاجة إليه، لأنَّ الحديث الثابت في الصحيحين في قصة الدَّجَّال واضح والحمد لله. ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾.

من فوائدها: إثبات اليد لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قوله: ﴿أَيْدِينَا﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أننا نملك هذه الأنعام ملكًا شرعيًـا وملكًا حسيًا قدريًا، أما الشرعي: فإننا نملك أعيانها ومنافعها بالبيع والشراء والتأجير وغير ذلك.

وأما الكوني الحسي: فلأننا نملك زمامها وضبطها وهي مسـخرة لنا نُقيمُها وننيخُها ونذهب بها ونرجع بها .. وهذا من تمام نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا بهذا الملك.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنه أتى بقوله: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾، الجملة الاسمية التي تُفيد الثبوت والاستمرار .. أي: ملك مستقر تام.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾

من فوائدها: بيان نعمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا بتذليل هذه الأنعام، ولو استعصت علينا ما تمكنا من الانتفاع بها . . ولهذا لما ندَّ بعيرٌ من الإبل في عهد الرسول ﷺ أدركه رجل بسهم فقال النبي ﷺ: **«إنَّ بهذه الإبل أوابد كأوابد الوَحْش فما نَدَّ منْها فاصْنعوا به هكذا»** فهذه البعير تمردت على أهلها ولم يدركوها إلا بالسهم.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان أنَّ أفعال المخلوقات مخلوقة لله لقوله: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ لكنها مفعولة للفاعل مُباشرة، فهي تُنسب إلى الله ـ عزَّ وجل ـ تقديرًا وخلقًا وتُنسب إلى الفاعل كسبًا وعملاً . . فهذه الإبل المُذللة الذي ذلَّلَها هو الله . . إذن . . أفعالها صادرة بخلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهذا هو المذهب الصحيح في هذه المسألة . . أي مسألة أفعال العباد: هل هي مخلوقة لله أو هي للعباد استقلالاً . . والمسألة فيها ثلاثة أقوال بل ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول ـ مذهب الجبرية الذين يقولون: إن خلق الله ـ عزَّ وجلَّ ـ شامل لكل حركة في السماوات والأرض، وإن الإنسان مجبور على عمله ليس له فيه اختيار . . بل الحركة الإرادية الاختيارية كالحركة الإجبارية التي ليس له فيها إرادة . . يقولون: إنَّ أفعال الإنسان كحركة السَّعف في الريح ليس باختياره . . فإذا قيل لهم: إنَّ هذا يلزم منه الفوضى بحيث يفعل كل إنسان ما شاء ويقول: هذا بغير اختياري وأنا مجبور عليه، ويلزم منه أيضًا أنَّ الله إذا عذَّب الإنسان على معصية كان ظالمًا له . . ويلزم عليه أنَّ مدح الطائعين لغو لا فائدة منه، لأنه لا يُمدح الإنسان على أمر يُجبر عليه بدون اختياره . . ويترتب عليه أيضًا أن ذم العاصين ظُلم؛ لأنه ذم لمن لا يختار هذا الفعل.

وكما أنه يترتب عليه هذه اللوازم الباطلة فهو أيضًا مُخالف للواقع . . فإن الإنسان يجدُ الفرق بين فعله لاختياره وفعله لاضطراره يجد الفرق بين أن ينزل من

السلُّم درجة وبطمأنينة واختيار وبين أن يأتي شـخص ويدفعه دفعًا حتى لا يتمكن من الوقوف . . فالأمر واضـح من الناحية الواقعية العـقلية أنَّ هذا القول باطل من أبطل الأقوال . . لكن غرَّ أصحابهُ أنَّ الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ ذكر أنه خلق كل شيء، وأنه قدَّر كل شيء، وأنه لا يكون في ملكه ما لا يُريد إلى غيـر ذلك من الأشياء التي يتعللون بها لكنهم في الحقيقة نظروا إليها وغفلوا عن النصوص الأخرى الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره.

ولهذا قابلهم قومٌ نظروا إلى النصوص الدالة على أن الإنسان فاعل باختياره وإلى الواقع فأنكروا أن يكون لله عـزَّ وجلَّ إرادة أو خلق في أفعال العباد وقـالوا: إن العبد مسـتقل بعمله يفـعل ما يشاء ويتـرك ما يشاء وليس لله سُـبحانه وتعـالى تعلق بفعل العبد!! هؤلاء أقرب إلى المعقول من أولئك القوم؛ لأن الإنسان لاشك يجد أنه فاعل بالاختـيار فهـو يدخل بيته ويخـرج من بيته ويأتي إلى المسـجد ويخرج من المسـجد ويختار هذا الفعل على وجه اختياري لا يشعـر أبدًا بأن أحدًا يُجبره على ذلك . . ولكن ضلَّ هؤلاء بسـلبهم إرادة الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ وخلقـه عن أفعـال الخلق واعتـقادهم أن الإنسان مُـستقل بمـا يُحدثه ولهذا سُـموا «مجـوس هذه الأمة» لمشـابهتـهم للمجـوس في إثبـات فاعلين للحـوادث، وهم يقـولون بإثبات فـاعلين للحـوادث: الذي من فعل الله هذه من فِـعل الله، والذي من فِعل الإنسـان هذه من فِعل الإنسان مُـستقلاً بهـا . . فلهذا سُموا «مجـوس هذه الأمة» وهؤلاء لاشك أنهم ضالون؛ لأنهم أخرجوا شيئًا في مُلك الله عن مُلك الله.

أهل السنة والجمـاعة توسطوا بين القـولين وأخذوا بالدليلين وقـالوا: إنَّ الإنسان لاشك يفعـل باختيـاره ويدعُ باختـياره وإن له إرادة تامة وقـدرة . . والذي خلق هذه الإرادة والقدرة هو الله عزَّ وجلَّ . . لو شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ لسلبه الإرادة ولو شاء لسلبـه القدرة . . ولذلك إذا سلب الله العـبد الإرادة لم يترتب علـى فعله حكم فالمجنون مثلاً: لا يُؤاخذ بأفعاله؛ لأنه لم يفـعلها باختياره . . والعاجز لا يُكلف . . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (سورة التغابن:١٦).

إذًا . . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي خلق الإرادة والقدرة في الإنسان . . قالوا: والإرادة والقدرة: هما السبب في وجود الفعل . . فلولا الإرادة ما فعلت، ولولا القدرة ما فعلت . . فالإرادة والقدرة هما سبب وجود الفعل . . وإذا كانا مخلوقين لله فإن خالق السَّبب خالقٌ للمُسبب فيضاف فعل العبد إلى الله من هذه الناحية: أي أن الله هو الذي أوجد فيه سبب الفعل فصار بذلك فاعلاً.

كما أن الإحراق مثلاً في النار يُنسب إلى النار . . والذي أودع فيها هذه القوة هو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فلذلك صار إحراق النار بفعل النار مُباشرة، لكنه بتقدير الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلقًا . . وهذا الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة هو المُطابق للمنقول والمعقول والواقع . . لأنه يجمع بين الأدلة الشرعية ويُصدق الأدلة الحسية . . فالأدلة الشرعية إذا جمعتها من أطرافها وجدت أنها تنصب في أُنبوب واحد هو الذي ذهب إليه أهل السنة والجماعة.

ولولا هذا الاعتقاد لشلَّت الحركة ولصار الإنسان اتكاليًا لا يقول ولا يفعل ولولا هذا الاعتقاد لم يلجأ الإنسان إلى ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ في مهماته ومُلماته . . فهو اعتبار أنه مُريد فاعل يتحرك ويعمل وباعتبار أنه مخلوق مُدبر يرجع إلى الله عزَّ وجلَّ . . فلا يكون اتكاليًا ولا يكون أنانيًا؛ يعني أنه لن يستغني بنفسه عن ربه ولن يكون اتكاليًا يقول: إنْ قُدر لي شيء صار . . بل هو يعمل مُستعينًا بالله مُعتمدًا عليه.

قال: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ لنا أن ننتفع بهذه الأنعام بالركوب . . ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك مشقة عليها . . فإن كان في ذلك مشقة كان حرامًا . . لأن المشقة تعذيب لها في غير محله.

ومن فوائد الآية الكريمة: جواز الارتداف على الدَّابة . . لعموم قوله: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ ولكنه مُقيد بما أشرنا إليه أن لا يكون في ذلك مشقة.

ومن فوائد الآية الكريمة أيضًا: حل هذه الأنعام أو حل بعضها إذا جعلنا «منْ» للتبعيض وجعلنا «الأنعام» أعم من بهيمة الأنعام.

والحل في الأنعام كلها هو الأصل . . ولذلك لو تنازع شخصان في أنَّ هذا الحيوان حلالٌ لكان القول من يقول بالحل حتَّى يقوم دليل على التحريم . .

أولاً - لعموم قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ (سورة البقرة: ٢٩).

وثانيًا - لعموم قوله: ﴿**وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾، فالأصل هو الحل . . حتى يقوم دليل على المنع . . لكن هذا الحل مُقيد في الواقع . . مُقيد بشروط الزكاة المعروفة . . لأنه إذا لم تُذكى البهيمة الحلال ذكاة شرعية صارت حرامًا لا تحل . . فهذا الإطلاق ﴿**وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**﴾ مُقيد بشروط . . وهو أن يكون مُذكى ذكاة شرعية . . ومع هذا إذا اضطر الإنسان إليه حل له وإن لم يُذك لقول الله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ (سورة البقرة: ١٧٣).

ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجوز تعذيب الحيوان إذا لم تتم مصلحتنا إلا به . . لأن الأكل ذبح . . لا يكون إلا بعد الذبح . . والذبح من أعظم ما يكون من الإيلام . . ولأن الشرع جاء بإباحة الوسم، وسم البهائم بالنار من أجل حفظ ماليَّتها ولأن الشرع جاء بمشروعيَّة إشعار الإبل والبقر في الهدي ليُعلم أنَّها هدي وإشعارها هو شق صفحة سنامها حتَّى يسيل منها الدَّم.

على هذا، فإذا احتجنا إلى تعذيب الحيوان من أجل حفظ ماليته أو غير ذلك فإنَّه لا بأس به . . مثل: ما يفعله بعض الناس الآن في الحمام: إذا أراد أن يُربِّيه عنده فإنه ينتف مُقدم الأجنحة لئلا تطير . . حتى تألف المكان الذي تُربى فيه . . يقولون: لو أنَّا قصصناها قصًّا ما بنت لها ريش بسُرعة، فلهذا يختارون أن ينتفوها نتفًا من أجل أن ينبُت الريش بسرعة وتستعد للطيران.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾

يُستفاد من هذه الآية الكريمة أيضًا: ما سبق من أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق هذه الأشياء لمنافعنا .. أي منفعة يمكن أن نحصل عليها من هذه البهائم فإنها مُباحة لنا ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ لكن بشرط ـ كما أسلفنا ـ أن لا يكون في ذلك مشقة .. فإن كان في هذا مشقة فإنها ممنوعة.

من فوائدها: حل ألبان هذه البهائم لقوله: ﴿وَمَشَارِبُ﴾.

ثم قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يُستفاد من هذه الجملة وجوب شكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه النعم ووجهه: أنه وبخ من لم يشكر، ولا توبيخ إلا على فعل مُحرم أو ترك واجب .. والشكر ـ شُكر المُنعم ـ كما دَلَّ عليه الشَّرع فقد دل عليه العقل .. فإن كل إنسان مدين لمن أنعم عليه .. عليه أن يشكره بحسب ما تقتضيه الحال .. ولهذا جاء في الحديث الصحيح: **«مَنْ صَنَعَ إليكم مَعْرُوفًا فكافئوه، فإنْ لمْ تَجِدُوا ما تُكافئُونه فادْعوا له حتَّى تَرَوْا أنَّكم قَدْ كافئتموه»**.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤)﴾

في هذه الآية من الفوائد:

أولاً ـ صحة إطلاق الإله على غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لقوله: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾**، ولكن هل هذه الآلهة حق؟

الجواب: لا .. هي آلهة باطلة لقول الله تعالى: **﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾** (سورة الحج:٢٦). فهي وإن سموها آلهة وعبدوها كما يعبدون الرَّب ـ عزَّ وجلَّ ـ فإنها لن تكون آلهة **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾** (سورة النجم:٢٣).

ثانيًا ـ أنَّ هؤلاء الذين اتخذوا هذه الآلهة توهموا فيها أنها تنصرهم .. ولكن أبطل الله هذا الوهم بقوله: **﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾**.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان المبطل لابد أن يتعلق بشيء يُبرر به باطله. وهذا الشيء هنا هو: رجاء النَّصر **﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾** .. وكل إنسان مُبطل لابُد أن يُعلل ما ذهب إليه من الباطل كما مرَّ عليكم كثيرًا في أقوال أهل البدع .. وكما مرَّ عليكم أيضًا .. حكمًا تعبديًا .. يعني: لن يقبل من الإنسان أن يقول: هذا حلال وهذا حرام حتَّى يُبين دليله وحُجَّته فيقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: **﴿لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾** .. في هذا دليل على أنَّ هذه الآلهة لا يُمكن أن تنصر عابديها لقوله: **﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾**، فإن قلت: أليسوا يستغيثون بالآلهة فيُغاثُون أحيانًا؟!

الجواب: أن هذه الاستغاثة حصلت عند استغاثتهم لا بها .. وفرق بين أن يكون الشيء حصل بالشيء، أو حصل عنده والسبب غيره. فسبب هذا الغوث الفتنة وليس دعوة هذه الأصنام لقول الله تعالى: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾** (سورة الأحقاف:٥).

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء العابدين جُند محضـرون لأصنامهم يُدافعون عن الأصنام وينتصرون لها لقوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ .. وفي هذا من المُناداة بسفههم ما هو ظاهر .. حيث يستنصـرون بمن لا يستطيعون نصرهم وهم ينصرونهم .. وهذا من السَّفه!! كيف تنتصر أو تنصُر شيئًا لا يستطيع نصرك ولا تستفيد منه .. ولهذا يُعتبر قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ كالدليل على سفه هؤلاء أنهم ينتصرون لهذه الآلهـة وينصرونها مع أنهـا لا تنصرهم .. وهذا الذي قـررته الآن بناء على ما اخترناه من أن معنى الآية: وهؤلاء العابدون للمعـبودين جُند محضرون .. أما على رأي المؤلف فـهـو يرى خلاف ذلك .. يـرى: أنَّ هذه الأصنام جُند لهـؤلاء لكنهم مُحضرون في النار جميعًا .. وسبق بيانُ ضعف هذا القول.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي: لا يُوقعك في الحزن .. والحزن هو الندم والهم لما مضى، وضده: الخوف فإنه الهمُّ لما يُستقبل .. ما الذي قالوه؟ قالوا أشياء كثيرة .. قالوا مثلاً: **﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾** (سورة ص:٥). وهذا طعن في الألوهية .. وقالوا: **﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾** (سورة الرعد:٤٣). وهذا طعن في الرسالة.

وقالوا: إن محمدًا ﷺ مجنون وشاعر، وكاهن، وساحر .. وهذا أيضًا عيبٌ في شخصية الرسول ﷺ. ومن المعلوم أن الإنسان بشر سوف يتأثر إذا صُودمت دعوته في لُبِّها وأصلها وقيل: **﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾**.

الإنسان إذا صودم قوله الفقهي مثلاً يُحسُّ في نفسه بضغط لكن إذا كان سيُهدم أصله يكون أشد وأعظم وإذا عيب عيبًا ذاتيًا يكون أشد وأشد .. ولهذا يُسلي الله نبيه محمدًا ﷺ في مثل هذه التوجيهات: **﴿فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾** الجملة استئنافية لبيان حال هؤلاء الذين يقولون ما يقولون في رسول الله ﷺ وما جاء به .. وحالهم أنهم مهددون بعلم الله - عزَّ وجلَّ - لما يُسرون وما يعلنون: ما يسرونه فيما بينهم وما يُعلنونه للناس، ما يُسرونه في أنفسهم وما يُبدونه لغيرهم فعندنا إسراران:

الأول - إسرار الإنسان ما في نفسه بحيث لا يعلم به أحد.

والإسرار الثاني - إسرار الأمر بينهم فلا يخرج لغيرهم .. ونضرب لهذا مثلاً: هؤلاء قوم عددهم عشرة يتحدثون فيما بينهم بأمر من الأمور لكن لا يخرج لغيرهم .. هذا إسرار.

أحد هؤلاء العشرة أضمر في نفسه شيئًا لم يُخبر به زملاءه .. هذا أيضًا إسرار .. فقوله: **﴿مَا يُسِرُّونَ﴾** يشمل هذا وهذا .. أي: ما أسرَّه كل إنسان في نفسه وما أسرُّوه فيما بينهم دون أن يُعلنوه لغيرهم .. وفي هذا من التهديد ما هو ظاهر .. فالله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه وسوف يُجازيهم على ذلك يوم القيامة.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾

قال: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ﴾، ﴿يَرَ﴾ بمعنى: يعلم. ﴿أَوَ لَمْ يَرَ﴾ أي: أو لم يعلم .. والاستفهام هنا للتقرير، والمراد به التوبيخ. والواو حرف عطف، والمعطوف عليه: إما مُقدَّر بعد الهمزة .. وإما ما سبق .. وعلى الثاني تكون الهمزة منقولة عن مكانها وأصله على القول الثاني. و﴿أَوَ لَمْ يَرَ﴾ وقوله: ﴿الإِنسَانُ﴾ قال المؤلف: «وهو العاص بن وائل» وعلى رأي المؤلف تكون «الـ» هنا للعهد الذهني .. ولكن الصحيح أنَّ «الـ» للجنس: أي: جنس الإنسان ومنه. لأنَّ الأصل في «الـ» أنها لبيان الجنس .. هذا الأصل فيها .. ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (سورة العصر:١-٢). يعني: جنس الإنسان ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ...﴾.

ووجه كون ذلك هو الأصل أن العهد يحصرها في شيء معين .. والأصل بقاء اللفظ على عمومه.

فإذا قال قائل: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ﴾ إنه فُلان بن فُلان .. نقول: الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قال: ﴿الإِنسَانُ﴾ وهو شامل.

إذًا .. فالصحيح أنه عام لكن نجعل العاص بن وائل ـ نجعله ـ مثالاً لمن قال هذا القول أو لمن رأى هذا الرأي.

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ مني إلى أن صيَّرناهُ قويًا شديدًا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شديد الخصومة لنا. ﴿مُّبِينٌ﴾ بينها في نفي البعث».

الإنسان خُلق من نُطفة .. وهو هذا المني المهين كما وصفه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا الماء المهين الذي خُلق منه الإنسان إذا رجع الإنسان إلى أصله وجد أنَّه كالنخامة ليس بشيء . ثم بعد هذا يُنشئه ـ الله عزَّ وجلَّ ـ حتى يُعطيه الفصاحة والبلاغة وقوة الحُجَّة

.. بعد أن يتربَّى بنعم الله في بطن أمه ثمَّ بصدر أمِّه بالثَّديين ثمَّ بما أنعم الله عليه من أنواع الطعام والشراب يقوى ويشتد عقله وفكره وذهنه فيكون خصيمًا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ أي شديد الخصومة؛ لأن فعيل بمعنى فاعل لكن تدل على المُبالغة.

﴿مُّبِينٌ﴾ «أي بيِّن» .. الذي يظهر أنها ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى مُظهِر .. يعني: مُظهر لخصومته لكونه شديد الخصومة قويها وهذا خلافًا لقول المؤلف: «بيِّن الخصومة» قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ يعني هذا الإنسان الذي كان خصيمًا مُبينًا ضرب مثلاً ـ لله عزَّ ـ وجلَّ يُريد التعجيز والإنكار وتقرير نفيه .. هذا المثل بينه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، ولهذا جاءت الجملة مفصولة عما سبق؛ لأنها وقعت بيانًا لُمبهم في قوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يعني: ابتداء خلقه .. أنه خُلق من ماء مهين فكان هذا الإنسان الخصيم المُبين.

والجملة في قوله: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ جُملة يحتمل أن تكون جملة خبرية ويحتمل أن تكون جملة حالية أي: وقد نسي خلقه .. يعني: أنه في ضرب المثل قد نسي أصله وهو أنه من مني، ثمَّ كان إنسانًا سويًا خصيمًا مُبينًا.

المثل بينه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

يقول المؤلف ـ رحمه الله ـ: «ونسي خلقه من المني وهو أغرب من مَثَله»!! كيف ذلك؟! لأن مثله الذي ضربه إعادة شيء كائن وخلقه من المني ابتداء خلق .. وأيهما أشدُّ امتناعًا لو كان فيه امتناع على الله؟!

الابتداء .. ولهذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (سورة الروم:٢٧). فإذا كان كذلك فإنه ـ أي الإنسان الخصيم المُبين ـ يكون ضالاً من وجهين:

الوجه الأول ـ استغرابه قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على الإعادة.

والثاني ـ نسيانه أول الخلق حيث نسي أنه خلق من ماء مهين حتى صار إنسانًا سويًا خصيمًا مبينًا.

﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي بالية. **﴿مَن﴾** استفهامية .. والمراد به: النَّفي أو الإنكار .. يعني: لا أحد يُحيي العظام وهي رميم .. الإنسان إذا مات ورم: أي ذهب لحمه وعصبه وصارت عظامه تتفتَّت لقدمها فهي إذن رميم .. هذه العظام الرميم هي أبعد شيء عن الحياة لأنها تُشبه التراب .. فهي أبعد شيء عن الحياة فكيف تُحيا هذه العظام؟! هذا وجه استغراب .. هذا الرَّجل المنكر.

﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ «أي: بالية ولم يقل بالتاء لأنه اسم لا صفة»، الرَّميم: تارة يُراد به الصفة: يعني اسم المفعول أو اسم الفاعل «مرْمُومة» أو «رامَّة» .. وتارة يُراد به الاسم: يعني أن العظم إذا بلي يُسمى رميمًا .. فلما قُصد به الاسم لم يحتج إلى التاء؛ لأنه مثل أسد وحجر وشجر وما أشبهها .. لم يحتج إلى التاء لكن لو أريد الصفة لكان يُؤنَّث؛ لأن العظام جمع، وكل جمع قابل للتأنيث لاسيما وأنه قال: **﴿وَهِيَ﴾** وهذه ضمير مؤنث قال: **﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾**. «وروي أنه أخذ عظمًا رميمًا ففتَّهُ وقال للنبي ﷺ: **«أتُرَى يُحْيِي الله هذا بعد ما بَلِيَ ورَمَّ»** فقال النبي ﷺ: **«نعم ويُدْخلك النَّار»**.

المؤلف ساق هذا الأثر بالتضعيف «رُوي» وهو جديرٌ بذلك لأن هذا الرجل المُنكر سواءٌ أنكر أمام النبي ﷺ أو خلف ظهره فإنه مُنكر بكلِّ حال .. وليس عادة الرسول ﷺ أن يُعامل الناس بمثل هذا الأسلوب بقوله: **«نعم، ويُدْخلك النار»** فالأثر هذا يحتاج إلى نظر في سنده وفي صحَّته،

قال الله تعالى مُبيِّنًا قُدرته على ذلك **﴿قُلْ﴾** والخطاب للرسول ﷺ .. **﴿قُلْ﴾** يعني: لهذا الذي أنكر أن يُحيي الله العظام وهي رميم.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩)﴾

واعلم: أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا قال للرسول ﷺ: ﴿قُلْ﴾ فهو أمر له بالإبلاغ .. ومن المعلوم أنَّ النبي ﷺ مأمور بإبلاغ القرآن عمومًا لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (سورة المائدة:٦٧). فإذا خصَّ شيئًا من الأحكام أو من الأخبار بـ ﴿قُلْ﴾ كان في ذلك عناية خاصة بهذا الذي أمر أن يقوله؛ لأنه أُمر أن يُبلغه على وجه الخصوصية .. ومعلوم أن ما كان على وجه الخصوصية فهو أوكد مما دخل في العموم.

وخلاصة هذه القاعدة: أن الله إذا أمر نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ﴾ فهذا أمرٌ خاصٌّ بتبليغ هذه المسألة سواء كانت خبرًا أو كانت حكمًا.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لم يقل: «الرَّب عزَّ وجلَّ»، ولم يقل: «يُحييها الله» بل قال: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ليكون الجواب مُتضمنًا للدليل .. لأنه لو قال: «قُل يُحَّييها الله» فهم الإنسان أنَّ الله هو الذي يُحَّييها، لكن إذا قال: ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كان هذا الجواب متضمنًا ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ .. ومن الذي أنشأها أول مرة؟! الذي أنشأها أول مرَّة هو الله عزَّ وجلَّ .. لم يخلق أحد من الخلق هذه العظام ولم يُنشئها أول مرَّة.

فإذا كان الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنشأها أول مرة فهو قادر على إعادتها؛ لأنَّ الإعادة أهون من الابتداء .. وهذا دليل .. أن الله ذكر فيما بقي من الآيات الأدلة على إمكان إحياء هذه العظام وهي رميم .. هذا هو الدليل الأول. ﴿الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وجه الاستدلال بهذا: على أن القادر على الابتداء قادر على الإعادة من باب أولى.

ثانيًا - قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ مجملاً ومفصلاً قبل خلقه وبعد خلقه . . هذه الجملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾. قال المؤلف: إن ﴿خَلْقٍ﴾ هنا بمعنى المخلوق . . فجعل المصدر بمعنى اسم المفعول . . والذي يظهر أنَّ المراد بالمصدر نفس المصدر.

ومن المعلوم أنه لا مخلوق إلا بخلق . . لكن إذا قال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صار في هذا نص على علمه بالخلق . . أي: كيف يخلق وكيف ينشئ الخلق . . فيكون أدل على قدرته على إحياء الموتى مما إذا قلنا: «وهو بكل مخلوق» لأنك إذا قلت «بكل مخلوق» صار علمه بالمخلوق بعد خلقه . . لكن إذا كانت الآية على ظاهرها ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ يعني: أنه يعلم كيف يخلق.

والعالم بكيفية الخلق إذا أراده لم يستعص عليه . . لأنه إذا كان عالمًا لم يبق إلا الإرادة . . إذا أراده وهو بكل خلق عليم فصنع ما علم - عزَّ وجلَّ - فكونه بكل خلق عليم دليل على أنه قادر على أن يعيده؛ لأنَّ الذي يعجز إما أن يكون لعجزه وإما أن يكون لجهله.

لو قلت لشخص: اصنع لنا مُسَجِّلاً . . وهو لا يعرف الصَّنْعة . . هل يصنع مُسجلاً؟! لا . . لماذا؟ لجهله.

لو قلت: اصنع لنا مُسجلاً وهو يعلم كيف يُصنع لكن ليس عنده قُدرة . . لا يصنع هنا، لَمَّا قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذه القدرة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، هذا انتفاء الجهل . . فإذا انتفى العجز المُستفاد من قوله: ﴿أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وانتفى الجهل المُستفاد من قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ صار الخلق ممكنًا.

هذان دليلان . . ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)﴾

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾ أي: في جملة الناس. ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾ المرخُ والعفار، أو كل شجر إلا العُنَّاب. ﴿نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ .. ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صيَّر .. والذي جَعَلَ لنا مِنْ الشجر الأخْضَر نارًا هو الله - عزَّ وجلَّ - وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ في جملة الناس. أراد المؤلف بقوله في جملة الناس أنَّ هذا الجعل ليس خاصًا بالمخاطبين - أي برسول الله ﷺ وأصحابه - بل هو عام لكل أحد .. فهو جعل لهم في جملة الناس ﴿مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾.

المؤلف يقول: إنه .. وبناءً على كلامه تكون «الـ» للعهد الذِّهني ويكون عامًا أُريد به الخاص. ولكن سبق لنا أن هذا خلاف الظاهر وأن «الـ» الأصل فيها أنها تُفيد الجنس: أي العموم، فالصواب أن المراد: ﴿مِّنَ الشَّجَرِ﴾ أي: من كل شجر .. كما قال.

وقوله: «إلا العُنَّاب» .. لا نعرف عن هذا شيئًا هل إنه يُستثنى، وأنَّ العُنَّاب لا يُمكن أن تأتي منه النار؟ .. الله أعلم .. على كل حال: نحن نقول: عندنا الأصل. ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا﴾ عامًا .. الشجر الأخضر فيه الرُّطوبة، والرُّطوبة يلزم منها البرودة والنار التي تخرج من هذا الشجر الرَّطب البارد يابسة وحارَّة .. فهذا اليابس الحار مُتولِّد من رطب بارد .. ولا يخفى ما بين الرُّطوبة والبُرودة وبين الحرارة واليُبُوسة من التَّنافر العظيم .. فإذا كان الله - عزَّ وجلَّ - يُولد هذا الشيء الذي بَيْنَهُ وبين المُوَلَّد منه من التَّنافر ما هو ظاهر فهو قادر على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن كونه يخلق الضدَّ من الضد أبلغ في القدرة من

كـونه الشيء من لا ضـد . . وهذا أمـر ظاهر . . إذن . . هذا الدليل الثـالث على إمكان إحياء العظام وهي رميم.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، الفاء هنا عاطفة، و «إذا» فُجائية . . يعني: أنه بمجرد مـا أن تضرب عودًا بعـود من هذا الشجر تنقـدحُ النار فتـوقد منه . . يعني لا يحتاج إلى كبير عناء . . بل إنَّ الإيقاد أمرٌ سهل مُفـاجئٌ للعمليَّة والمفاجئة استفدناها من كلمة «إذا».

وفي قوله: ﴿أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ دليل على استـمـرارية هذا العمل؛ لأن الجـملة الاسمـية تُفيد الثُّـبوت والاستـمرار . . وهذا أمرٌ لا أحـد يُنكره . . لا أحد يُنكر أنَّه يتولَّد من الشجر الأخضر نار يُوقد الناس منها.

﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ قال المؤلف ـ رحمـه الله ـ: «تقدحون . . وهذا دالٌ على القدرة على البـعث، فإنه جمع فـيه بين الماء والنار والخشـب فلا الماءُ يُطفئ النار ولا النار تُحرق الخشب».



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾

قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ مع عظمهما. ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ أي: الأناسي في الصِّغر. ﴿بَلَى﴾ هذا أيضًا دليل رابع .. ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ ..

الجواب: ﴿بَلَى﴾ أجاب الله نفسه بنفسه: ﴿بَلَى﴾.

خلقُ السماوات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (سورة غافر:٥٧). وهذا أمرٌ معلوم بالحس والمشاهدة .. البشر كلهم لا يُساوون كوكبًا من الكواكب .. فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يُحصيها إلا الله - عزَّ جلَّ - والسماوات العظيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (سورة الذاريات:٤٧). الذي خلق السموات والأرض أفلا يكون قادرًا على خلق الناس ؟؟!

الجواب: بلى والله .. بلى وأولى .. فالذي خلق هذه الأجرم العظيمة بما أودعها من المصالح العظيمة أيضًا قادرٌ على أن يخلق مثلهم بالأولى والأحرى .. وهذا الدليل هو الدليل الرابع.

قال: ﴿بَلَى﴾ أي هو قادرٌ على ذلك .. أجاب نفسه - عزَّ وجلَّ - ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ﴾ الكثير الخلق. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء.

﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ﴾ قال المؤلف: «الكثير الخلق» فجعل «فعَّالاً» من صيغة المُبالغة .. ولاشك أنَّ الله عزَّ وجلَّ كثيرُ الخلق .. لكن ينبغي أن نقول أيضًا: إن «فعَّال» هنا ينسبه .. يعني: أنه موصوفٌ بالخلق .. ووصفه بالخلق أبلغ من وصفه بإيجاد الخلق أو بفعل الخلق .. يعني: أننا لو قُلنا: «فُلان نجَّار» ماذا يُفيد قولنا: إنَّه نجَّار إذا

جعلناه من بـاب النِّسبة؟ ومـاذا يُفيد إذا جـعلناه من باب المُبالغـة؟ فالمعنى: أنه كثـيرُ النجارة . . لكن هل هو يُجيـدها؟ وهل هو مُستحق لأن يُوصف بهذه المهنة فـيُقال: نجار؟ قد يكون وقد لا يكون . . قد يكون كـثير النجارة لكن تطلع أبوابه ما تنفع أبدًا مُنحرفة تكسر المحامل ولا تنفع، وكل يوم يخرج لنا بابًا أو بابين ما شاء الله . . لكنه خرف . . هذا نقول «صـيغة مُبالغـة» لكن هل النِّجارة وصفه بمعنى أنه حـاذقٌ مُتقن لها؟! لا . . لا يلزم . . قد يكون وقد لا يكون.

أما إذا قلت: «نجَّار» على أنها نسبة: أي صاحب صنعة . . فهو أبلغ في الوصف . . والنَّجار أي: ذو الصَّنعة المُتقن لهـا سواء نجر كثيرًا أو قليلاً هو نجَّـار مُتقن . فهنا يُمكن أن نقول: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ نحملها على النِّسبة . . المُفيدة لوصف الله عزَّ وجلَّ بهـذه الصفـة العظيمة . . أي: ذو الخلق المُتقن على أكمل وجه . . ومع هذا فإنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ اجتـمع في حقه الوصف والفعل، يعني كثرة الخلق . . لاشك أنَّ خلق ـ الله عزَّ وجلَّ ـ لا يُحصى أجناسًا، فـضلاً عن الأنواع، فضلاً عن الأفراد . . من ذا الذي يُحـصي أجناس الخـلق؟ من ذا الذي يُحـصي أفـراد هذه الأنواع؟!! مـا يستطيع أحد . . لا يستطيع أحدٌ أن يُحصي ذلك.

إذًا . . فقد اجتمع في حقِّ الله سبحانه وتعالى الأمران: النسبة: يعني الوصفية، كمال الوصف، والثـاني ـ الكثرة التي تُفيدها صيـغة المُبالغة . . إذا كان الله سُـبحانه وتعالى خلاقًا . . أي: من وصفه الخلق، الوصف اللازم له، وكذلك كثيرُ الخلق . . هل يعجز عن أن يُحيي العظام وهي رميم؟! لا . . إذًا . . فهذا دليل خامس.

﴿الْعَلِيمُ﴾ هذا أيضًـا ـ العلم ـ دليل؛ لأننا قلنا: إنَّ عـدم الإعادة إمـا أن يكون للعجـز وإما أن يكون للجهل . . فكلمـا وصف الله نفسه بالعـلم فإنَّ ذلك يعني أنه قادر؛ لأنه لا يجهل كيف يخلق وكيف يُنشئ فيُمكن أن نعدَّ هذا دليلاً سادسًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾

قال المؤلف: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ أي: شأنه يعني: شأنه وحاله.. ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ ما يحتاج إلى إحضار آلات بناء مثلاً أو إلى جُنود يُساعدونه، ولا إلى أن يعمل بيده ـ عزَّ وجلَّ ـ بل يقول: ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾.

وقوله: «شأنُهُ» قد يُنازع فيها ويُقال: إنَّ المراد بالأمر أمرُ التكوين، يعني: أمره أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون أن يُكرر كما في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (سورة القمر: ٥٠). فيجعل الأمر، واحد الأوامر.. والمؤلف يُريد أن يجعل الأمر واحد الأمور.

ويُمكن أن نقول بالأمرين جميعًا: نقول: شأنه ـ عزَّ وجلَّ ـ في تمام قُدرته أن يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.. وأمره إذا أراد الشيء أن يقول: ﴿كُن﴾ بدون تكرار. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (سورة النازعات: ١٣-١٤).

﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ قال المؤلف ـ رحمه الله ـ: «أي: خلق شيء» ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ الأولى ألا تُقيد ﴿شَيْئًا﴾ بالخلق.. بل نقول: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ خلقًا أو إعدامًا.. يعني: أنَّ الأشياء إما أن يُريد الله إيجادها ـ أي: خلقها ـ وإما أن يُريد إعدامها.. والإعدام إتلاف لا إيجاد فالأولى إبقاء الآية على ظاهرها، على إطلاقها ﴿شَيْئًا﴾ سواء كان خلقًا وإيجادًا أو إعدامًا وإتلافًا.

لكن الذي حمل المؤلف ـ رحمه الله ـ على أن يقول: «خلق شيء» لأنَّ السِّياق للاستدلال على الخلق وهو الإيجاد.. فلهذا خصها به.

ولكننا إذا قلنا: إنها على إطلاقها فإنها لا تمنع الخلق كما لا تمنع الإعدام.. فالأولى أن يُقال: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أي: إيجاد شيء وخلقه أو إعدامه.. وقد يُعتذر

عن المؤلف فيُقال: إنَّ الإعدام فيه نوع خلق . . لأن إتلاف الشيء القائم خلق، ولهذا قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ (سورة الملك: ٢). مع أن الموت عدم وفناء. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة الملك: ٢).

والأمر في هذا سهل . . قال: ﴿شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿كُن﴾ هنا . . هل هي تامة أو ناقصة. تامة . . هذا هو الظاهر . . وإذا جعلناها ناقصة صار المعنى كن كذا؛ أي: تحول إلى كذا . . لكن إذا جعلناها تامة صارت أشمل . . لتشمل ما أراد الله تعالى تحويله من شيء إلى شيء، وما أراد الله تعالى إيجاده أصلاً . . يعني ﴿كُن﴾ أي: أوجد: يعني أن يوجد ويتكون . . أو ﴿كُن﴾ كذا . . أي: بأن يكون الطويل قصيرًا، والقصير طويلاً وما أشبه ذلك . . فإذا جعلناها تامة صار هذا أشمل . . ﴿فَيَكُونُ﴾ يقول: «فهو يكون وفي قراءة بالنَّصب عطفًا على يقول».

قراءتان سبعيتان لأنه قال: «في قراءة» واصطلاح المؤلف ـ رحمه الله ـ إذا كانت القراءتان سبعيتين أن يقول: «وفي قراءة» وإذا كانت إحداهما شاذة قال عن الشاذة: «قُرِئ».

في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ قراءتان: «فيكونَ» و«فيكونُ».

أما على قراءة الرَّفع، فالفاء هنا للاستئناف وجُملة «يكون» خبر لمبتدإٍ محذوف والتَّقدير «فهو يكون».

وأما على قراءة النصب فهي معطوفة على ﴿أَن يَقُولَ﴾. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ﴾، ﴿فَيَكُونُ﴾ . . «يقول للشيء كُنْ فيكونَ».

والفاء على كلا الوجهين: دالة على الترتيب والتعقيب . . يعني: أنَّ الشيء يكون فورًا بدون تأخير . . وقد بيَّنَ الله تعالى سرعة هذه الفورية في قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (سورة القمر: ٥٠).

لمح البصر ليس شيء أسرع منه . . وأمرُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ واحدٌ كلمح البصر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ . . هذا الدليل السابع.

وإذا كان هذا أمرُ الله وشأن الله فهل إذا قال للعظام الرَّميمة: «كُوني إنْسانًا سويًا» هل يمتنع عليه ذلك؟ لا . . . ولهذا قال الله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ (سورة النازعات: ١٣-١٥).

وقال في هذه السورة: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (سورة يس: ٥٣).



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

﴿فَسُبْحَانَ﴾ بمعنى: تنزيهًا .. وهي اسم مصدر، والمصدر «تسبيح» وهي مُلازمة للنَّصب على المفعولية المُطلقة دائمًا، ومُلازمة أيضًا للإضافة .. حتى لو قُطعت عن الإضافة لفظًا فهي مُضافة تقديرًا.

و﴿فَسُبْحَانَ﴾ معناها التنزيه .. التنزيه عن أي شيء؟

ذكرنا قريبًا: أن الله يُنزه عن النقص في صفاته وعن مماثلة المخلوقين.

فمثلاً: يُنزه أن يكون وجهه كوجه المخلوق ويُنزه أن يعتري صفاته نقص بأي وجه فمثلاً: العلم .. علمُ البشر ناقص ابتداء وانتهاء وشمولاً .. ابتداء لأنه مسبوق بجهل: انتهاءً لأنه ملحوق بالنسيان .. شمولاً: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) .. لكن علم الله - عزَّ وجلَّ - كامل من هذه الوجوه كلها ابتداءً وانتهاءً وشُمولاً فهو - سبحانه وتعالى - عالمٌ بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبدًا.

وهو لا ينسى كما قال موسى - عليه السلام -: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ (سورة طه: ٥٢).

وعلمه شامل لكل شيء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ (سورة آل عمران: ٥)، ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (سورة الطلاق: ١٢).

إذًا .. الله تعالى المُنزَّه عن النقص في صفاته الثابتة له.

والثاني - عن مماثلة المخلوقين .. «مُماثلة» ولا نقول «مشابهة» .. والفرق واضح:

أولاً - أنَّ المماثلة هي التي جاء نفيها في القرآن: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولم يقل: «ليس كشبهه شيء» وقال: ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾ (سورة النحل: ٧٤).

ثانيًا - أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما نوع من التشابه؛ ولولا ذلك ما فهمنا من صفات الله شيئًا . . فمثلاً: الوجود للمخلوق وللخالق . . بينهما تشابه في أصل المعنى وإن كان هذا يختلف.

العلم: علم الخالق وعلم المخلوق . . بينهما تشابه من حيث أصل المعنى . . لكنهما يختلفان . . فإذا نفيت المُشابهة مُطلقًا فهذا نفيٌ للوجود في الواقع.

ثالثًا - أن المُشابهة صار نفيها معناه عند كثير من الناس: صار نفيها نفيًا للصفات . . لأن كثيرًا من أهل التعطيل يصفون من يُثبتون الصفات بالمُشبِّهة فإذا قلت: «مَنْ غيرْ تشْبيه» يعني من غير إثبات.

كما قال المؤلف؛ أصله «الملك» لكن؛ زيدت الواو والتاء للمبالغة. المبالغة في ملك الله لكل شيء؛ لأن ملك الله لكل شيء ملكٌ تامٌ، لم يُسبق بعدم، ولا يُلحق بزوال، بينما ملكُ غيره ملكٌ ناقص، فأنت بالأصل لم تملك هذا الشيء، ثم ملكته بعد، ومع ملكك إياه فإن هذا الملك قابلٌ للزوال، ثم إنَّ ملكك إياه ليس ملكًا مطلقًا، تفعل فيه ما شئت، بل هو ملكٌ مقيد، أما ملك الله فهو تام، ولهذا جاءت الواو والتاء للمبالغة.

﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ملك كل شيء. هذا يمكن أن نجعله دليلاً ثامنًا.

أولاً - تنزيه الله عن كل نقص، هذا دليل؛ لأن عجزه عن إحياء العظام وهي رميم: نقص يُنافي التنزيه، فإذا ثبت أنه - عزَّ وجلَّ - مُنزه عن كل نقص لزم من ذلك تنزيهه عن العجز عن إعادة هذه العظام.

أيضًا: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ربُما . . دليلاً؛ لأن الذي يملك كل شيء ملكًا مُطلقًا مبالغًا فيه بالواو والتاء قادر على أن يُحول هذا المملوك إلى ما شاء؛ ولهذا المؤلف - رحمه الله - فسَّر الملكية هنا بالقدرة، قال: القدرة على كل شيء؛ ولكن كلامه فيه نظر، بل نقول: هو مالك لكل شيء؛ وإذا ملكه ملكًا مُطلقًا فهو قادر على أن يتصرف فيه كما يشاء.

العاشر - قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ تردون في الآخرة، ليجازيكم.

ووجه الدلالة من هذه الجملة، أنه لا رجوع إلى الله في الآخرة إلا بعد إحياء هذه العظام الرميم؛ ولو قلنا بعدم القدرة؛ لانتفى الرجوع إلى الله - عزَّ وجلَّ -، وإذا انتفى الرجوع إلى الله؛ صار وجود الدنيا كلها عبثًا ولعبًا، وهذا لاشك أنه مناف لكمال الله - عزَّ وجلَّ -.

فبمجرد رجوعنا إلى الله يلزم منه القدرة على الإحياء، ولا يمكن أن نقول بعدم الرجوع؛ لأننا لو قلنا بعدم الرجوع لكان إيجاد الخلق عبثًا، وهذا ممتنع غاية الامتناع.

فهذه عشرة أدلة في هذه الآيات على قدرة الله - عزَّ وجلَّ - على إحياء الموتى، إحياء العظام وهي رميم. والله على كل شيء قدير.

يعني لو لم يكن عندنا إلا هذه الجملة العامة ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة البقرة:٢٨٤). لكان كافيًا في بيان قُدرته - سبحانه وتعالى - على إحياء العظام وهي رميم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧)﴾

من فوائد الآية الكريمة: بيان أن الإنسان خُلق من ضعف، لقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من نُّطْفَةٍ﴾ وهو كذلك.

من فوائدها أيضًا: أن هذا الإنسان الذي خُلق من هذه المادة الضعيفة يترقى حتى يكون ذا خصومة مُبينة، لقوله: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

من فوائد الآية الكريمة أيضًا: النِّداء على الإنسان بالظلم، وجه ذلك: كيف يكون هذا الذي خُلق من هذه النطفة يبلغ به الحد إلى أن يكون خصيمًا لله - عزّ وجلَّ -، بيِّن الخصومة.

لأن الإنسان يجب عليه إذا نظر إلى أصله أن يعرف قدر نفسه، لا أن يكون مخاصمًا لربه عزَّ وجلَّ.

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ الخصومة بالباطل مذمومة. ووجه ذلك: أنَّ الآية سيقت مساق الذَّم، لا مساق المدح.

أما الخصومة التي هي إثبات الحق وإبطال الباطل، فإنها ممدوحة؛ لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل: ١٢٥). ولولا الجدال مع أهل الباطل ما تبين الحق، ولا اندحض الباطل، فلابد للإنسان من الجدال في إثبات الحق وإبطال الباطل، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه مذموم.

ومن هنا يمكن أن نُقسم الجدال إلى ثلاثة أقسام:

- ❖ جدال محمود مأمورٌ به، إما وجوبًا أو استحبابًا.
- ❖ وجدال مذموم منهي عنه.
- ❖ وجدال بين بين.

أما الجدال الممدوح: فهو الذي يُقصد به إثبات الحـق وإبطال الباطل، فهذا مأمور به، وهو كالجهاد في سبيل الله؛ كما أنَّ المجاهد مأمور بأن يحمل السلاح ضدَّ عدوه، ويُقاتله، فطالب العلم مأمور بأن يحـمل سلاح العلم، وهو المجادلة بالحق، ليدحض به الباطل.

الثاني - بالعكس، وهذا مذموم، منـهيٌّ عنه، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (سورة الشورى: ١٦).

الثالث - بين بين، يعني لا يؤمر به، ولا يُنهى عنه؛ لكن لاشك أنَّ تركه أولى، وهو الجدال في أمور لا تمس الحق أو الباطل بصلة، كما يحصل في كثير من المجالس من المجادلات، فهذا لاشكَّ أنه لا خير فيه، وأنه من المراء الذي ينبغي للإنسان تجنبه. ثمَّ إن أفضى إلى مفسدة كان منهيًا عنه، وإن أفضى إلى مصلحة كان مأموراً به.

كيف يُفضي إلى مفسدة؟

يكون مع الجدال والمراء والمحـاورة: عداوة بين المتجادلين، أو تعـصب لأحدهما من الحاضرين، ويحصل في ذلك تَحزُّب.

منفعة: مثل أن يكون المجادل مـغروراً بنفسه، ويرى أنه لا يغلبه أحد، فـتُجادله من أجل أن تكسر حدَّة هذا الغرور، وإن كان لا يترتب على هذا الشيء فائدة في حدِّ ذاته، لكن فيه فائدة لغيره، وهي كسر غُرور هذا الشخص، حتى لا يبقى زاهيًا بنفسه مُترفعًا على غيره.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾

من فوائد هذه الآية الكريمة: أنَّ المجادل بالباطل يأتي بالشبـهات التي ينصر بها باطله، لقوله: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، فإن هذه شبهـة تُلبس على العامة؛ لأنه لم يقل: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ﴾ فقط؛ قال: ﴿وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ فكيف تُحيى بعد أن رمَّت؟ فأهل الباطل يأتون بالشبهات ليُلبِّسوا على الناس.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذا الإنسان استهان بربه؛ حيث ضرب له الأمثال للتعجيز، لقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً﴾ يعني: قال: أنا أضرب لكم مـثلاً بهذا الشيء الذي يُعجِّز ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن المعارض للحق قد يُصـرح بالإنكار بدون مُراوغة، لقوله: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ﴾، وأحـيانًا يراوغ، فـالذي يُصـرح ويُبين أهون من الذي يُراوغ؛ لأن هذا يمكن أن يتقى شرُّه، أما المراوغ فإنه في الواقع خطر؛ ولهذا كان خطر المنافقين على الإسلام أكثر من خطر الكافـرين الذين يُصرحون بالعداوة؛ لأن المنافقين يغرُّون الناس، ولا يمكن التحرُّز منهم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾

من فوائد هذه الآيات: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾ الجواب على هذا المعترض: بيان قوة الإقناع في إقامة الحجة من كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، يعني: أن أقوى ما يسوق الحجج ويُبيِّنها: هو كلام الله، وهو كذلك؛ لأن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أبلغ الكلام وأحسنه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (سورة النساء:٨٧). فحديث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لاشك أنه أصدق الحديث وأتمه وأحسنه في الإقناع وإقامة الحجة.

من فوائد الآية الكريمة: الاستدلال بالأشد على إمكان الأخف، لقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقد استدل بالأشد على إمكان الأخف.

الأشد: إحياؤها أول مرَّة.

والأخف: الإعادة.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للمستدل المناظر أن يأتي بالشيء الذي يُقرُّ به خصمه من أجل أن تقوم عليه الحجة لأنه قال: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فينبغي أن تأتى بالشيء الذي يقرُّ به خصمك؛ لتقيم الحجة عليه بإقراره.

وهذا أدب من أدب المناظرة؛ لأنه أقرب إلى الإقناع، وله نظائر:

منها: أنَّ إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما ناظر الذي حاجه في ربه، فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (سورة البقرة:٢٥٨). فعدل إبراهيم عن ذلك وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ (سورة البقرة:٢٥٨). وهذا يقر به الخصم ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾. وهذا لا يمكن للخصم أن يقوم به.

فالحاصل: أنه ينبغي للإنسان أن يأتي خصمه من الوجهة التي يُقرُّ بها حتى يُقيم عليه الحجة.

من فوائد الآية الكريمة: تمام قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ بإنشاء هذه العظام لأول مرة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يخلق هذه العظام، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ (سورة الحج: ٧٣). مع أن الذباب ليس فيه العظام القوية الصلبة، فإذا كانوا لا يقدرون على ذلك؛ فهم على ما هو أعظم أعجز.

ومن فوائد الآية الكريمة: علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل خلق. سبق لنا في التفسير أننا ذكرنا أن الخلق هنا يحتمل أن يكون بمعنى المخلوق، أو يكون بمعنى الفعل، لكن احتمال الفعل أكثر، يعني: كل خلق فالله عليم به، ومن المعلوم أنَّ العالم بالخلق عالم بالمخلوق، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الملك: ١٤).

إذًا . . يستفاد من ذلك عموم علم الله سبحانه وتعالى: ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي: بكل صنع يصنعه مما نتصور ومما لا نتصور، وبكل مخلوق؛ لأن العالم بالخلق عالمٌ بالمخلوق. ثم قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حيث يتولد من هذا الشيء الرطب البارد شيء حارٌّ يابس، فتولد الشيء من ضده دليل على كمال القدرة؛ لأن العادة أنَّ الضدين متنافران لا يلتقيان أبدًا، وهنا: صار أحدهما يتولد من الآخر.

ومن فوائدها أيضًا: الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن التنافر بين الرطب واليابس، والحار والبارد، أعظم من أن تُعاد العظام بعد رميمها، فالقادر على هذا الشيء قادرٌ على إحياء الموتى.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله علينا بهذا الجعل، أي: بجعله من الشجر الأخضر نارًا وجه الدلالة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم﴾. ﴿لَكُم﴾ وإلا لكان يُكتفى فيقال: «الذي جعل من الشجر الأخضر نارًا» لكنَّ ذلك لمصلحتنا ففيه نعمة من الله

ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده بهذه النار، وقد قرر الله هذه النعمة في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ (سورة الواقعة: ٧١-٧٢). ولا أحد ينكر ما في الطاقة الحرارية من المنافع العظيمة للخلق، فأنواعها، بل أجناسها لا تُحصى، فضلاً عن أفرادها.

ومن فوائد الآية الكريمة: تقرير الشيء بالواقع يعني: بدل أن نُلقيه تصورًا في الذهن نذكر واقعة بالفعل، من قوله: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، فهو بيَّن أنه جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا، وهذا يُعطينا تصورًا بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل لنا من الشجر الأخضر نارًا نستفيد منها، ثم حقق ذلك بذكر الأمر الواقع: ﴿فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تحسُّونه بواقعكم وتلمسونه بأيديكم.



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾

هذه الآية من فوائدها: الاستدلال بالأشد على الأخف؛ لأن الله تعالى استدل بقدرته على خلق السموات والأرض على قدرته على إحياء العظام وهي رميم.

ومن فوائد الآية الكريمة: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعظمته، حيث خلق هذه السموات والأرض بما فيهما من المصالح والمنافع والأجرام الثابتة وغير الثابتة وهذا دليل على كمال قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومع عظمتها وسعتها وكبرها قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (سورة ق:٣٨). أي: من تعب وإعياء.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الردَّ على الفلاسفة الذين يقولون بقدم الأفلاك. وجه ذلك: أنه قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي: أوجده من العدم، ومعلوم أنَّ الموجد ليس بقديم، والقديم عندهم هو الأزلي الذي لا بداية له، فالسماوات والأرض كانت معدومة، ثم أُوجدت بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأما من قال بقدم الأفلاك وأنه لم تزل ولا تزال هذه الطبيعة، فإنه ضال، لا يعلم عن هذا شيئًا؛ لأنه بنى الأمر على غير دليل عقلي ولا نقلي، بل إنَّ الدليل العقلي والنقلي يدل على إمكان حدوث هذه الأفلاك وأنها حادثة.

ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إجابة السائل نفسه، في الأمر المحقق المُتقرر، لقوله: ﴿بَلَى﴾ إذ قد يقول القائل: إن إجابة المتكلم نفسه لا معنى لها، لأن إجابته دعوى، أو تقرير لدعوى ادعاها؛ فيقال: إذا كان الأمر ثابتًا واقعًا فإنَّ إجابته نفسه لا تأتي بشيء جديد سوى أنه يُقرر ما كان واقعًا معلومًا للمخاطَب، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي هذه الآية فائدة نحوية: وهي: أنَّ جواب الاستفهام المقرون بالنفي إذا أُريد إثباته يُقال فيه «بلى»، ولا يقال: «نعم»؛ لأنك لو أجبت بنعم لكان ذلك تقريراً للمنفي، يعني: تقريراً لنفي المنفي. لو قلت: «أَلَيْس زيد بقائم؟» فقلت: «نعم» يعني: قررت النفي: ليس بقائم؛ فإن قلت «بلى» فقد أثبت القيام.

ومن فوائد الآية الكريمة: أنَّ الخلق وصف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، الذي هو مُتصف به، أزلاً وأبدًا، لقوله: ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ فهو موصوف بالخلق من قبل أن يخلق؛ لأن صفة الخلق أزلية، والمخلوق حادث، هو عزَّ وجلَّ مُتَّصف بالخلق، ولهذا قلنا: إنَّ النسبة في قوله: ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ﴾ أظهر من كونها للمبالغة.

ومن فوائد الآية الكريمة: وصف الله تعالى بالعلم الأزلي، لقوله: ﴿الْعَلِيمُ﴾، ولاشك أن الله تعالى موصوف بالعلم أزلاً وأبدًا، فإنه لم يزل ولا يزال عالمًا، لم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان، كما قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ (سورة طه: ٥٢).



قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾

من فوائد هذه الآية: الاستدلال بعموم قـدرته عزَّ وجلَّ وتمامها على قدرته على إحياء الموتى.

من فوائدها أيضًا: بيان قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ التامة، التي لا يُضاهيها ولا يُقاربها قـدرة؛ لأنه إذا أراد شيئًا لم يتكلف لإحضـار المواد أو غيرها مما يتكوَّن به هذا الشيء؛ وإنما يقول: ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾.

ومن فوائدها: إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾، وإرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ كما قال أهل العلم تنقسم إلى: شرعية، وكونية. فالشرعية: هي التي بمعنى المحبة. والكونيـة: هي التي بمعنى المشيئة. والفرق بينهـما من حيث الأثر: أن الإرادة الكونية لابُد فيها من وقوع المراد. هذا واحد.

والثاني ـ أنَّ المراد فيـها قد يكون محـبوبًا لله وقد يكون غـير محبـوب له. أما الإرادة الشرعية: فقد يقع فيها المراد وقد لا يقع، ولا يكون المراد فيها إلا محبوبًا لله. فإذا قال لك قائل: هل الله يُريد الكفر؟ فقل له: أما شرعًا فلا، وأما كونًا فنعم. ولو قال لك قائل: هل الله يُريد الإيمان؟ فقل: نعم يريده شرعًا ـ وقدرًا إن وقع ـ إن كان واقعًا فقد أراده قدرًا، وإلا إذا لم يقع فلا نعلم: هل أراده قدرًا أم لا؟؛ بل نقول: إنه الآن لم يُرده قدرًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

في هذه الآية الكريمة فوائد:

منها: بيان قدرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وأنه إذا أراد شيـئًا: أي شيء يكون فإنما يقول له: ﴿كُن﴾ ﴿فَيَكُونُ﴾.

ومنها: إثبات الإرادة لله، لقوله: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ وسبق لنا في التفسير أن إرادة الله تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية، وتبينًا الفرق بينهما.

ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات القول لله، لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

ومن فوائدها أيضًا: أن كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يكون بحرف لقوله: ﴿كُن﴾، فإن ﴿كُن﴾ كلمة مكونة من حرفين. وإثبات أنه بصوت، لقوله: ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فهذا خطاب موجه لما أراده الله وهو يقتضي أن يكون هذا المراد سامعًا لهذا القول، ولا سماع إلا بصوت.

فيكون في الآية رد على قول الأشاعرة في كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ حيث يقولون: إنَّ كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وأن ما يُسمع من الأصوات والحروف فهو عبارة عن كلام الله، ويرون أن هذا المسموع مخلوق. ولهذا قال بعض المحققين منهم ـ أو: المنصفين منهم ـ : إنه في الحقيقة لا فرق بيننا وبين المعتزلة في كلام الله؛ لأننا متفقون على أن ما بين دفتي المصحف فهو مخلوق. فإذا كانوا متفقين على هذا، فإن قول المعتزلة قد يكون خيرًا من قولهم؛ لأن المعتزلة يقولون: إنَّ ما بين دفتي المصحف كلام الله؛ كلهم يقولون مخلوق، لكن المعتزلة يقولون: إنه كلام الله، والأشاعرة يقولون إنه عبارة عن كلام الله، فإضافته إلى الله على رأي الأشعرية مجاز لا حقيقة.

على كل حال، في الآية رد على الأشعرية في تفسيرهم لكلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ. وحقيقة الأمر أنهم لا يُثبتون الكلام؛ لأنهم إذا جعلوا الكلام هو المعنى القائم بالنفس فكأنما جعلوا الكلام هو العلم؛ لأن العلم هو المعنى القائم بالنفس، أما الكلام والقول فهو أمر زائد على ذلك.

ومن فوائد الآية الكريمة: أن أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إذا وجه لشيء، فإن هذا الشيء يكون كما أمر، لقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ أي: فيكون على أمر الله به، في العين والوصف، فإذا أراد الله إيجاد شيء قال: ﴿كُن﴾ فكان على حسب ما أراده الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣)﴾

في الآية الكريمة من الفوائد:

تنزيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل نقص وعيب، ويؤخذ من قوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿فَسُبْحَانَ﴾، ومرَّ علينا في التفسير: أن الذي يُنَزه الله عنه أمران:

النقص في صفاته، ومماثلة المخلوقين. فعلمه ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يناله نقص؛ لا من حيث الشمول ولا من حيث السبق، ولا من حيث اللحوق. ولا يُماثل علم المخلوقين. وهكذا بقية الصفات.

من فوائدها: أنَّ ملكوت السموات والأرض وكل شيء فهو بيد الله عزَّ وجلَّ، لقوله: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فهو مالك لكل شيء، ولا أحد يشركه في ملكه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ (سورة سبأ-٢٣).

من فوائد الآية الكريمة: أنَّ مرجع الخلائق إلى الله، لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وهذا الرجوع يشمل الرجوع إلى الله تعالى يوم القيامة، والرجوع إلى الله تعالى في أحكام الخلق الكونية والشرعية، كما قال تعالى: ﴿مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ (سورة الشورى: ١٠).

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (سورة النساء: ٥٩).

من فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وذلك لكون الرجوع إليه، وأنه لابد من الرجوع إلى الله؛ لأنه لولا هذا الرجوع لكان خلقُ الخلق

عبثًا، لا فائدة منه؛ إذ إنه لولا هذا الرجوع والمجازاة على العمل في هذا الرجوع لكانت الخليقة خلقت ليُفسد في الأرض من يُفسد، وتحدث الفتن والشرور، والنهاية: لا شيء.

في هذه الآيات كلها: إثبات قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إحياء العظام وهي رميم، وذلك من عشرة أوجه:

الأول - قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن فيه استدلالاً بالأشد على الأخف.

الثاني - قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ وعلمه بكل خلق يقتضي أنه - سبحانه وتعالى - قادر على إحياء العظام وهي رميم.

الثالث - قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ﴾ فإن من جعل من هذا الأخضر البارد الرطب نارًا، وهي يابسة محرقة، قادرٌ على أن يُعيد الخلق؛ لأنَّ هذا أبلغ في القدرة، أعني: جعل النار من الشجر الأخضر.

الرابع - قدرته على خلق السموات والأرض دليل على قدرته على إحياء العظام وهي رميم؛ لأن خلق السموات والأرض أعظم ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

الخامس والسادس - ﴿الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ والخلاق: صفة لازمة له، وكونه خلاقًا يشمل أنه يخلق كل شيء، وكونه عليمًا يدل على أنه لا يخفى عليه شيء من الخلق حتى يعجز عنه.

السابع - أنه لا يستعصي عليه شيء؛ بل إذا أمر بشيء كان في الحال، لقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

الثامن - تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن كل نقص، ومن المعلوم أن العاجز عن إعادة الخلق ناقص؛ فإذا كان منزهًا عن كل نقص كان من الممكن أن يقع ما وعد به من إحياء العظام وهي رميم.

التاسع - أن بيده ملكوت كل شيء، ومن بيده ملكوت كل شيء يعني: أنه مالك لكل شيء؛ فإنه قادر على أن يوجد المعدوم ويُعدم الموجود.

العاشر - قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فإن هذا هو نتيجة الخلق، أن يُبعث الخلق ويُرجعون إلى الله؛ ليجازيهم بما عملوا.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات



الفهـــرس

الآيـــة — صفحة

الآيــة	صفحة

الآية صفحة